موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة

لصاحبها الأستاذ الدكتور
بسيوني محمد الخولي

المجلد الأول
السياسة والحكم في الإسلام

الجزء الثاني
نحو صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة

٣

موسوعة الدرر الزاهرة
فى الأصالة المعاصرة

لصاحبها الأستاذ الدكتور
بسيونى محمد الخولى

المجلد الأول
السياسة والحكم فى الإسلام

الجزء الثانى
نحو صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة

٣

إشراف
أ / محمد عمر الفاروق

موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة

المجلد الأول : السياسة والحكم فى الإسلام

الجزء الثانى : نحو صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة

المؤلف: أ.د. بسيونى محمد الخولى

رقم الإيداع: ٩٣٨٧ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977 – 5197 – 15 – 5

الطبعة: الأولى ٢٠٠٨

تصميم الغلاف: فنان تشكيلى / حسام حنيطر

الناشر: أصيلة للتصميم والنشر

٣٢ شارع د. محمد عوض – مكرم عبيد – مدينة نصر – القاهرة

ت : ٢٢٧٤٢٥٠٩ email: henetar@link.net

www.tashkila.net



البريد الإليكتروني
ALDORAR_ALZAHERA@YAHOO.COM

المحتويات

فهرس الموضوعات

الفصل السادس

فهرس الأشكال البيانية

تمهيد

انتهينا في الجزء الأول من استعراض جملة القواعد والأصول ، التي يمكن الانطلاق منها إلى بناء وصياغة نظرية إسلامية في السياسية والحكم ، وبناء هذه النظرية لابد أن يبدأ من الإمساك بالمفردات والمكونات الخاصة بالنظريات السياسية المعاصرة ، والمسيطرة على التجارب السائدة في جميع أنحاء العالم المنعوت بالمتقدم ، وبعد ذلك نستنبط من رصيدنا الإسلامي الزاخر ، ما يماثلها ويناظرها اصطلاحاً ووظيفةً ، وما يفوقها تنظيماً وترتيباً ، وما يتجاوزها تحضراً وتقدماً ، وما يعلوها كفاءةً وفاعليةً .

إننا لم نشأ ونحن بصدد صياغة هذا البناء الفكري المتكامل ، أن ندفع بأفكار نظرية مجردة ولكننا اجتهدنا من أجل إقامة أو إنشاء هيكل أو بناء من تلك الأفكار ، لكل فكرة موقعها الذي يعكس دورها الوظيفي في ذلك البناء ، ثم يبدو البناء في النهاية كلاً متكاملاً مشدوداً بعضه إلى بعض ، من خلال العلاقات الارتباطية بين أجزائه ومكوناته من الأفكار والمفاهيم .

من استعراض الأفكار والمفاهيم الإسلامية في إطار بناء نظرية سياسية ، ينقل تلك الأفكار من حيز التجريد إلى واقع الوظيفية التي تقرّب إلى الذهن فاعلية وكفاءة المفاهيم والأفكار الإسلامية ، عندما توضع موضع التطبيق ، وتثبت للجميع أنها قابلة للتفعيل في كل زمان ومكان .

نبدأ هذا البناء بمجموعة من القواعد والأسس النظرية ، نعرض فيها للطرح الإسلامي إزاء بعض الأفكار والنظريات التي انتشرت وسادت ، وتعامل معها البعض على أنها مفردات

أساسية في النظرية السياسية الغربية ، وتمثلت تلك المفردات في نظرية السيادة ، ونظرية الدولة ، ونظرية النظام السياسي .

ثم ننتقل إلى دراسة وتحليل أهداف الدولة في الإسلام ، ويلاحظ على أهداف الدولة في الإسلام ، أنها ذات خصوصية وتفرُّد ، وأكثر تطوراً وتميزاً .

بعد ذلك نعرّج على دراسة المنهاج الإسلامي [النظام السياسي في الإسلام] ، الذي يتولى مهمة تحقيق أهداف الدولة ، وللنظام السياسي في الإسلام خصائصه ومميزاته التي تدفع به إلى مقدمة النظم الأكثر تحضراً ورقياً في العالم .

أما القيم السياسية الإسلامية ، فلها حظ وافر داخل النظرية الإسلامية ، ومن هذه القيم ما جاء في ثنايا جزئيات داخل البناء النظري مثل الشورى التي جاءت في كنف النظام السياسي ، ومثل النصح والتوجيه التي جاءت في جزئية مستقلة ، ومنها ما انتظم في نسق مستقل مثل العدالة والمساواة والحرية .

وفي قمة النظرية السياسية الإسلامية ، تأتي مسئولية النصح والتوجيه ، التي تمارسها الأمة عبر وسائل وأدوات معينة للحاكم أو ولي الأمر ، وكل من يتولى المسئولية في الدولة الإسلامية ، وتأتي هذه القيمة كقيمة حضارية ، لم يتوصل الفكر البشري إلى صياغتها وتطبيقها ، إلاّ بعد مئات السنين من العناء والمشقة .

إن الأدوات والوسائل النظامية والتنظيمية التي احتوتها النظرية السياسية الإسلامية تحتاج دوماً إلى تطوير وتجديد بما يتواءم مع طبيعة المجتمعات الإسلامية وخصوصياتها التي قد تحمل بعض التمايز والتباين ، ولعله من الأهمية والضرورة بمكان للطرح الإسلامي في مجال

السياسة والحكم فكراً وحركةً أن تتم عملية التطوير والتجديد داخل المجتمعات الإسلامية .

ويأتي هذا الجزء في ستة فصول ، على النحو التالي :

الفصل الأول : الطرح الإسلامي تجاه بعض قضايا الفكر السياسي المعاصر .

الفصل الثاني : أهداف الدولة في الإسلام .

الفصل الرابع : المنهاج الإسلامي [النظام السياسي في الإسلام] .

الفصل الرابع : وسائل تحقيق أهداف الدولة في الإسلام

[نسق القيم السياسية الإسلامية] .

الفصل الخامس : مسئولية النصح والتوجيه للقائمين على المنهاج الإسلامي .

الفصل السادس : تطوير نماذج وأدوات الحركة .

الفصل الأول

الطرح الإسلامي تجاه

بعض قضايا الفكر السياسي المعاصر

ثمة بعض القضايا والأفكار ذات الأهمية في الفكر السياسي المعاصر ، ومن المجدي والضروري معاً ، أن نقف على عناصر الطرح الإسلامي تجاه هذه القضايا .

فنظرية السيادة من القضايا التي أثارت إشكاليات ومعضلات جسيمة في الفكر السياسي الغربي ، ولكن الإسلام وقف منها موقفاً نموذجياً فريداً ، وانتهى بها إلى أصلها ومنبعها الذي انبعثت منه ، وكشف عن أهداف هذه النظرية ، ومرامي مبتدعيها ومعتنقيها ، فلم تُثر نظرية السيادة للإسلام أية مشاكل ، ولم يفلح في التشويش على صفاء المعتقد ، ولم تحدِث أي تثبيط في مقدرة الإسلام على التعبير عن نفسه والتعامل مع الدخيل وتطويعه .

أما بالنسبة إلى نظرية الدولة ، فالتعرض لها من خلال الطرح الإسلامي وجيه لسببين :

السبب الأول : أن الدولة هي إحدى الطروحات المهمة التي أفرزها الفكر السياسي العالمي ، ولا تزال تلعب دوراً محورياً في الفكر السياسي المعاصر ، وترتبط ارتباطاً عضوياً بعلم السياسة والظاهرة السياسية ، إلى حد أن تعامل معها البعض على أنها هي السياسة عينها ، وجوهر الظاهرة السياسية .

السبب الثاني : أن الدولة تمثل جزئية مهمة في النظرية السياسية الإسلامية ، وقد رأينا تناولها في جزئية مستقلة ، انطلاقاً من تلك الأهمية .

وبالنسبة إلى نظرية النظام السياسي ، فهي مثل نظرية الدولة تدفعها أهميتها في الفكر السياسي المعاصر إلى احتلالها موقعاً متقدماً في سلم ترتيب مفردات النظرية السياسية الإسلامية .

ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث كالآتي :

المبحث الأول : السياسة والحكم في الإسلام ونظرية السيادة .

المبحث الثاني : السياسة والحكم في الإسلام ونظرية الدولة .

المبحث الثالث : السياسة والحكم في الإسلام ونظرية المنهاج الإسلامي [النظام السياسي] .

المبحث الأول

السياسة والحكم في الإسلام ونظرية السيادة

السيادة مفهوم وُلد ونشأ في كنف الفلسفة والنظرية السياسية ، ودفعت به إلى حيز الوجود ظروف محددة ، تمثلت في حالة عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي التي سادت أوربا بشكل عام وفرنسا بشكل خاص خلال القرن السادس عشر ، فقد كان مفهوم السيادة أساس الفلسفة السياسية للمفكر السياسي الفرنسي جان بودان ، الذي كان أول من استعمل هذا المفهوم في كتابه الضخم " ستة كتب عن الجمهورية " وعرّف بودان السيادة بأنها " السلطة المطلقة الدائمة " التي يجب أن تسود المجتمع وتحكمه ، ويرى بودان أن السيادة ينبغي أن تتركز في يد الملك وحده ، حتى يتمكن من السيطرة على الأوضاع ، ولكن على الملك أن يحكم متقيداً بالقانونين الطبيعي والإلهي .[1]

مما تقدم يمكن استخلاص ما مفاده أن مفهوم السيادة قد جاء على يد جان بودان كرد فعل على الأوضاع في أوربا عموماً وفرنسا خصوصاً ، كما أنه لم يستطع أن ينادي بوضع السيادة في يد الملك دون قيود ، وقد تمثلت تلك القيود في القانونين الطبيعي والإلهي .

وعلى النقيض مما تقدم ، ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ظهر توماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو ، ونادوا بأن تكون السيادة للشعب ممثلاً في أفراد المجتمع ، كما حددوا خصائص السيادة في :[2]

[1]. جورج سباين ، تطور الفكر السياسي ، الكتاب الثالث ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٥٥-٥٦٢ .
[2]. جان توشار وآخرون ، تاريخ الفكر السياسي ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٣٢-٣٣٨ .

أولاً : أنها لا تُفوض .

ثانياً : وأنها لا تتجزأ .

ثالثاً : وأنها مطلقة ولا قيود عليها .

رابعاً : وأنها دائماً على حق ولا تخطئ .

مما تقدم يتبين أن مبدأ السيادة ذا المنشأ الأوربي ، هو مبدأ ذرائعي تبريري ؛ يستخدمه كل من يطمح في السيطرة والنفوذ على مقدرات المجتمع ، ويملك زمام الأمور .

بعد ذلك تفتت مفهوم السيادة واتجه اتجاهات شتى ، وبدأ يستخدم كمفهوم قانوني أكثر منه مبدأ سياسي :

أولاً : في مجال القانون الدولي العام : تمثل مفهوم السيادة في سلطة الدولة على إقليمها وشعبها ، في مواجهة الدول الأخرى والمنظمات الدولية المخاطبين بالقانون الدولي .

ثانياً : وفي مجال القانون الدبلوماسي والقنصلي : تجسد مفهوم السيادة في حدود المهام الدبلوماسية والحصانات التي يتمتع بها ممثلو الدول داخل الدول الأخرى .

وليس لمفهوم السيادة وجود في مفردات الحكم والسياسة في الإسلام ، ليس لأن الشريعة الإسلامية أو الدين الإسلامي لا يمتلكان أساليب ووسائل التعامل مع مثل هذه المسائل ، وليس لأن الفكر الإسلامي متهم بأنه صورة أخرى من صور الحكم الديني المستبد ، الذي مارسه حكام أوربا في العصور الوسيطة كما سبق الإيضاح ! .

ولكن الإسلام من الرحابة والتطور بما يجعله يتجاوز مثل هذه المفاهيم الذرائعية المقوتة ، ولا يلتفت إليها " فالإسلام يرفض فكرة الكهنوت ، والإسلام يمثل بالنسبة لأهله رسالة وحي تُستمد من القرآن والسنة ، والإسلام يهتم بالإنسان وإقرار سلطاته واجتهاده في تقرير القوانين والضوابط وتحديدها والتعبير عنها في إطار فكر الجماعة " .[1]

وانطلاقاً من الإطار الإسلامي الذي يقوم على مبدأ التوحيد ، وتخصيص مركز الألوهية فيه للخالق ، فإن التمييز بين نظام الحكم في الإسلام وسواه من الأنظمة المعاصرة هو في مصادر التشريع ، لا في السيادة أو في سلطة تقرير إلزامية قواعد قانونية بعينها دون أخرى وصياغة دون أخرى " .[2]

" فالإنسان المسلم بإسلامه قد أعلن وقرر مختاراً ، قيمة الرسالة المحمدية — القرآن والسنة — مصادر أساسية لفكره وفلسفته وعلاقاته ، ومصادر المعرفة ، وفهمه للحياة والكون وما وراء الكون ، وهذا الإعلان هو قرار واعي متجدد متعلق بالإرادة الإنسانية في الوقت الذي أنكرت الفلسفات والمجتمعات الغربية قيمة الوحي والتوجيه الإلهي للحياة البشرية وأهدافها كمصدر من مصادر المعرفة ، وقصرت ذلك على علم الإنسان وحده واجتهاده ، وكلنا يعلم ما كان يمكن أن تكون عليه الجماعات الإنسانية لو أنها رفضت مصادر المعرفة الإلهية ، التي توالت بها الرسالات ، وقام على أساسها كيان الجماعات وعلاقاتها الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ، وأصرت على مصدر المعرفة المادي الحسي وحده "[3] .

[1]. د. عبدالحميد أبو سليمان ، السياسة والحكم في الإسلام ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٢٤-٣٢٥ .
[2]. المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .
[3]. المرجع السابق ، نفس الصفحة .

" إن تميز نظام الحكم في الإسلام ليس في أمر السيادة ، ومن الذي يكون بيده حق تقرير الإلزام وحدوده في النظام العام ، والتعامل مع السلطات التنفيذية والحكم ولكن الفرق هو في مكان الوحي الإلهي ورسالاته من مصادر المعرفة في المجتمع الإنساني ، وبالتالي مصادر التشريع الأساسية لنظام الحكم الإسلامي ، إن جوهر الخلاف والتمييز بين النظام الإسلامي وسواه هو في إسناد مقام الألوهية إلى الخالق العليم وحده ، وتقرير القرآن والسنة المحمدية مصدراً للتشريع الأساسي في نظام الحكم الإسلامي ، حفظاً لحقوق الإنسان واستقراراً للمجتمع وإطاراً للشورى ، ومثل هذا الفهم وهذا التحديد لا مجال فيه للشعوذة والكهنوت والدجل ، وما ينبثق عنها مما يسمى بالأنظمة الثيوقراطية أو التيموقراطية في فكر الغرب "[1] .

إن نظام الحكم في الإسلام يعرف بدلاً من مفهوم السيادة " مبدأ توزيع الأدوار " ، ففي المجتمع الإسلامي لكلٍ دوره الذي يقوم به على أكمل وجه :

أولاً : الشريعة الإسلامية ممثلة في القرآن والسنة :

تتولى مهمة التشريع في ما يتعلق بالأصول والأسس والعموميات ، وما حوته من أحكام شرَّعها الخالق عزَّ وجلَّ ، واختار لخلقه الانصياع لها .

ثانياً : الحاكم أو الأمير أو ولي الأمر :

يتولى مهامه التي حددتها له الشريعة والمتمثلة في :

[1]. المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

* إقامة شرع الله .

* تحقيق مصالح الرعية .

* إعمار الأرض بالإنماء والتطوير .

* الدعوة إلى دين الله .

ثالثاً : الأمة أو الجماعة لها مجموعة مهام حيوية تتمثل في الآتي :

* الأمة هي التي تختار الحاكم وتبرم معه ميثاق البيعة الذي يحدد اختصاصات كل طرف وكذا حقوقه وواجباته ، وهذا هو الدور الأساسي للأمة في الظاهرة السياسية من وجهة نظر الإسلام ، وهو الدور المنشئ لصلاحيات الحاكم أو ولي الأمر ومسئولياته التي تحددها المرجعيات الإسلامية وتنعقد له فور مبايعته .

* الأمة أو الجماعة تتولى مهمة حيوية تتمثل في تزويد وإمداد الحاكم بمن يحتاج إليهم من المعاونين والمساعدين ، وهذا هو الدور التنفيذي للأمة .

* للأمة أو الجماعة كذلك مهمة حيوية أخرى تتمثل في تزويد وإمداد الحاكم بمن يحتاج إليهم من المستشارين وأهل الرأي والخبرة ، للقيام بمهمتي الاستشارة والتشريع فيما لم يرد فيه تشريع إلهي ، وهذا هو الدور الاستشاري والتشريعي للأمة .

* للأمة أو الجماعة كذلك مهمة حيوية أخيرة تتمثل في تقديم النصح والإرشاد للحاكم ومعاونيه ، إذا حاد عن الطريق المرسوم له وفق شرع الله .

المبحث الثاني

السياسة والحكم في الإسلام ونظرية الدولة

الدولة كنظرية ، هي أهم مفردات علم السياسة ، وكتنظيم هي أهم تكوينات الحياة السياسية ، وإذا كان للإسلام إسهامه المتميز في ما يتعلق بمسائل السياسة والحكم فينبغي أن ينسحب ذلك الإسهام على نظرية الدولة ، بوصفها أهم مكونات السياسة ونتتبع هذا الأمر من خلال الآتي :

أولاً : الدولة في الفكر الموضوع :

الدولة هي أرقى أشكال التطور الاجتماعي ، وأهم مظاهر الحضارة والمدنية ، وثمرة جهد عقلي وفكري شاق للمفكرين والفلاسفة في مجال الظاهرة السياسية ، امتزجت بعلم السياسة إلى درجة الذوبان ، فظن الكثيرون أن علم السياسة هو العلم الذي يدرس الدولة .

بدأ تناول الدولة كفكرة في أذهان المفكرين والفلاسفة ، ثم ازدهرت فغدت لب الفكر السياسي وخلاصته ، يدرسونها كواقع بكل ما له وما عليه ، ويتخيلونها كمثال ونموذج ، وانتهى بها الأمر إلى فكرة قانونية جامدة ، ومبحث ضمن مباحث علم السياسة .

كذلك لوحظ الخلط غير المتعمد أحياناً ، والنابع عن التشويش الفكري أحياناً أخرى لدى المفكرين والفلاسفة بين الدولة والحكومة والنظام السياسي ، وكان فكر أولئك الفلاسفة والمفكرين منصباً على الحكومة وفي ذهنهم أنها الدولة ، وقد تنبه الدارسون والباحثون في الوقت الراهن إلى الفارق بين الدولة والحكومة والنظام السياسي .

* عناصر الدولة في الفكر الموضوع :

تتكون الدولة من مجموعة عناصر أو مكونات تتآلف فتكوّن ذلك الكيان الذي يصعب تعريفه ، ولا يحبذ الكثيرون إجهاد الذهن بتعريفه ، لأنه مدرك وملموس في جانب وفكرة مجردة لا تدركها الحواس في جانب آخر ، ومن ثم فكلنا يعرف الدولة جيداً في فكره وذهنه ، ولكنه لا يستطيع أن يضع لها تعريفاً يرضيه ، وعلى أية حال فلابد أن نتوقع مثل هذه الإشكاليات الفكرية في كثير من المفاهيم والمدركات الخاصة بالظواهر الإنسانية .

وعن عناصر الدولة ومكوناتها ، يلاحظ أنها تتكون من العناصر التالية :

– المواطنون :

العنصر الأساسي في تكوين كيان الدولة هو المواطنون أو الشعب ، والمقصود بالمواطنين الأفراد التابعين للدولة ، والذين يحملون جنسيتها ، أما الأجانب المقيمين على إقليم الدولة فلا يدخلون في تكوين هذا العنصر ، ولا يوجد معيار لتحديد عدد مواطني الدولة ، وبالرغم من أهمية عدد السكان كعنصر من عناصر قوة الدولة ، إلاّ أن عدد مواطني الدولة لا يعتبر عنصراً جاسماً في التأثير على موقف الدولة أمام القانون الدولي والمنظمات الدولية والدول الأخرى .

– الإقليم :

إقليم الدولة هو العنصر الثاني من عناصر تكوينها ، ويُقصد به كل مساحة الأرض التي تتبع الدولة ، ويقيم عليها مواطنوها دون تحديد لعمق معين ، وإقليم الدولة يتضمن اليابسة وما فوقها وكل ما تحتها ، وتميل كافة الدول إلى تحديد حدودها من كافة الجهات ويتم ترسيم

تلك الحدود بطرق عدة ، وقد يكون إقليم الدولة متصلاً دون تجزئة ، وقد يكون مجزئاً ، يضاف إلى ما تقدم ويعتبر من إقليم الدولة المياه الإقليمية إن وجدت .

- الحكومة :

الحكومة هي أعلى سلطة عامة في المجتمع ، ويتبعها سلطات ثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، وتتولى الحكومة تحقيق أهداف الدولة ضمن سلطاتها أو وظائفها الثلاث المذكورة ، وأحياناً يحدث تداخل – كما سبق التنويه – بين الدولة والحكومة والنظام السياسي إلاّ أن التحليل السياسي يستوجب الفصل والتحديد .

- الاستقلال :

الاستقلال عنصر مهم من عناصر قيام الدولة ، وهو يعني عدم خضوع الدولة لأية مؤثرات أو قيود خارجية تحد من قدرتها على اتخاذ القرارات المتعلقة بتنفيذ سياساتها الداخلية والخارجية ، ويعمد البعض إلى الخلط بين مفهومي الاستقلال والسيادة ، ولكن هذا الخلط لا يجد ما يبرره إذا أدركنا الفارق الأساسي بين المفهومين ، ففي الوقت الذي يأخذ الاستقلال معناً قانونياً محدداً وواضحاً ، يرمي مفهوم السيادة إلى مغزى فلسفي أكثر عموماً وشمولية .

* نظريات نشأة وتطور الدولة :

كيف نشأ هذا الكيان المعروف بالدولة ؟ وكيف تطور إلى أن وصل إلى وضعه الراهن ؟ في هذا الخصوص ظهرت نظريات ووجهات نظر عديدة ، يمكن رصدها في عجالة من خلال الآتي :

– النظرية الكنسية :

تقوم هذه النظرية التي تبنتها الكنيسة في القرون الوسيطة لتحقيق مآرب خاصة بالهيمنة على مقاليد الحكم والسلطة السياسية على افتراض دجماطيقي مؤداه : أن الله أراد وجود وقيام الدولة ، واختار لها الحكام الذين يحملون مسئولية حكمها وإدارتها ، وطالما أن هؤلاء مفوضين من قِبل الله ، فيجب طاعتهم وعدم معارضتهم ، وقد تطور هذا الافتراض إلى ما عرف بفكرة " الحق الإلهي " .[1]

– نظرية إشباع الحاجات :

صاحب هذه النظرية هو أفلاطون ، إذ يرى أن الدولة إنما نشأت بفعل حاجة الفرد للتعاون مع الآخرين ورغبته في إشباع حاجاته ورغباته عن طريق هذا التعاون ، ولكن هل يستطيع الفرد أن يلبي كل حاجاته ورغباته عن طريق انتظامه في جماعة ، حتى ولو تطورت هذه الجماعة إلى دولة ؟ هذا افتراض لا يقوى على مواجهة الواقع فالجماعة وبالتالي الدولة لا يمكنها أن تحقق إلا جزءاً يسيراً من رغبات ومتطلبات الإنسان .[2]

– نظرية التطور الاجتماعي :

يعتبر أرسطو هو صاحب هذه النظرية ، وتقوم هذه النظرية على افتراض مؤداه : أن الدولة بدأت من الأسرة التي تطورت إلى عشيرة ، فقبيلة ، فمدينة ، فدولة ، ويقبل الكثير من الباحثين في علم السياسة هذه الفكرة ، ولكنها لا تقوم بمفردها كمبرر مقنع على قيام الدولة .

[1]. د. إسماعيل على سعد ، المجتمع والسياسة (الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٣) ص ص ١٥٩-١٧٩ .
[2]. إبراهيم درويش ، علم السياسة (القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٥) ص ص ١٦٣-١٦٤ .

– نظرية القوة المسيطرة (العصبية) :

قال بهذه النظرية ابن خلدون ، ومفاد هذه النظرية أن الدولة ظهرت نتيجة ظهور الأسر والعائلات الأقوى في المجتمع على الأسر والعائلات الأضعف ، وقد أدت غلبة وانتصار الأقوى إلى السيطرة على الأضعف ، وبالتالي قيامهم بتكوين الدولة ، وأخذ البعض بمفهوم القوة المادية كأساس لهذه النظرية ، في حين أخذ آخرون بمفهوم القوة بشقيها المادي والمعنوي ، أي القوة والنفوذ ، ولم تجد هذه النظرية الكثير من تحمس الباحثين والدارسين في مجال علم السياسة .[1]

– نظرية العقد الاجتماعي :

بلور هذه النظرية ونادي بها ثلاثة من مشاهير مفكري عصر النهضة في أوربا هم : توماس هوبز ، وجون لوك ، وجان جاك روسو ، وتقوم نظرية العقد الاجتماعي على أن المجتمع قد انتقل من حالة الطبيعة أو حالة " اللادولة " حيث لا توجد جهة متفق عليها تملك حق فرض النظام وتطبيق القانون وإدارة دفة المجتمع ، إلى حالة الدولة ، من خلال " عقد " أبرم بين الناس والحكومة ، حيث ظهرت حاجة الناس إلى تنظيم مجتمعهم ومنع سيادة الفوضى فيه ، وحيث تتولى الحكومة السلطة وإخضاع الناس لها ، ونظراً لما تضمنته هذه النظرية من أهداف ذات طبيعة ذرائعية تبريرية ، ونظراً لما قامت عليه من أساس تصوري خرافي متمثل في افتراض حالة الطبيعة " اللادولة " وافتراض " العقد الاجتماعي " بين الناس والحكومة ، لذا فقد ووجهت هذه النظرية بانتقادات حدَّت من جاذبيتها .[2]

[1]. د. محمد على العويني ، أصول علم السياسة (القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨١) ص ص ٢٣-٢٤ .
[2]. د. صدقة يحي فاضل ، مبادئ علم السياسة (جدة ، دار النوابغ للنشر والتوزيع ، ١٩٩٦) ص ص ١٦٣-١٦٤ .

مما تقدم يلاحظ أن نشأة الدولة وبروزها على أرض الواقع لا تزال غامضة ، ولم يقدّر لأحد أن يكتشف كيف كانت تلك النشأة ، واكتفى الجميع بانتقاد ما ظهر من نظريات وآراء في هذا الصدد ، وانصرف الاهتمام الرئيسي إلى ظاهرة الدولة كوضع قائم من خلال علاقتها بالقانون والتنظيم الدولي .

* أشكال الدولة :

يتم تحديد أشكال الدولة بناءاً على معيار " مدى تعدد مراكز صنع القرار في الدولة " والذي يعني أيضاً بعبارة أخرى " وحدة السيادة أو تجزئتها "[1] ، وبناءً على هذا المعيار تعارف الباحثون في مجال علم السياسة على تقسيم الدول إلى شكلين :

– الشكل الأول : الدولة البسيطة :

وهي دولة يتوحد فيها مركز السلطة ولا يتعدد[2] ، ومعظم دول العالم تأخذ شكل الدولة البسيطة .

– الشكل الثاني : الدولة المركبة :

وهي الدولة المكونة من عدة دويلات أو ولايات أو دول مستقلة أو تتمتع بالاستقلال الذاتي فقط ، ترتبط مع بعضها بهيئة مركزية مشتركة ، تنظم وتشرف على بعض أمورها وقد اتفق

---

[1]. د. إبراهيم درويش ، علم السياسة ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ .
[2]. يحي أحمد الكعكي ، مقدمة في علم السياسة (بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣) ص ص ١١٥ -١١٦ .

الباحثون في مجال علم السياسة على وجود أربعة أنواع من الدولة المركبة ، يمكن تناولها بإيجاز في الآتي :[1]

○ الاتحاد الشخصي : وهو عبارة عن اجتماع دولتين تحت رئاسة صاحب عرش واحد ، مع احتفاظ كل دولة باستقلالها داخلياً وخارجياً وبقائها كدولة ، وقد أصبح هذا النوع من أنواع الدولة المركبة في طي التاريخ ، ولا توجد منه أية نماذج قائمة .

○ الاتحاد الحقيقي : هو اتحاد دائم تكون له حكومة مشتركة واحدة تسيّر أموره الخارجية وبعض أموره الداخلية ، وتترك للحكومات المحلية تسيير الشئون الداخلية الأخرى ، وقد قامت معظم الاتحادات الحقيقية المعروفة بين ملكيات[2] ، ولم يعد ثمة نماذج من هذا الاتحاد على أرض الواقع .

○ الاتحاد الكونفدرالي : ويقوم هذا الاتحاد على اتحاد عدد من الدول المستقلة ، التي تتنازل برضاها وبصورة دائمة عن جزء من حرية تصرفها لأغراض معينة خاصة ولا تجتمع في ظل حكومة واحدة مشتركة[3] ، ويتمثل الاتحاد الكونفدرالي في المنظمات الدولية الحكومية الإقليمية المعاصرة .

○ الاتحاد الفيدرالي : هو دولة واحدة مكونة من ولايات [أعضاء] ، متحدة في ظل دستور عام يوزع السلطة بين الولايات والحكومة المركزية المشتركة ، بحيث يضمن للولايات حكم وإدارة معظم أمورها الداخلية ، بينما تتولى الحكومة المركزية إدارة العلاقات الخارجية للدولة وبعض الأمور الداخلية للولايات ككل[4] ، وتتمثل أمثلة هذا الاتحاد في : الولايات

1. المرجع السابق ، ص ص ١٥٠-١٥٣ .
2. المرجع السابق ، ص ١٣٥ .
3. المرجع السابق ، ص ص ١١٦-١١٧ .
4. المرجع السابق ، ص ص ١٣٢-١٣٣ .

المتحدة ، كندا ، البرازيل ، المكسيك ، ألمانيا ، سويسرا ، النمسا ، الاتحاد السوفياتي سابقاً ، الهند ، استراليا ، ونيجيريا .

ثانياً : السياسة والحكم في الإسلام ونظرية الدولة :

بإيجاز واقتضاب تناولنا نظرية الدولة في الفكر الموضوع ، وفي هذه الجزئية ننتقل إلى تناول الطرح الإسلامي تجاه ظاهرة الدولة ، كإحدى مفردات الظاهرة السياسية ، منطلقين من جملة القواعد والأصول التي تم رصدها في الجزء الأول ، وذلك من خلال الآتي :

* مراحل تطور المجتمع البشري في القرآن الكريم :

حدد القرآن الكريم أشكالاً ومراحل للمجتمع البشري مر بها ، ويمكننا تتبع هذه المراحل ورصد هذه الأشكال على الوجه التالي :

– الفصيلة :

هي الأسرة الأكبر أو العائلة ، وتعد الفصيلة وفق ما جاء في كتاب الله الوحدة الأساسية في التكوين الاجتماعي البشري بشكل عام ، قال تعالى " وفصيلته التي تئويه "[1]، أي العائلة التي ينتمي إليها الفرد ، وتكون رابطة الدم في الفصيلة أقوى ما تكون .

– العشيرة :

هي تكوين بشري مؤلف من مجموعة عائلات وتكون رابطة الدم في العشيرة أقل قوة منها في الفصيلة ، قال الحق تبارك وتعالى " قل إن كان ءابآؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم

---

[1]. سورة المعارج : ١٣ .

وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين"[1] ، فالآباء والأبناء والإخوان والأزواج يكوّنون العائلة أو الفصيلة ثم بعد ذلك تأتي العشيرة وهي التي تلي العائلة أو الفصيلة في العدد وقوة الرابطة .

وقال تعالى " وأنذر عشيرتك الأقربين "[2] ، تتضمن هذه الآية الكريمة أمراً من الحق تبارك وتعالى لرسوله بأن يبدأ بنشر الدعوة إلى دين الله ، وكانت نقطة الانطلاق دعوة العشيرة قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا عبد الله بن نمير ، عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن بن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله عزّ وجلّ " وانذر عشيرتك الأقربين " أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادي " يا صاحباه " فاجتمع الناس إليه ، بين رجلٍ يجئ إليه وبين رجلٍ يبعث رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا بني عبد المطلب يا بني فهر يا بني لؤي ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تُغير عليكم صدقتموني ؟ " قالوا : نعم قال " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله " تبت يدا أبي لهب وتب " رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

وقال تعالى " لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الأخر يُوآدّون من حآد الله ورسوله ولو كانوا ءابآءهم أو أبنآءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ،

[1]. سورة التوبة : ٢٤ .
[2]. سورة الشعراء : ٢١٤ .

أولئك حزب الله ألآ إنَّ حزب الله هم المفلحون "[1]، فالعشيرة جاءت في الترتيب بعد العائلة أو الفصيلة التي تضم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج .

– القبيلة :

كذلك القبيلة هي أحد أشكال التجمعات البشرية التي مرَّ بها التطور الإنساني ، وهي معروفة جيداً لدى العرب ، إذ كانت العرب في الجاهلية وحتى بعد ظهور الإسلام تُعِر مسألة الانتماء القبلي أهمية ملحوظة ، فبلاد العرب التي تمثلت في شبه الجزيرة العربية التي تشمل اليمن ، والشام ، كانت هذه البلاد مؤلفة من قبائل ، ومن اتحاد القبائل نشأت القرى والمدن ثم الأمم ، والقبيلة تتكون من مجموعة من العشائر تربطها صلات الدم ووشائج القربى وعرى الأرحام ، قال تعالى " يآ أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبآئل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم خبير "[2]، أي ليحصل التعارف بالرجوع إلى القبيلة التي انحدر منها وينتسب إليها الفرد ، كذلك فالتعارف هدف سام مقصده إقامة العلاقات الطيبة بين بني البشر ، ويستفاد ذلك من توجيه الخطاب من الحق تبارك وتعالي إلي كل الناس ، وذلك يحمل إنكاراً للعصبية والقبلية ، فكل الناس تنتمي إلي آدم وآدم من تراب .

– الشعب :

الشعب تكوين بشري أعم من القبيلة ، فهو يتكون من مجموعة قبائل يرتبطون ببعضهم بموجب التواجد في مكان واحد ، وتسير حياتهم بطريقة وأسلوب واحد ، والشعب قد

---

[1]. سورة المجادلة : ٢٢ .
[2]. سورة الحجرات : ١٣ .

تدخل إليه عناصر بشرية لا تنتمي إلى قبائل معروفة وليس لها أصل قبلي أو عشائري معلوم ، ولكنها تعرف بانتمائها إلى الشعب الذي يسكن منطقة محددة ، وقيل أن الشعب بطن العجم كما أن القبيلة بطن العرب والسبط بطن بني إسرائيل ، وقد وردت لفظة الشعب مجموعة في الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات في الفقرة الأخيرة من البند السابق .

– القرية :

هي تكوين بشري يرتبط بالمكان أكثر من ارتباطه بالصلات والروابط الاجتماعية ، فالقرية مجموعة من القبائل يقيمون في موقع جغرافي محدد ، وتعتبر القرية أول مظاهر التنظيم العمراني الحضاري الثابت ، وللقرى من حيث التخطيط العمراني والموقع الجغرافي أنماط وأشكال عديدة ، فهناك القرى الساحلية وهناك القرى الجبلية وهناك قرى الوديان والسهول .

قال تعالى " وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حِطَّة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين "[1] ، والقرية هنا هي بيت المقدس .

وقال تعالى " أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك ءاية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شئ قدير "[2] ، والقرية التي مر عليها عزير في هذه الآية الكريمة هي بيت المقدس بعد تدمير وتخريب بوختنصر لها وقتل أهلها .

[1]. سورة البقرة : ٥٨ .
[2]. سورة البقرة : ٢٥٩ .

وقال تعالى " وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً "[1]، والقرية هي مكة المكرمة وكانت تحت سلطان المشركين .

وقال تعالى " وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون "[2]، كل قرية من القرى التي بعث الله إليها بالأنبياء والرسل لهدايتها .

وقال تعالى " ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون "[3]، والقرى هي القرى التي كذبت رسلها فأهلكها الله بظلمهم .

وقال تعالى " وكم من قرية أهلكناها فجآءها بأسنا بياتاً أو هم قآئلون "[4]، وقرية تدل على كثرة ما هلك من جنسها في أي وقت من الليل أو النهار لمخالفتهم أمر الله .

وقال تعالى " وما كان جواب قومه إلآ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون "[5]، والقرية في هذه الآية هي قرية قوم لوط .

وقال الله تعالى " ومآ أرسلنا في قريةٍ من نبي إلآ أخذنآ أهلها بالبأسآء والضرآء لعلهم يضَّرَّعون "[6]، وقرية تعني جميع القرى التي أرسل الله إليهم الأنبياء والرسل للبلاغ المبين .

وقال تعالى " ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون * أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نآئمون *

1. سورة النساء : ٧٥ .
2. سورة الأنعام : ١٢٣ .
3. سورة الأنعام : ١٣١ .
4. سورة الأعراف : ٤ .
5. سورة الأعراف : ٨٢ .
6. سورة الأعراف : ٩٤ .

أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون "[1]، والقرى هي القرى التي كذبت رسل الله وأنبياءه .

وقال تعالى " تلك القرى نقص عليك من أنبآئها ولقد جآءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين "[2]، والمقصود بالقرى هنا هي مواطن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

وقال تعالى " وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حِطّةٌ وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئآتكم سنزيد المحسنين "[3]، والقرية هنا هي بيت المقدس .

وقال تعالى " فلولا كانت قرية ءامنت فنفعهآ إيمانهآ إلا قوم يونس لمآ ءامنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين "[4]، والقرية في هذه الآية هي نينوى في الموصل بأرض العراق .

وقال تعالى " وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون "[5]، القرى هي مواطن الأقوام التي هلكت .

وقال تعالى " وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون "[6]، والقرى في هذه الآية يقصد بها المدن إلا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى

[1]. سورة الأعراف : ٩٦-٩٧ .
[2]. سورة الأعراف : ١٠١ .
[3]. سورة الأعراف : ١٦١ .
[4]. سورة يونس : ٩٨ .
[5]. سورة هود : ١١٧ .
[6]. سورة يوسف : ١٠٩ .

الناس طباعاً وأخلاقاً وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقى طباعاً وألطف من أهل بواديهم وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي .

وقال تعالى " ومآ أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم "[1] ، وقرية في هذه الآية تعني جميع القرى التي هلكت بذنوب أهلها .

وقال تعالى " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميراً "[2] ، وقرية هنا تعني من القرى التي أهلكها الله بذنوب أهلها .

وقال تعالى " وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً "[3] ، وقرية في هذه الآية تعني جميع القرى التي حق عليها العذاب .

وقال تعالى " وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً "[4] ، والقرى في الآية هي القرى التي أهلكها الله بذنوب أهلها وظلمهم .

وقال تعالى " فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لتخذت عليه أجراً "[5] ، والقرية هي قرية أيلة .

وقال تعالى " ما ءامنت قبلهم من قرية أهلكناهآ أفهم يؤمنون "[6] ، وقرية تعني كل من هلك من القرى .

[1]. سورة الحجر : ٤.
[2]. سورة الإسراء : ١٦ .
[3]. سورة الإسراء : ٥٨ .
[4]. سورة الكهف : ٥٩ .
[5]. سورة الكهف : ٧٧ .
[6]. سورة الأنبياء : ٦ .

وقال تعالى " وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً ءاخرين "[1]، والقرية تعني القرى التي أهلكها الله بظلمها .

وقال تعالى " وحرام على قرية أهلكناهآ أنهم لا يرجعون "[2]، وقرية تجري على كل القرى الهالكة .

وقال تعالى " فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد "[3]، أي قرى كثيرة أهلكها الله بذنوبها .

وقال تعالى " وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير "[4]، أي وقرى كثيرة أمهلها الله على ظلمها ثم أخذها .

وقال تعالى " ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً "[5]، أي من القرى التي كانت قائمة وقت بعثة الرسول الكريم ولكنه بُعِث لجميع أهل الأرض .

وقال تعالى " وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون "[6]، أي كل القرى الهالكة بعث الله إليها بالرسل .

وقال تعالى " وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ◦ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم

---

1. سورة الأنبياء : ١١ .
2. سورة الأنبياء : ٩٥ .
3. سورة الحج : ٤٥ .
4. سورة الحج : ٤٨ .
5. سورة الفرقان : ٥١ .
6. سورة الشعراء : ٢٠٨ .

ءاياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون "[1]، فالقرى التي بطرت كثيرة ، ولا يهلك الله قرية إلا بعد أن يقيم الحجة عليها بإرسال الرسل ، وقد أرسل سبحانه وتعالى رسوله الكريم إلى أم القرى وهي مكة المكرمة ليكون رسولاً للناس كافة .

وقال تعالى " ولما جاءت رسلنآ إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين "[2]، والقرية هي قرية قوم لوط بالأردن .

وقال تعالى " إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السمآء بما كانوا يفسقون "[3]، والقرية هي قرية قوم لوط بالأردن .

وقال تعالى " وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدّرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً ءامنين "[4]، والقرى المبارك فيها عن بن عباس أنها بيت المقدس أما القرى الظاهرة فهي البينة الواضحة التي يعرفها المسافرون .

وقال تعالى " ومآ أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوهآ إنا بمآ أرسلتم به كافرون "[5]، أي عموم القرى التي أهلكها الله .

وقال تعالى " واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون "[6]، والقرية هي إنطاكية .

---

1. سورة القصص : ٥٨-٥٩ .
2. سورة العنكبوت : ٣١ .
3. سورة العنكبوت : ٣٤ .
4. سورة سبأ : ١٨ .
5. سورة سبأ : ٣٤ .
6. سورة يس : ١٣ .

وقال تعالى " وكذلك مآ أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوهآ إنـا وجـدنآ ءاباءنـا على أمة وإنا على ءاثـارهم مقتـدون "[1] ، كـان هـذا هـو دأب كـل القـرى الـتي أهلكهـا الله سبحانه وتعالى فقد أفسدها مترفوها .

وقال تعالى " وقالوا لولا نُزِّل هذا القرءان على رجل من القريتين عظـيم "[2] ، والقريتـان همـا مكة والطائف .

وقال تعالى " ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون "[3] ، والخطـاب لأهل مكة ، وأهلك الله الأمم المكذبة للرسل مما حولها كعاد وكانوا بالأحقاف بحضر مـوت في اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بين مكة والشام ، وكذلك سبأ وهم أهـل الـيمن ، ومَـديَن وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضاً .

وقال تعالى " وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصـر لهـم "[4] ، أي أهلك الله قرى كثيرة كانت أشد قوة من قريتك التي أخرجتك وهي مكة .

وقال تعالى " مآ أفآء الله على رسوله من أهل القرى فللـه وللرسـول ولـذي القربـى واليتـامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ومآ ءاتاكم الرسـول فخـذوه ومـا نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب "[5] ، القرى هي القـرى والبلـدان الـتي تم فتحها على أيدي المسلمين .

---

[1] . سورة الزخرف : ٢٣ .
[2] . سورة الزخرف : ٣١ .
[3] . سورة الأحقاف : ٢٧ .
[4] . سورة محمد : ١٣ .
[5] . سورة الحشر : ٧ .

– المدينة :

المدينة تكوين اجتماعي أكبر من القرية وأكثر تنظيماً ورقياً وعمراناً ، وترتكز المدينة على عناصر المكان والمدنية والحضارة أكثر من ارتكانها إلى الروابط الاجتماعية ، وقد جاءت المدينة في القرآن الكريم مقترنة بالحضارة والمدنية وجمال العمارة وفنونها وعظمتها ، وفي كثير من الآيات القرآنية الكريمة كانت القرية والمدينة يأتيان كمرادفين يحمل كل منهما معنى الآخر .

قال تعالى " قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدآئن حاشرين "[1] ، والمدائن هي جمع مدينة وهي كبريات مدن مملكة مصر .

وقال تعالى " قال فرعون ءامنتم به قبل أن ءاذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتُخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون "[2]، والمدينة هنا هي عاصمة ملك فرعون وأكبر مدن مملكته .

وقال تعالى " وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم "[3]، والمدينة هي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى " ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا

1. سورة الأعراف : ١١١ .
2. سورة الأعراف : ١٢٣ .
3. سورة التوبة : ١٠١ .

يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين "[1]، والمدينة هنا هي مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال تعالى " وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين "[2]، والمدينة هي مقر إدارة الحكم والدولة وهي عاصمة ملك مصر .

وقال تعالى " وجآء أهل المدينة يستبشرون "[3]، والمدينة هي مدينة قوم لوط ، وقد سبق إطلاق القرية عليها .

وقال تعالى " وكذلك بعثناهم ليتسآءلوا بينهم قال قآئل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوآ أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيهآ أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً "[4]، أي مدينتهم التي خرجوا منها والألف واللام للعهد .

وقال تعالى " وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغآ أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً "[5]، وفي هذه الآية دليل آخر على إطلاق القرية على المدينة لأنه قال أولاً " حتى إذا أتيآ أهل قرية " وقال ههنا " فكان لغلامين يتيمين في المدينة " .

[1]. سورة التوبة : ١٢٠ .
[2]. سورة يوسف : ٣٠ .
[3]. سورة الحجر : ٦٧ .
[4]. سورة الكهف : ١٩ .
[5]. سورة الكهف : ٨٢ .

وقال تعالى " وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون "[1] ، والمدينة هي مدينة ثمود .

وقال تعالى " ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين "[2]، والمدينة هي عاصمة مملكة فرعون ومقر حكمه .

وقال تعالى " فأصبح في المدينة خآئفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين "[3]، والمدينة هي عاصمة مصر كما في الآية السابقة .

وقال تعالى " وجآء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين "[4]، والمدينة هي عاصمة مصر كما في الآية السابقة .

وقال تعالى " لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيهآ إلا قليلاً "[5]، والمدينة في هذه الآية هي مدينة الرسول الكريم .

وقال تعالى " وجآء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين "[6]، والمدينة هي إنطاكية وقد ذكرها الحق تبارك وتعالى على أنها القرية حيث قال " واضرب لهم مثلاً

---

[1]. سورة النمل : ٤٨ .
[2]. سورة القصص : ١٥ .
[3]. سورة القصص : ١٨ .
[4]. سورة القصص : ٢٠ .
[5]. سورة الأحزاب : ٦٠ .
[6]. سورة يس : ٢٠ .

أصحاب القريـة إذ جآءهـا المرسـلون " وهـذا دليـل ثالـث علـى أن القريـة والمدينـة يأتيـان كمرادفين .

وقال تعالى " يقولون لئن رجعنآ إلى المدينة ليخـرجن الأعـز منهـا الأذل ولله العـزة ولرسـوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون "[1]، والمدينة هي مدينة الرسـول عليه الصلاة والسلام .

– البلد :

البلد تكوين اجتماعي دلالته مجازية أكثر منهـا موضـوعية تحليليـة ، فالبلـد هـو محـل أو موضع معين قد يطلق على القرية وقد يطلق على المدينـة وقـد يطلـق علـى دولـة مـن الـدول بعمومها وشموليتها وقد يطلق كذلك على الأرض التابعة لبلد من البلاد .

قال الله تعالى " وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً ءامناً وارزق أهله من الثمرات مـن ءامـن منهم بالله واليوم الأخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النـار وبـئس المـصير "[2]، والبلد هو مكة المكرمة .

وقال تعالى " لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد "[3]، الحـديث مـن الحـق تبـارك وتعـالى موجه إلى رسوله الكريم والبلاد هي الحواضر التي يقـصدها الأثريـاء والوجهـاء والتجـار مـن مشركي مكة للتجارة وما هم عليه من الترف والنعمة والغبطة والسرور .

وقال تعالى " وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يـدي رحمتـه حتـى إذا أقلّت سـحاباً ثقـالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به المآء فأخرجنا به مـن كـل الثمـرات كـذلك نخـرج المـوتى لعلكـم

---

[1]. سورة المنافقون : ٨ .
[2]. سورة البقرة : ١٢٦ .
[3]. سورة آل عمران : ١٩٦ .

تذَّكرون ۞ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبُثَ لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرّف الأيات لقوم يـشكرون "[1]، والبلـد في الآيـتين الكـريمتين للدلالـة علـى الأرض منبـت الـزرع ومجلب الخير والنماء .

وقال تعالى " وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد ءامناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام "[2]، والبلد في هذه الآية الكريمة هي مكة المكرمة .

وقال تعالى " وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحـيم "[3]، والبلد في هذه الآية للدلالة على الموضع أو المكان .

وقال تعالى " لنحي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنآ أنعاماً وأناسي كـثيراً "[4]، كـذلك جـاءت بلدة في هذه الآية للدلالة على الأرض وهذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون فالماء يسقط على الأرض التي تستجيب له فتنبت الزرع والثمر ويكثـر الخـير والنمـاء فتزدهـر الحـضارة وتشيد المدن .

وقال تعالى " إنمآ أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرَّمها وله كل شئ وأمـرت أن أكـون من المسلمين "[5]، والبلدة هي مكة المكرمة .

وقال تعالى " لقد كان لسبإ في مسكنهم ءاية جنتـان عـن يمـين وشمـال كلـوا مـن رزق ربكـم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور "[6]، والبلدة الطيبة هي سبأ .

---

[1]. سورة الأعراف : ٥٧-٥٨ .
[2]. سورة إبراهيم : ٣٥ .
[3]. سورة النحل : ٧ .
[4]. سورة الفرقان : ٤٩ .
[5]. سورة النمل : ٩١ .
[6]. سورة سبأ : ١٥ .

وقال تعالى " والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور "[1] ، والبلد هو الموقع أو المكان الذي يشمل الأرض والبناء .

وقال تعالى " ما يجادل في ءايات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد "[2] ، البلاد هي الحواضر المجاورة لمكة المكرمة .

وقال تعالى " والذي نزَّل من السمآء مآء بقَدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون "[3] ، وكما سبق الإيضاح ارتبطت الأرض بالبلد لعلاقة السبب بالنتيجة .

وقال تعالى " رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج "[4] ، سبق الإيضاح .

وقال تعالى " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص "[5] ، أي ضربوا في البلاد المجاورة وساروا فيها يبتغون الأرزاق والتجارة .

وقال تعالى " التي لم يُخلق مثلها في البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد "[6] ، والمقصود البلاد التي كانت بزمانهم .

وقال تعالى " لآ أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد "[7] ، والبلد هي مكة المكرمة .

وقال تعالى " وهذا البلد الأمين "[8] ، والبلد الأمين هي مكة المكرمة .

[1] سورة فاطر : ٩ .
[2] سورة غافر : ٤ .
[3] سورة الزخرف : ١١ .
[4] سورة ق : ١١ .
[5] سورة ق : ٣٦ .
[6] سورة الفجر : ٨-١١ .
[7] سورة البلد : ١-٢ .
[8] سورة التين : ٣ .

– القرن :

قال تعالى " ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنَّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السمآء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً ءاخرين ".[1]

وقال تعالى " ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا وجآءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين " .[2]

وقال تعالى " فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا مآ أُترفوا فيه وكانوا مجرمين " .[3]

وقال تعالى " وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً "[٤]

وقال تعالى " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورءياً "[٥] .

وقال تعالى " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً "[٦] .

وقال تعالى " قال فما بال القرون الأولى "[٧] .

---

[1]. سورة الأنعام : ٦ .
[2]. سورة يونس : ١٣ .
[3]. سورة هود : ١١٦ .
[4]. سورة الإسراء : ١٧ .
[5]. سورة مريم : ٧٤ .
[6]. سورة مريم : ٩٨ .
[7]. سورة طه : ٥١ .

وقال تعالى " أفلم يهدِ لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لأيات لأولي النهى "[١] .

وقال تعالى " ثم أنشأنا من بعدهم قرناً ءاخرين "[٢] .

وقال تعالى " ثم أنشأنا من بعدهم قروناً ءاخرين "[٣] .

وقال تعالى " وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً "[٤] .

وقال تعالى " ولقد ءاتينا موسى الكتاب من بعد مآ أهلكنا القرون الأولى بصآئر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون "[٥] .

وقال تعالى " ولكنآ أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم ءاياتنا ولكنا كنا مرسلين "[٦] .

وقال تعالى " قال إنمآ أوتيته على علمٍ عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون "[٧] .

وقال تعالى " أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لأيات أفلا يسمعون "[٨] .

---

1. سورة طه : ١٢٨ .
2. سورة المؤمنون : ٣١ .
3. سورة المؤمنون : ٤٢ .
4. سورة الفرقان : ٣٨ .
5. سورة القصص : ٤٣ .
6. سورة القصص : ٤٥ .
7. سورة القصص : ٧٨ .
8. سورة السجدة : ٢٦ .

وقال تعالى " ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون "[1] .

وقال تعالى " كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص "[2] .

وقال تعالى " والذي قال لوالديه أُفٍ لكمآ أتعدانني أن أُخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك ءامن إن وعد الله حق فيقول ما هذآ إلآ أساطير الأولين "[3] .

وقال تعالى " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقّبوا في البلاد هل من محيص "[4] .

يتضح من الآيات الكريمة التي وردت بها لفظة " القرن " أو " القرون " أو " قرن " ما يلي :

- إن القرن عبارة عن أمة شديدة القِدم .

- إن لفظة القرن كما وردت في آيات الذكر الحكيم جاءت مقترنة بالكفر والضلال ولم تستخدم لفظة القرن للدلالة على أمة مؤمنة .

- إن لفظة القرن قد اقترنت بإهلاك الله لهذه الأمم جزاءاً لهم على كفرهم وضلالهم .

---

1 . سورة يس : ٣١ .
2 . سورة ص : ٣ .
3 . سورة الأحقاف : ١٧ .
4 . سورة ق : ٣٦ .

– القوم :

هذه اللفظة جاءت هي الأخرى لتتشابه مع الألفاظ الأخرى الخاصة بأشكال وصور التجمعات البشرية التي مر بها المجتمع الإنساني ، وقد جاءت لفظة القوم بخصوصية ومعايير معينة ، ويمكن إيضاح ذلك من خلال الآتي :

○ القوم يرتبطون عادة بالتواجد في موقع جغرافي محدد قال تعالى " كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر "[1]، وقال تعالى " وأصحاب الأيكة وقوم تُبّع كل كذّب الرسل فحق وعيد "[2]، وقال تعالى " إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وءاتيناه من الكنوز مآ إن مفاتحه لتنوأُ بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين "[3]، وقال تعالى " وقوم إبراهيم وقوم لوط "[4]، وقال تعالى " فلولا كانت قرية ءامنت فنفعهآ إيمانهآ إلا قوم يونس لمآ ءامنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتّعناهم إلى حين "[5]، وقال تعالى " ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقي أن يصيبكم مثل مآ أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد "[6]، وقال تعالى " ولقد فتنّا قبلهم قوم فرعون وجآءهم رسول كريم "[7] .

لقد أوضحت الآيات الكريمة أن الأقوام الذين نُسبوا إلى أنبيائهم قد تواجدوا في مناطق جغرافية محددة ، فقد تواجد قوم نوح في كل الأرض ، وتواجد قوم تُبّع في اليمن ، أما قوم موسى فقد وجدوا في مصر ثم خرجوا منها مع موسى إلى فلسطين ، وقوم إبراهيم وجدوا في

[1] . سورة القمر : ٩ .
[2] . سورة ق : ١٤ .
[3] . سورة القصص : ٧٦ .
[4] . سورة الحج : ٤٣ .
[5] . سورة يونس : ٩٨ .
[6] . سورة هود : ٨٩ .
[7] . سورة الدخان : ١٧ .

الموصل من العراق ، وقوم لوط وجدوا في الأردن ، وقوم يونس وجدوا في الموصل من العراق ، وقوم هود وجدوا في حضرموت من اليمن ، وقوم صالح وجدوا بين الحجاز والشام ، وقوم فرعون سكنوا مصر .

○ القوم يربط بين أفراده رابطة الدين ، فالدين أهم الروابط التي تربط بين أفراد القوم سواء أكان دين الإيمان أو دين الكفر ، قال تعالى " أولم يعلموآ أن الله يبسط الرزق لمن يشآء ويقدر إن في ذلك لأيات لقوم يؤمنون "[١]، وقال تبارك وتعالى " ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جآء أمةً رسولها كذَّبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون "[٢] .

○ لكل قوم كبراء يتبعونهم في الدين ، قال تعالى " ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار "[٣]، وقال تعالى " يقدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود "[٤]، وقال تعالى " فاستخفَّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين "[٥] .

○ يرى أهل التاريخ وأصحاب الأخبار وسِيَر الأولين أن أفراد الأقوام التي ذُكرت في القرآن الكريم كانت تربطهم رابطة الدم والقربى[٦] ، وقد كانوا ينحدرون من أصول وأنساب واحدة ويعتنقون ديانات واحدة ، ومن ثم تجتمع في لفظة القوم روابط المكان وأواصر الوجدان والانتماء إلي تلك الروابط .

[1] . سورة الزمر : ٥٢ .
[2] . سورة المؤمنون : ٤٤ .
[3] . سورة إبراهيم : ٢٨ .
[4] . سورة هود : ٩٨ .
[5] . سورة الزخرف : ٥٤ .
[6] النيسابوري ، قصص الأنبياء (القاهرة ، مكتبة الجمهورية) ص ٦٠ .

○ من استقراء الخصائص التي تميز لفظة " قوم " يتضح أن هذه اللفظة هي أساس مصطلح " قومية " المتداول في الوقت الراهن مع احتفاظ كل لفظة بخصوصيتها التي استمدتها من ظروفها الخاصة وحقبتها التاريخية .

– الأمة : [إحالة] :

كذلك فإن الأمة تعد أهم وأرقى أشكال ومراحل تطور المجتمع البشري كما ورد في القرآن الكريم ، ونظراً لأهمية هذا الشكل وجدوى هذه المرحلة ، فقد أفردنا جزئية مستقلة لدراسة الأمة ، ومن ثم نحيل إليها .

* الأمة في القرآن والسنة :

الإسلام بمصدريه الأساسيين القرآن والسنة لا يعرف معنى الدولة بمفهومها الذي سبق إيضاح عناصره ومقوماته ، ولكنه عرف مفهوماً آخر يؤدي نفس غرض مفهوم الدولة وهو مفهوم الأمة ، وإذا كان مفهوم الدولة هو إفراز لفكر بشري نشأ وتطور في أطر فكرية ومادية معينة ، فإن مفهوم الأمة قد نشأ وتطور هو الآخر في إطار القرآن والسنة ، متأثراً بما اتصف به كل منهما من الكمال والمثالية .

وقد جاءت لفظة " الأمة " في القرآن والسنة تحمل عدة معاني ، ومن المحبذ أن نقف على كل هذه المعاني ، وذلك من خلال ما يلي :

- الأمة بمعنى دين أو ملة أو طريقة :

لقد وردت لفظة " أمة " في كتاب الله بمعنى دين أو ملة أو طريقة ، قال تعالى " بل قالوا إناً وجدنآ ءابآءنا على أمة وإناً على ءاثارهم مهتدون * وكذلك مآ أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاً قال مترفوهآ إناً وجدنآ ءابآءنا على أمة وإناً على ءاثارهم مقتدون "[1] .

- الأمة بمعنى حين أو زمان أو عدد من الأيام :

كذلك وردت لفظة " أمة " في الذكر الحكيم بمعنى حين أو زمان أو عدد من الأيام ، قال تعالى " ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون "[2]، وقال تعالى " وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون "[3] .

- الأمة بمعنى جماعة من المخلوقات متجانسة ومتماثلة وتجمعها صفات خاصة :

ثم جاءت لفظة " أمة " في القرآن المجيد بمعنى جماعة من مخلوقات الله متجانسة ومتماثلة ، وتجمعها صفات خاصة ، قال تعالى " وما من دآبة في الأرض ولا طآئر يطير بجناحيه إلآ أمم أمثالكم ما فرطّنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربّهم يحشرون "[4] ، فالحيوان والطائر وكافة مخلوقات الله التي تجمعها صفات موحدة ومتجانسة ، تمثل أمماً مثل الأمم التي يكونها بنو البشر .

[1] . سورة الزخرف : ٢٢ و ٢٣ .
[2] . سورة هود : ٨ .
[3] . سورة يوسف : ٤٥ .
[4] . سورة الأنعام : ٣٨ .

وقال تعالى " قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فئاتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون "[1]، فالجن كمخلوقات ذات مواصفات خاصة ينتظمون في أمم مثل بني البشر ، ويتلقون رسالات الله ورسل الله وأنبياءه وهم محاسبون على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقال الحق تبارك وتعالى " وقيضنا لهم قرنآء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين "[2] .

وقال رب العزة " قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسُّهم منا عذاب أليم "[3]، فقد حمل رسول الله نوح معه في السفينة من كل مخلوقات الله زوجين ذكراً وأنثى ، وكل صنف من تلك الأصناف يشكل أمة ، تجمعه صفات خاصة ، وتنتظمه علاقات الهوية المشتركة .

- الأمة بمعنى جماعة أو طائفة من الناس :

وجاءت لفظة " أمة " في القرآن الكريم بمعنى جماعة من الناس أو طائفة أو جزء من الأمة التي تجمعها صفات مشتركة ، قال تعالى " أم كنتم شهدآء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله ءابائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ۝ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسئلون عما

1 . سورة الأعراف : ٣٨ .
2 . سورة فصلت : ٢٥ .
3 . سورة هود : ٤٨ .

كانوا يعملون "[1]، والأمة يقصد بها في هذه الآية الكريمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنوه وهم بنو إسرائيل وهم جماعة أو طائفة من مجموعة الأمم التي وجدوا فيها .

وقال تعالى " أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل ءأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون * تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسئلون عما كانوا يعملون "[2].

وقال تعالى " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون "[3]، أي ولتقم منكم يا أمة محمد طائفة للدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأنتم بذلك الفائزون .

ويقول تعالى " ليسوا سوآء من أهل الكتاب أمة قآئمة يتلون ءايات الله ءانآء الليل وهم يسجدون "[4]، والحديث في هذه الآية عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنهم ليسوا جميعاً متساوين في الكفر والضلال ، فمنهم طائفة أو جماعة مستقيمة ثابتة على الحق ويعبدون الله حق عبادته ، وهم الذين دخلوا في الإسلام .

ويقول عزّ وجلّ " ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ومآ أُنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم سآء ما يعملون "[5]، كذلك نزلت هذه الآية في أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق

---

1. سورة البقرة : ١٣٣ و ١٣٤ .
2. سورة البقرة : ١٤٠ و١٤١ .
3. سورة آل عمران : ١٠٤ .
4. سورة آل عمران : ١١٣ .
5. سورة المائدة : ٦٦ .

والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه ، ولو فعلوا ذلك لرزقهم الله رزقاً واسعاً ، ولكنهم حادوا عن طريق الله ، ولم يلتزم منهم بطريق الرشد والهداية إلاّ طائفة معتدلة سارعت إلى الإسلام .

ويقول الحق تبارك وتعالى " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون "[1]، أي ومن أتباع موسى من اليهود الذين نزل فيهم التوراة جماعة أو طائفة أو فرقة هداها الله إلى الحق وآمنوا بما أُنزل على موسى عليه السلام ، فهم يهدون غيرهم ويرشدونهم إلى الطريق المستقيم ويحكمون في الخلافات والخصومات بكتاب الله المنزل على نبيهم .

ويقول الله تعالى " وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينآ إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم وظلّلنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوآ أنفسهم يظلمون "[2]، أي أن الله قد مزّق وفرّق بني إسرائيل إلى اثنتي عشر جماعة أو فريقاً وكل جماعة أو فريق كالقبيلة عند العرب .

ويقول تعالى " وإذا قالت أمة منهم لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون "[3]، أي قالت جماعة أو طائفة من أهل القرية التي كانت حاضرة البحر ، والتي قيل أنها (أيلة) لِمَ تنهون هؤلاء الذين يتجاوزون حدود الله بالصيد في يوم السبت ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم ، فقال الناهون إنما نعظهم لنُعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح لعلهم أن يتقَوْا الله فينيبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إياه وتعديهم الاعتداء في السبت .

[1] . سورة الأعراف : ١٥٩ .
[2] . سورة الأعراف : ١٦٠ .
[3] . سورة الأعراف : ١٦٤ .

وقال تعالى " وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون "[1]، أي فرق الله اليهود في البلاد طوائف وفرقاً ففي كل بلدة فرقة منهم ، وليس لهم إقليم يملكونه حتى لا تكون لهم شوكة[2] ، ولم يؤمن منهم إلا قلة قليلة ، والباقون وهم الكثرة كفروا وفسقوا ، فاختبرهم الله بالنعم والنقم والشدة والرخاء لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي .

ويقول رب العالمين " ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون "[3]، الخطاب في هذه الآية موجه من الله سبحانه وتعالى إلى مشركي قريش الذين ينقضون العهد ولا يوفون بالوعد ، وشبههم بحمقاء مكة التي كانت تغزل غزلاً ثم تنقضه ، ويتخذون أيمانهم خديعة ومكراً يخدعون بها الناس لأجل أن تكون جماعة أو طائفة من الناس أكثر عدداً وأوفر مالاً من غيرها .

وقال تعالى " ولما ورد مآء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير "[4]، تحكي الآية الكريمة قصة خروج نبي الله موسى عليه السلام من مصر خائفاً على نفسه يترقب وينتظر الطلب أن يدركه ويأخذه ، وقد توجه إلى أرض مدين بلدة نبي الله شعيب عليه السلام ، ولما وصل إلى مدين بلدة شعيب وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة جمعاً كثيفاً من الناس يسقون مواشيهم ، ووجد سوى جماعة الرعاة امرأتين تكفّان غنمهما عن الماء ، فسألهما ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء ، ولِمَ لا تسقيان مع السقاة ، قالت المرأتان

---

1. سورة الأعراف : ١٦٨ .
2. محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، المجلد الأول ، ص ٤٧٩ .
3. سورة النحل : ٩٢ .
4. سورة القصص : ٢٣ .

من عادتنا أن نتأنى حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء ، حيث لا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء ، ولا نريد مخالطة الرجال ، وأبونا رجل مُسن لا يستطيع لضعفه أن يباشر سقاية الغنم ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا .

– الأمة بمعنى الأقوام والأمم التي سبقت ظهور الإسلام ووجود الأمة الإسلامية :

كذلك خاطب الحق تبارك وتعالى الأقوام والقرون والأمم التي سبقت ظهور الإسلام ووجود الأمة الإسلامية بلفظة " أمة " .

قال تعالى " كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جآءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين ءامنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشآء إلى صراط مستقيم "[1] ، أي كان الناس أمة واحدة مجتمعه على الكفر والضلال .

وقال تعالى " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلآء شهيداً "[٢]، أي كيف يكون حال الكفار والفجار حين نأتي من كل أمة بنبيها يشهد عليها ، ونأتي بك يا محمد على العصاة من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان .

ويقول تبارك وتعالى " وأنزلنآ إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بمآ أنزل الله ولا تتبع أهوآءهم عما جآءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شآء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في مآ ءاتاكم فاستبقوا الخيرات

---

[1]. سورة البقرة ٢١٣ .
[2]. سورة النساء : ٤١ .

إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون "[1]، أي ولو أراد الله لَجَمَع الناس كلهم في أمة واحدة على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شئ منها الآخر .

ويقول جلّ وعلا " ولقد أرسلنآ إلى أمم من قبل فأخذناهم بالبأسآء والضرآء لعلهم يتضرعون "[2]، أي أرسلنا الرسل والأنبياء إلى الأمم والقرون التي جاءت من قبلك يا محمد فكذبوا رسلهم وأنبياءهم ، فعاقبناهم بالفقر والبؤس والأسقام والأوجاع ، لكي يتضرعوا إلى الله بالتذلل والإنابة .

ويقول تعالى " ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زيّنا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون "[3]، أي زينا لكل أمة عملهم ، لأهل الطاعة الطاعة ، ولأهل المعصية المعصية .

ويقول الله تعالى " ولكل أمة أجل فإذا جآء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون "[4]، أي لكل أمة كذبت رسلها مدة مضروبة ومحددة لهلاكها ، فإذا جاء وقت هلاكها المقدر لها لا يتأخر عنها برهة من الزمن ولا يتقدم .

ويقول الحق تبارك وتعالى " وما كان الناس إلآ أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون "[5]، أي وما كان الناس إلاّ على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح عليه السلام ، فاختلفوا في دينهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، فبعث الله

[1]. سورة المائدة : ٤٨ .
[2]. سورة الأنعام : ٤٢ .
[3]. سورة الأنعام : ١٠٨ .
[4]. سورة الأعراف : ٣٤ .
[5]. سورة يونس : ١٩ .

الرسل مبشرين ومنذرين ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة لعجّل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين .

ويقول عزَّ وجلَّ " ولكل أمةٍ رسول فإذا جآء رسولهم قُضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون "[1] ، أي ولكل أمة من الأمم رسول أرسل لهدايتهم ، ويوم القيامة تُعرض كل أمة على الله بحضرة رسولها وكتاب أعمالها من خير وشر شاهد عليها وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً .[2]

ويقول تعالى " قل لآ أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلاّ ما شآء الله لكل أمة أجل إذا جآء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون "[3]، أي لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضراً ولا أجلب إليها نفعاً ، وليس ذلك لي ولا لغيري ، إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أملك ما استعجلتم به من العذاب ، لكل أمة وقت معلوم لهلاكها وعذابها ، فإذا جاء أجل هلاكها فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون ، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه .[4]

ويقول الله تعالى " ولو شآء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين "[5]، أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم أمة واحدة مؤمنين مهتدين على دين الإسلام ، ولكنه لم يفعل ذلك للحكمة ، ولا يزل الناس مختلفين على أديان شتى وملل متعددة ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ، إلاّ أناساً هداهم الله من فضله وهم أهل الحق .

---

1. سورة يونس : ٤٧ .
2. تفسير بن كثير ، المجلد الثاني ، ص ٣٨١ .
3. سورة يونس : ٤٩ .
4. الصابوني ، صفوة التفاسير ، مرجع سابق ، المجلد الأول ، ص ٥٨٧ .
5. سورة هود : ١١٨ .

ويقول تعالى " ما تسبق من أمة أجلها وما يستئخرون "[1]، أي لا يتقدم هلاك أمة قبل مجيء أوانه ولا يتأخر عنهم .

ويقول رب العالمين " ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين "[2]، أي أرسلنا الرسل إلى جميع الأمم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم لهدايتهم .

ويقول تعالى " تالله لقد أرسلنآ إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم "[3]، أي والله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم وأممهم فحسّن الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل وردّوا عليهم ما جاءوهم به من البينات .

ويقول الله تعالى " ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يُستعتبون "[4]، أي ويوم القيامة نحشر الخلائق للحساب ونبعث في كل أمة نبيها يشهد عليها بالإيمان أو الكفر .

ويقول عز وجل " ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين "[5] أي واذكر للناس ذلك اليوم وهوله حين نبعث في كل أمة نبيها ليشهد عليها ، وجئنا بك يا محمد شهيداً على أمتك .

---

1. سورة الحجر : ٥ .
2. سورة النحل : ٣٦ .
3. سورة النحل : ٦٣ .
4. سورة النحل : ٨٤ .
5. سورة النحل : ٨٩ .

ويقول تعالى " ولو شآء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشآء ويهدي من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون "[1]، أي لو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد وجعلهم أهل ملة واحدة لا يختلفون ولا يفترقون .

ويقول الله تعالى " ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين "[2]، أي شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله .

ويقول تعالى " لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم "[3]، أي لكل نبي من الأنبياء وأمة من الأمم السابقة وضعنا لهم شريعة ومتعبداً .

ويقول الله تبارك وتعالى " ما تسبق من أمة أجلها وما يستئخرون * ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جآء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون "[4]، أي ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة عن الوقت الذي عين لهلاكهم ولا تتأخر عنه ثم بعثنا الرسل متتالين واحداً بعد واحد .

ويقول تعالى " ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذبُ بئاياتنا فهم يوزعون "[5]، أي واذكر يوم نجمع للحساب والعقاب من كل أمة من الأمم جماعة وزمرة من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا ، فهم يجمعون ثم يساقون بعنف .

---

1. سورة النحل : ٩٣ .
2. سورة الحج : ٣٤ .
3. سورة الحج : ٦٧ .
4. سورة المؤمنون : ٤٣ و٤٤ .
5. سورة النمل : ٨٣ .

ويقول تعالى " ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون "[1]، أي أخرجنا من كل أمة شهيداً منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهو نبيهم ، وقال لهم الله هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر ، وعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله ، وأنه لا إله إلا هو ، وغاب عنهم ما كانوا يتخرصونه في الدنيا من الشركاء والأنداد .

وقال الله تعالى " وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين "[2]، أي وإن تكذبوني فلن تضروني بتكذيبكم وإنما تضرون أنفسكم ، فقد سبق قبلكم أمم كذبوا رسلهم فحل بهم عذاب الله ، وسيحل بكم ما حل بهم ، وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله وليس عليه هداية الناس .

وقال تعالى " إنّآ أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير "[3] ، أي بعثناك بالهدى ودين الحق بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، وما من أمة من الأمم في العصور والأزمنة الخالية إلا وقد جاءها رسول .

وقال تعالى " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جآءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جآءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً "[4]، أي حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها لئن جاءهم رسول منذر ليكونن أهدى من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من أهل الكتاب ، فلما جاءهم محمد رسول الله ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الحق وهرباً منه .

---

1. سورة القصص : ٧٥ .
2. سورة العنكبوت : ١٨ .
3. سورة فاطر : ٢٤ .
4. سورة فاطر : ٤٢ .

وقال الحق تبارك وتعالى " كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب "[1]، أي كذب قبل كفار مكة أقوام كثيرون منهم قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله كقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم ، وهمّت كل أمة من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به ، وجادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق الواضح الجلي ، فأهلكهم الله إهلاكاً مريعاً فكان عقاباً شديداً فظيعاً .

وقال تعالى " ولو شآء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخِل من يشآء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير "[2]، أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم أمة واحدة مهتدين ولكنه تعالى حكيم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه ، فيدخله بذلك في جنته ، ومن علم منه اختيار الضلال يضله ، فيدخله بذلك السعير ، والكافرون ليس لهم ولي يتولاهم يوم القيامة ولا نصير ينصرهم من عذاب الله .

ويقول تعالى " ولولآ أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون "[3]، أي ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق ويصيروا أمة واحدة في الكفر ، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش ، سقوفها من الفضة الخالصة وجعلنا لها مصاعد وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون [4] .

---

1. سورة غافر : ٥ .
2. سورة الشورى : ٨ .
3. سورة الزخرف : ٣٣ .
4. الصابوني ، صفوة التفاسير .. ، المجلد الثالث ، ص ١٥٧ .

ويقول الله تبارك وتعالى " وترى كل أمة جاثية كل أمة تُدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون "[1]، أي وترى كل أمة من الأمم التي سبقت ظهور الإسلام ، والتي زامنت ظهور الإسلام ، والتي أعقبت ظهوره ، جالسة على الركب من شدة الهول والفزع ، ثم تُدعى كل أمة من تلك الأمم إلى صحائف أعمالها ، فينالون جزاء أعمالهم .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فنزلنا منزلاً ، فمنا من يصلح خباءه[2]، ومنا من ينتضل[3]، ومنا من هو في جشره[4]، إذ نادي منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله فقال :" إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجئ الفتن يُرقّق[5] بعضها بعضاً وتجئ الفتنة فيقول المؤمن : هذه مُهلكتي ثم تنكشف وتجئ الفتنة فيقول المؤمن : هذه هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يُؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر " ، فالرسول الكريم قد جاء بلفظة " أمة " الأولى لتعني الأمم غير الإسلامية ، وبلفظة " أمة " الثانية لتعني الأمة الإسلامية .

---

1 . سورة الجاثية : ٢٨ .
2 . خباؤه : أي خيمته .
3 . ينتضل : أي يسابق بالرمي بالنبل .
4 . الجشر بكسر الجيم وفتح الشين يعني الدواب التي ترعى وتبيت في مكانها .
5 . يرقق : يشبه .

– الأمة بمعنى الأمة الإسلامية :

لقد وردت الأمة والمقصود بها الأمة الإسلامية في القرآن الكريم في أكثر من موضع والمقصود بالأمة الإسلامية تحديداً الأمة التي بُعث فيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والتي نزل عليها القرآن الكريم .

يقول تعالى " ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنآ أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم "[1]، أي اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك ، واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك ، والمقصود هنا الأمة الإسلامية ، وعلّمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا .

ويقول عز وجل " وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهدآء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليهآ إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم "[2]، أي وكما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا أمة محمد أمة اعتدال وهداية لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلّغتهم ، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم .

وقال الحق تبارك وتعالى " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو ءامن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون "[3]، أي أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس تدعون إلى الخير وتأمرون به .

---

1. سورة البقرة : ١٢٨ .
2. سورة البقرة : ١٤٣ .
3. سورة آل عمران : ١١٠ .

وقال تعالى " وممن خلقنآ أمة يهدون بالحق وبه يعدلون "[1]، أي ومن بعض الأمم التي خلقنا أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً يدعون الناس إلى الحق وبه يعملون ويقضون ، والمقصود بهذه الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .[2]

وقال تعالى " كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلهآ أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينآ إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لآ إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب "[3]، أي كما أرسلنا الأنبياء من قبلك كذلك أرسلناك يا محمد في أمة قد مضت قبلها أمم كثيرة ، فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء وهم عرب مكة الذين بعث فيهم الرسول الكريم ، وأمة الإسلام بعد إسلامهم ودخولهم في دين الله أفواجاً .

وقال تعالى " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون "[4]، أي دينكم وملتكم التي يجب أن تكونوا عليها أيها الناس ملة واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام .

وقال تعالى " وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون "[5]، أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملتكم ملة واحدة وهي دين الإسلام ، وقد جاءت لفظة " أمة " في الآيتين الكريمتين الأخيرتين بمعنى الدين الإسلامي ، وثمة حكمة بالغة في التعبير عن الدين الإسلامي بالأمة ، لأننا سنلاحظ فيما بعد أن الدين هو أهم عنصر من عناصر الربط والترابط بين أفراد الأمة ، سواء أكان هذا الدين هو الإسلام أو غيره .

---

[1]. سورة الأعراف : ١٨١ .
[2]. تفسير بن كثير ، المجلد الثاني ، ص ٢٤٨ .
[3]. سورة الرعد : ٣٠ .
[4]. سورة الأنبياء : ٩٢ .
[5]. سورة المؤمنون : ٥٢ .

وعن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة " .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا : " اللهم من وَلِي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فشُقّ عليه ، ومن وَلِي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به " .

*** نشأة الدولة في القرآن الكريم :**

حاول الفكر البشري جاهداً تعقب ظاهرة الدولة باحثاً منقباً عن كافة جوانبها ، كيف نشأت ؟ كيف تطورت ؟ ما هي عناصرها ومرتكزاتها ؟ ما هي أشكالها ؟ هل هذه الظاهرة التي هي الدولة تندثر وتتحلل ؟ وعندئذ مَن يخلف الدولة ويرثها ؟ كل هذه التساؤلات وسواها حاول الفكر البشري البحث فيها وتعقب إجاباتها .

وننصرف في هذه الجزئية إلى البحث مرة أخرى في ظاهرة الدولة ولكن كما وردت في القرآن الكريم ، وهذا اللجوء إلى كتاب الله في بحث هذه الجزئية له ما يبرره ، فالحق تبارك وتعالى خلق الخليقة ، ويعلم كيف تطور الخلق ، وكيف قامت الممالك والقرون والأمم ، وكيف بادت واندثرت ، وحكي لنا القرآن العظيم تلك التطورات لنعلم التاريخ وسير الأولين ولنأخذ منها العظة والعبرة ، وإذا كان الفكر البشري يجتهد فيصيب مرة ويخطئ مرات ، ويعتمد على التخمين والتوقع ، واستقراء ما توافر من الوقائع والأحداث للقياس عليها ، فإن القرآن الكريم حكى لنا وقائع التاريخ من لدن خالق الكون والعالِم بأسراره والحكيم الخبير بأحواله والمصرّف لشئونه وأغياره .

ويجدر بنا أن نحدد بداية نقطة الانطلاق التي ننطلق منها للبحث في كيفية نشأة الدولة كما وردت في الذكر الحكيم ، وهذه النقطة هي الإجابة على التساؤل التالي : هل ما ورد في القرآن الكريم حول الأمم والقرون والأقوام السابقة والتي رصدنا صورها وأشكالها في البند السابق يعد تعاملاً مع ظاهرة الدولة ؟ أو بعبارة أكثر دقة هل الصور والأشكال التي ظهر عليها وتطور إليها المجتمع البشري وأوردها القرآن الكريم هي صور وأشكال الدولة ؟ .

ينبغي العلم أن شكل الدولة أو مسماها ليس هو المهم ، ولكن الفيصل في الأمر هو عناصر الدولة ومقوماتها ، فكل كيان بشري أو تكوين إنساني يرتكز على عناصر محددة يكون هو الدولة ، ولا يهم في ذلك أن تكون الدولة تجسدت في شكل قرية أو تمثلت في هيئة مدينة أو تزيّت بزي مملكة ، ففي تلك العصور الغابرة كانت الدولة تأخذ أشكالاً بسيطة ، فالقرية قد تشكل دولة والمدينة تمثل دولة والمملكة الممتدة المساحة المترامية الأطراف هي الأخرى صورة من صور الدولة ، ولكن الأمر اليقيني أن القرية مثلها مثل المملكة تستجمع عناصر الدولة ، فكلا التكوينين الاجتماعيين القرية والمدينة يقوم على عناصر تتمثل في : التجمع البشري الذي عُرف فيما بعد بالسكان أو الشعب أو المواطنين ، والأرض أو الموقع الجغرافي الذي يقيم عليه التجمع البشري والذي عرف فيما بعد بالإقليم ، والمسئولون عن تصريف شئون هذا التجمع والدفاع عنه ، وهم كبراء القوم أو ما عرف فيما بعد بالحكومة .

نخلص مما تقدم إلى أن الكيانات أو التكوينات البشرية التي أوردها القرآن الكريم هي عبارة عن دول ولكن بمقاييس الأزمنة والفترات التاريخية التي وُجدت فيها ، ومن هذه الخلاصة نطرح السؤال التالي : كيف نشأت الدولة بشكلها وصورتها التي كانت عليها في تلك الأزمنة ؟ .

- توزيع القوة في التجمع البشري :

لقد كان توزيع القوة في التجمعات البشرية التي أوردها القرآن الكريم ، وهي القرية والمدينة والقوم والأمة يتم على النحو التالي :

○ القوة المادية :

وتعني القوة المادية الاستحواذ على أدوات وسائل القهر المادي في حالة الصراع العضوي ، وتتجسد أدوات ووسائل القهر المادي أو بالأحرى أشكال القوة المادية ، في الآتي :

□ قوة البدن : أو القوة العضلية ، وكانت هذه الصورة من أهم صور وأشكال القوة المادية التي كان لها شأن في التجمعات البشرية القديمة ، قال تعالى " وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم " .[1]

وقال تعالى " أوَعجبتم أن جآءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفآء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا ءالآء الله لعلكم تفلحون "[2]، والبسطة في الخلق تعني القوة العضلية وعِظَم الأجسام والطول .

---

[1]. سورة البقرة : ٢٤٧ .

[2]. سورة الأعراف : ٦٩ .

□ كثرة العدد : كذلك كانت كثرة العدد أحد أشكال القوة المادية ، وكانت القبائل كثيرة العدد تهابها القبائل قليلة العدد ، قال تعالى " ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً "[1] ، والنفير يقصد منه القوة المترتبة على الكثرة العددية .

□ قوة العدة والعتاد الحربي : وتعد كذلك من أهم مظاهر وأشكال القوة المادية ولعلها لا تزال كذلك ، قال تعالى " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وءاخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون "[2]، فالقوة ورباط الخيل يقصد بهما قوة الجيوش وتسليحها .

وقال تعالى " فإذا جآء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنآ أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً "[3]، والبأس هو القوة والبطش في الحروب .

وقال تعالى " قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين "[4]، وأولوا بأس شديد تعني أصحاب نجدة وبلاء في الحروب .

وقال تعالى " قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً "[5]، وأولوا البأس هم أصحاب الشدة والقوة في الحرب .

□ قوة المال والثروة : كذلك كانت قوة المال والثروة في التجمعات البشرية القديمة شكلاً من أشكال القوة المادية حيث أن المال يحقق أهدافاً عديدة ، ويمكن أن يجلب جميع مظاهر

---

[1]. سورة الإسراء : ٦ .
[2]. سورة الأنفال : ٦٠ .
[3]. سورة الإسراء : ٥ .
[4]. سورة النمل : ٣٣ .
[5]. سورة الفتح : ١٦ .

وأشكال القوة الأخرى — التي ذكرناها سلفاً — قال تعالى " أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون " .[1]

وقال تعالى " إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وءاتيناه من الكنوز مآ إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين " .[2]

وقال تعالى " فلا تعجبكم أموالهم ولآ أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون " .[3]

وقال تعالى " كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والأخرة وأولئك هم الخاسرون " .[4]

وقال تعالى " وقال موسى ربنآ إنك ءاتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم " .[5]

وقال تعالى " وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين " .[6]

[1]. سورة المؤمنون : ٥٥-٥٦ .
[2]. سورة القصص : ٧٦ .
[3]. سورة التوبة : ٥٥ .
[4]. سورة التوبة : ٦٩ .
[5]. سورة يونس : ٨٨ .
[6]. سورة سبأ : ٣٥ .

○ القوة غير المادية :

القوة غير المادية تعني الاستحواذ على وسائل القهر والسيطرة غير المادية ، وتعرف القوة غير المادية بالنفوذ وتتجسد أشكال القوة غير المادية في الآتي :

□ العلم : لا يقصد بالعلم دائماً المعني الأخلاقي الفاضل ولكن يعني العلم كذلك الإلمام والاطلاع على حقائق وأمور لا يعرفها الآخرون ، ويعتبر العلم أداة من أدوات وأشكال القوة غير المادية ، إذا أضاف لأصحابه ومالكيه ميزة وتفرد تميزهم على الآخرين وتجعلهم يخضعون لهم ، ومثال ذلك السحر والكهانة والتنجيم والشعوذة ، قال تعالى " قال ألقوا فلمآ ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجآءو بسحرٍ عظيم "[1] ، أي أفزعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً ، حيث جاءوا بسحر عظيم يهابه من يراه ، وفي هذا دلالة على ما كان للسحر من وقع وتأثير على الناس في المجتمعات القديمة .

□ استغلال الوازع الديني : منذ قديم الأزل والدين أو القوة الغيبية تمثل عنصراً ذا شأن في حياة الناس ، حيث يميل الناس بطبعهم وسجيتهم إلى التفكير في القوة القاهرة في هذا الكون وهي قوة الإله الخالق ، وقد استغل الكثيرون هذه الميول لدى الناس واستثمروا جهلهم ورغبتهم الجامحة في التعرف على الله ، وقد جاء هذا الاستغلال في صورتين :

• الصورة الأولى : مِن الناس مَن أخبر الآخرين بأنهم يعرفون الطريق إلى الله الخالق ولكن من خلال وسطاء جسّموهم في شكل أصنام ، ووظفوا ذلك لإعلاء مكانتهم وشأنهم في

---

[1]. سورة الأعراف : ١١٦ .

مجتمعاتهم ، قال تعالى " واتخذوا من دون الله ءالهةً ليكونوا لهم عزاً "[1] ، أي ليكونوا لهم شفعاء وأنصار يتعززون بهم ويترفعون بهم على الناس رغبة في المكانة والمنزلة .

وقال تعالى " ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أوليآء ما نعبدهم إلاّ ليقربونآ إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي مَن هو كاذب كفّار "[2]، أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا ، ومن ثم فعبادة هؤلاء القوم للأصنام إنما لتقربهم من الله زلفى ويشفعوا لهم وترقى منزلتهم .

• الصورة الثانية : هناك من المكذبين المسرفين العالين الذين ادَّعوا الألوهية لتكون لهم السيطرة والهيمنة على الناس جميعاً في مجتمعاتهم ، ومن ذلك النمرود طاغية إبراهيم ، قال تعالى " ألم تر إلى الذي حآج إبراهيم في ربه أن ءاتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين "[3]، وكذلك فرعون طاغية موسى ، قال تعالى " فقال أنا ربكم الأعلى " .[4]

– الصراع من أجل القوة :

بعد أن حددنا أشكال القوة يمكن القول بأن ثمة أناساً داخل التجمع البشري سيبذلون جهدهم من أجل الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من تلك القوة بجميع صورها وأشكالها

---

1. سورة مريم : ٨١ .
2. سورة الزمر : ٣ .
3. سورة البقرة : ٢٥٨ .
4. سورة النازعات : ٢٤ .

فهي التي ستكفل لهم السيطرة والهيمنة على الآخرين ، إزاء ما تقدم كانت الصراعات تدور داخل التجمعات البشرية ، وهناك شكلان للصراع داخل تلك التجمعات :

o صراع من أجل الاستحواذ على القوة بوجه من الوجوه ، فكل فريق داخل التجمع البشري يهدف إلى الحصول على القوة لكي يتحقق له السيادة والسيطرة .

o صراع من أجل السيطرة وقهر الآخرين ، وبعد أن تتحقق الغلبة لفريق دون الآخرين في الحصول على القوة ، يصبو الفريق الغالب إلى السيطرة على التجمع البشري مستغلاً ما قُدّر له الحصول عليه من القوة ، ويستمر ذلك الصراع إلى أن تستقر الأمور وتنتهي الأوضاع بسيطرة الفريق الغالب على مقدرات التجمع البشري .

– سيطرة مَن يملك القوة على مقدرات المجتمع :

مَن يملك القوة في المجتمع القديم يمكنه السيطرة على الجميع ، ويتسنى له التحكم في أمور المجتمع ، وقد كان ذلك دأب المجتمعات البشرية القديمة ، وقال تعالى في قوم عاد " أتبنون بكل ريعٍ ءاية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون "[1] ، وقال تعالى في قوم ثمود " في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين " .[2]

---

[1]. سورة الشعراء : ١٢٨-١٣٤ .
[2]. سورة الشعراء : ١٤٧-١٤٩ .

– مَن يملك القوة يتولى إنشاء الدولة :

الطرف الذي يقدَّر له تملك القوة والسيطرة على مجريات الأمور في المجتمع يتولى بالتالي تصريف تلك الأمور بصياغة القوانين والأنظمة التي تكفل له القيام بذلك ، وإلزام أفراد المجتمع باحترام تلك القوانين والانصياع لها ، والدفاع عن المجتمع والحفاظ عليه ، وهكذا تقوم الدولة وتنتصب أركانها ، ويضع أصحاب القوة القانون ويقيموا العدالة .

ومعلوم أن القانون الذي ينظم حياة الناس ويضبط سلوكهم وفق رغبات ومشيئات أصحاب القوة والسيطرة في المجتمع ، ذلك القانون هو صنيعة المتحكمين وأداتهم لتحقيق النظام الذي يريدونه ، كذلك فالدين الذي يتعين على الجميع اعتناقه ، ينبغي أن يكون دين المتنفذين أصحاب السيطرة ، فالكبراء وأصحاب الشأن والسادة هم مبتدعو الدين سواء من قريحتهم أو إرثاً عن آبائهم ، أما عامة المجتمع فهم تبع لهم .

قال تعالى " وإذا قيل لهم اتبعوا مآ أنزل الله قالوا بل نتبع مآ ألفينا عليه ءاباءنا أولو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون "[1]، فالدين موروث عن الآباء .

وقال تعالى " وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون "[2]، أي سلطنا شرارهم وعظماءهم أن يدعون إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال ، ولكن لا يعود وبال فكرهم وإضلالهم إلاّ على أنفسهم .

[1]. سورة البقرة : ١٧٠ .
[2]. سورة الأنعام : ١٢٣ .

وقال تعالى " وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفآء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سوآء علينآ أجزعنآ أم صبرنا ما لنا من محيص " .[1]

وقال تعالى " إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنآ ءابآءنا لها عابدين " .[2]

وقال تعالى " وقالوا ربنآ إنآ أطعنا سادتنا وكبرآءنا فأضلونا السبيلاً " .[3]

وقال تعالى " قال الذين استكبروا للذين استُضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جآءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننآ أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لمّا رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون " .[4]

وقال تعالى " وإذ يتحآجون في النار فيقول الضعفآء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنا كلٌ فيهآ إن الله قد حكم بين العباد " .[5]

---

1. سورة إبراهيم : ٢١ .
2. سورة الأنبياء : ٥٢-٥٣ .
3. سورة الأحزاب : ٦٧ .
4. سورة سبأ : ٣٢-٣٣ .
5. سورة غافر : ٤٧-٤٨ .

– معارضة أصحاب القوة والسيطرة في الدولة للرسل والأنبياء :

لقد كان من الطبيعي والمنطقي أن يناضل أصحاب القوة والسيطرة من أجل الحفاظ على مكانتهم ووضعهم المتميز في مجتمعاتهم ، وأن يجتهدوا في سبيل ذلك بوأد أية قوى أخرى مناوئة ، وكبت أية دعوات أو نداءات قد تؤدي إلى النيل من تلك المكانة والحط من ذلك القدر ، فقد واجه أصحاب القوة والسلطان رسالات السماء ودعوات الرسل والأنبياء بالتصدي لها والعمل على دحضها والتقليل من شأنها ، وذلك لسببين :

○ السبب الأول : أن الدين كان مقترناً بقوة وسلطان المتنفذين في تلك المجتمعات البشرية القديمة ، فأولئك المتنفذون إما يعلنون من أنفسهم آلهة وأرباباً ، أو أنهم هم الوسطاء إلى الآلهة والأرباب ، ومن ثم فرسالات الله التي جاء بها الرسل والأنبياء ستكذّب هؤلاء وتنزع عنهم هيبة الهيمنة والسلطان ، وبالتالي تصرف عنهم المعاونين والأتباع ، ناهيك عن الخزي والصغار .

○ السبب الثاني : أن الرسل والأنبياء سيجردون أصحاب القوة والسلطان من قوتهم وسلطانهم عندما تتحول إليهم الأنظار ويلتف حولهم المؤمنون ، وفي ذلك انهيار لصروح الجبابرة من السطوة والعنفوان .

فكانت مقاومة كبراء تلك المجتمعات وسادتهم لرسالات الله ودعوات الرسل والأنبياء شرسة لا هوادة فيها ولا لين ، قال تعالى " كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمّت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب " .[1]

---

[1]. سورة غافر : ٥ .

وقال تعالى " ومآ أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوهآ إنا بمآ أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين " .[1]

* مفهوما الأمة والدولة في الإسلام :

لم يتعرض الإسلام ممثلاً في أساسيه – القرآن والسنة — لمفهوم الدولة ، نظراً لحداثة هذا المفهوم ، فهو لم يظهر إلى حيز الوجود إلا في الفكر السياسي الحديث ، كما أن الإسلام قد تعامل مع هذا الكيانْ أو التكوين البشري المنظم من منطلقات مختلفة ، وعلى أسس قد تكون متباينة عن الفكر البشري الموضوع ، إذن كيف ينظر الإسلام إلى ذلك الكيان المعروف باسم الدولة ؟ يمكن إيضاح ذلك في الآتي :

– المفهوم الأصلح للتعامل :

وردت ثلاثة مفاهيم تتعرض لمراحل معينة من أطوار المجتمع البشري ، وتتمثل هذه المفاهيم فيما يلي :

○ القرن : وهو يعني أمماً وأقواماً خلت وبادت منذ أزمنة تاريخية غابرة ، وعليه فالمفهوم يرتبط بتكوين بشري مقترن بفترة زمنية ماضية وشديدة القدم ، ومن ثم فلا يتواءم مع واقعنا المعاصر استعمال هذا المفهوم ، كما أن هذا المفهوم جاء مقترناً بالكفر والضلال ومخالفة رسل الله وأنبيائه ، مما جعل تلك القرون تستحق عقاب الله وانتقامه ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، يضاف إلى ما تقدم أن القرن يرتبط بالأشخاص والذوات أكثر من اقترانه بالمكان .

---

[1]. سورة سبأ : ٣٤-٣٥ .

○ القوم : يعني جمعاً من الناس يرتبطون فيما بينهم بروابط عديدة منها وأهمها الدين ، إضافة إلى روابط اجتماعية أخرى مثل اللغة وصلات القربى والدم ، وكذلك المصالح المشتركة فيما بين أفراد القوم نتيجة لتواجدهم في مكان واحد ، أيضاً للقوم كبراء وقواد يقتدون بهم في معتقداتهم وأفكارهم ، ومن ثم فعلاقة أفراد القوم التي تربطهم ببعضهم هي علاقة انتماء بالأساس .

○ الأمة : تعامل الإسلام مع الأمة بوصفها جماعة من الناس تعيش على أرض واحدة ، وتربطهم روابط تبرر وجودهم في مكان واحد ، وأهم هذه الروابط هو الدين ، وغالباً ما يتفاهم أفراد هذه الجماعة فيما بينهم بلغة واحدة ، كذلك قد يقود تواجد أفراد الأمة في مكان واحد إلى أن تغلب عليهم عادات وتقاليد متشابهة ، وعليه فالأمة هي الشكل المادي الواقعي للقومية ، فالأولي انتماء إلي فكرة وارتباطات أساسها عناصر ومقومات عديدة ، أما الثانية فهي رغبة وإرادة علي تجسيد الفكرة والارتباطات علي أرض الواقع في شكل كيان يحقق أهداف التجمع البشري .

والحق تبارك وتعالى قد بيّن لنا كيف خلق الخلق ، وكيف أنشأ الخليقة منذ آدم عليه السلام ، وبيّن لنا في كتابه الكريم كيف توالت الأمم متعاقبة على بعضها البعض ، وأوضح لنا في آيات عديدة كيف عاش كثير من تلك الأمم ، وكيف كان حالها من الإيمان أو الكفر ، وكيف أرسل إليها الأنبياء والرسل برسالات التوحيد لهدايتها إلى توحيد الله ولزوم طاعته ، وصوّر لنا كذلك كيف عذّب تلك الأمم وأهلكها بعد أن أقام عليها الحجة بإرسال الرسل والأنبياء ، فعصوا رسل الله وكذبوا بآياته ، ولا تزال آثار كثير من الأمم البائدة باقية قائمة آيات لأولي الألباب .

ويمكن أن نخلص من استعراض المعاني المختلفة للفظة " أمة " كما وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى أن الأمة هي الوحدة الأساسية التي وُجدت على ظهر الأرض وأعطاها الإسلام أهمية أوضحها خطاب الله إلى الناس في كتابه الكريم .

مما تقدم نخلص إلى الآتي :

- ☐ لفظة قومية بمعناها المعاصر قد انحدرت من كلمة قوم التي وردت في القرآن الكريم والتراث العربي والإسلامي فيما بعد ، وهي تعني جملة الروابط التي تربط بين جمع من الناس ، فتنقل تجمعهم من الوقتية والعرضية إلى الاستمرارية والدوام ، وتتمثل تلك الروابط في الدين واللغة والعادات والتقاليد والمصالح المشتركة إضافة إلى رابطة الدم والرحم .

- ☐ في حين تعني لفظة أمة ارتباط القوم أو الجمع التي تربط بينهم الروابط سابقة التبيان بموقع أو مكان معين ، ومعنى ما تقدم أن الأفراد والارتباط بينهم بالروابط السابقة يمثلون قومية ، أما إذا اختاروا موقعاً جغرافياً محدداً ليقيموا عليه عندئذ تكون الأمة ، مغزى ما سبق أن القومية مفهوم معنوي وجداني مرتبط بأفكار ومعتقدات ، أما الأمة فهي مفهوم مادي يتجسد في موقع ومجتمع وأناس تربطهم علاقات وروابط خاصة .

- ☐ وعليه فالأمة هي المصطلح الأمثل للتعامل المعاصر ، فالأمة الإسلامية يرتبط أفرادها بعنصر الدين فقط دون ارتباطهم بأية روابط أخرى من جنس أو لون أو أصل أو لغة ، ولا يرتبط أفراد الأمة الإسلامية بالتواجد داخل منطقة جغرافية واحدة أو دول بعينها ومن هذا التحديد يمكن استنباط عنصرين أساسيين هما أساس قيام الأمة الإسلامية :

• عنصر الدين : حيث أنه هو الركيزة الأساسية والمحور الأوحد الذي ترتكز عليه وتتمحور حوله الأمة الإسلامية ، فالإسلام يربط بين أفراده مهما اختلفت لغاتهم أو أجناسهم أو أماكن تواجدهم وإقامتهم ، فالمسلم في السنغال ينتمي إلى الأمة الإسلامية والمسلم في كندا واستراليا كذلك .

• الدولة ليست عائقاً في سبيل قيام الأمة الإسلامية : الدولة بمعناها المعاصر ، وبتحديدها الشكلي القانوني لا تحد من وجود وقيام الأمة الإسلامية ، فالمسلم الذي يقيم في الولايات المتحدة الأمريكية ويحمل جنسيتها ينتمي إلى أبناء الأمة الإسلامية وكذلك المسلم المقيم في الصين أو في الهند ، ومن هنا يتضح عظمة الإسلام ورب الإسلام ، فلا يعوق قيام أمة التوحيد وترابطها وتماسكها أية حدود قانونية شكلية ضيقة أو أفكار بشرية محدودة .

– موقف الإسلام من الدولة بمعناها الوضعي المعاصر :

الإسلام دين الرحابة والسماحة يتعامل مع الواقع المعاصر كما هو مستخدماً قدرته الفائقة مع ذلك الواقع وتطويعه ، فالإسلام أعمق من كل فكر بشري وأرحب من كل أفق إنساني وأقدر من كل جهد آدمي ، وعليه فقد تعامل الإسلام مع الدولة بمعناها الوضعي المعاصر دون أن ينكر وجودها أو يرفض التعامل معها ، بل بالعكس تعامل معها بما يحقق صالح الإسلام وأبنائه ، وذلك من منطلقين :

○ المنطلق الأول : أن الدولة الحديثة التي تعلن الإسلام دينها الرسمي وتقوم بتطبيق شرع الله هي جزء من الأمة الإسلامية ، وهذه الدولة هي الدولة الإسلامية أو بعبارة أكثر دقة الدولة في الإسلام ، وتصبح الأمة الإسلامية كيان أو رابطة أو منظومة تتكون من مجموعة من الدول تتخذ من الإسلام ديناً ودستوراً ، وترتبط مع الدول الإسلامية الأخرى داخل إطار

الأمة الإسلامية برابطة الإسلام دون سواه ، والدولة الإسلامية تتسع لإقامة غير المسلمين إذا كانوا جزءاً من التكوين البشري والنسيج الاجتماعي للدولة .

○ المنطلق الثاني : إن الأمة الإسلامية تشمل كل المسلمين الذين يعيشون في دول إسلامية والذين يعيشون في دول غير إسلامية ، ومعنى ذلك أن الانتماء إلى الأمة الإسلامية يتجاوز حدود الدول وقوانينها وأنظمتها ، فكل مسلم يعيش في دولة غير إسلامية ينتمي إلى الأمة الإسلامية .

مما تقدم نخلص إلى القول بأن الدولة في الإسلام تحمل خصائص مميزة وترتكز على عناصر قد تختلف عن الدولة في الفكر البشري المعاصر ، ونفرد الجزئية التالية لإيضاح ذلك .

❖ عناصر قيام الدولة في الإسلام :

الدولة في الإسلام ترتكز على مجموعة من عناصر قد تختلف في بعضها عن عناصر الدولة في الفكر الموضوع ، ويتضح ذلك من خلال الآتي :

– الإقليم :

يعني مساحة الأرض التي تتبع الدولة ويقيم عليها مواطنوها ، وتشمل هذه المساحة اليابسة وما فوقها وما تحتها ، دون تحديد ، كذلك تضاف إلى مساحة إقليم الدولة المياه الإقليمية ، إذا كانت الدولة تطل على مياه بحار مفتوحة أو محيطات .

- المواطنون :

هم الأفراد الذين يتبعون الدولة ويحملون جنسيتها ، ولا يدخل الأجانب الذين يقيمون على إقليم الدولة في تكوين هذا العنصر ، وينبغي أن تسمح قوانين وتنظيمات الدولة الإسلامية للمسلمين بالإقامة على إقليمها وممارسة الأعمال والحرف كما هو الحال بالنسبة لمواطنيها دون أن يتعارض ذلك مع قوانينها وتنظيماتها .

- الحاكم : [إحالة] :

الحاكم أو ولي الأمر أو الحكومة تمثل عنصراً مهماً من عناصر الدولة في الإسلام ، ونحيل بخصوص دراسة الحاكم والحكومة إلى الفصل الثالث من هذا الجزء .

- الانتماء إلى الأمة الإسلامية :

من عناصر الدولة الإسلامية الانتماء إلى الأمة الإسلامية ، والانتماء إلى الأمة الإسلامية يعني أن الدولة تتخذ من الإسلام دينها الرسمي ودستورها المعمول به والواجب التطبيق ، فإذا كانت الدولة لا تتخذ من الإسلام دينها الرسمي ودستورها المعمول به والواجب التطبيق فهي ليست دولة إسلامية ، حتى ولو كانت تضم بين مواطنيها عدداً كبيراً من المسلمين .

فمفهوم الأمة قد سد هذه الثغرة في الدولة الحديثة بشكلها الموضوع ، فإذا كانت الدولة الإسلامية تشمل وتعم سكانها ومواطنيها من المسلمين ، فكيف الحال بالنسبة إلى المسلمين الذين يقيمون في دول غير مسلمة ، في هذه الحالة يشملهم ويعمهم ويظلهم مفهوم الأمة الإسلامية التي تشمل كل المسلمين سواء في الدول الإسلامية أو في الدول غير الإسلامية ،

حيث أن الرباط الوحيد بين الجميع هو دين الإسلام ، فالمسلمون جميعاً أمة واحدة مهما اختلفت أوطانهم أو أماكن تواجدهم .

كذلك فإن مفهوم الأمة الإسلامية قد أعطى للتسامح الديني معناً سامياً لم يصل إليه ولن يصل إليه الفكر البشري ولو بعد آلاف السنين ، فمفهوم الأمة الإسلامية الذي يربط بين المسلمين في كل مكان قد أعطى المسلم دون ضجيج أو طنطنة الحق في أن يعيش ويتعايش ويتفاعل مع كل الناس من جميع الأديان والملل والنِحل الأخرى في دولة غير مسلمة ، بل وأوجب عليه أن يقدم القدوة والأسوة السلوكية لهذه الأخلاط من البشر ، وأن يدع إلى سبيل ربه من خلال ممارسته لعبادته وشعائر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإذا جادل أو ناقش أو أوضح أو بيَّن أمراً من أمور الدين فبالتي هي أحسن .

وقد يثير البعض في هذا الصدد ما يعرف بإشكالية " توزُّع أو تشتت الولاء " فهذا البعض يرى أن المسلم عندما يعيش أو يقيم ، وبصفة خاصة إذا كان بشكل مستديم أي يحمل صفة المواطنة ، في إحدى الدول غير المسلمة ، فإلي أي جهة في هذه الحالة ينصرف ولاؤه وانتماؤه ، هل إلى دولته التي يعيش على أرضها ويحمل جنسيتها ، ويخضع لقوانينها وأنظمتها ، أم إلى أمته الإسلامية التي يرتبط بها من خلال رباط الدين فقط .

وهذه المسألة التي اعتبرها ذلك البعض معضلة ، هي لديهم كذلك ، ولكنها في واقع الأمر وبقليل من التفكير دليل دامغ وبرهان ساطع لكل ذي لب على أن الإسلام من الرحابة والسماحة بما يجعله يستوعب كافة الاتجاهات والتوجهات الفكرية ، ويحتوي جميع الأنماط والممارسات السلوكية ، فالمسلم المنتمي إلى جنسية دول غير مسلمة لن يجد صعوبة البتة في احترام قوانين دولته والخضوع لها وطاعتها ، فما من دولة في العالم إلا وتضع القوانين والأنظمة التي تهدف إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من النظام والانضباط وتهذيب

السلوك وترشيد الفكر ، وهذه القوانين عندما تصل بمفعولها وتأثيرها إلى أقصى مدى لها تكون قد حققت الحد الأدنى من مراتب السلوك الإسلامي الذي قرره القرآن والسنة ، ومن ثم فستكون هناك نقطة التقاء وتلاقي بين قوانين تلك الدولة والنموذج الإسلامي في الفكر والممارسة .

أما إذا صادف المسلم بعض القوانين أو السلوكيات التي تتعارض مع النموذج الإسلامي في الفكر والممارسة ، فعليه باتباع أحد أمرين ، حسب الترتيب التالي :

○ الأمر الأول : أن يبذل قصارى جهده ، ويستنفد كل ما في وسعه من أجل الابتعاد عن ما يتعارض مع النموذج الإسلامي من قوانين أو أفكار أو ممارسات ، طالما أن عزمه وإصراره على الابتعاد عن تلك القوانين المسيئة لا يضيره في حياته أو في حياة من يعول أو يرعى ، أو لا يؤدي إلى إساءة العلاقة بينه وبين دولته ، وولاة الأمر فيها ، بما يجعل منه عنصراً خارجاً عن إجماع الناس شاقاً عصى الطاعة ، وقد قال تعالى " فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون "[1] .

وقال تعالى " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنآ إن نسينآ أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينآ إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تُحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين "[2]، أي لا يكلف أحد فوق طاقته ، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم .

---

[1] سورة التغابن : ١٦ .
[2] سورة البقرة : ٢٨٦ .

○ الأمر الثاني : إذا لم يقدر للمسلم أن يتأى بنفسه عن القوانين المسيئة في دولته ، بعد أن بذل قصارى جهده واستنفد كل طاقته ، واستشعر أن في خرقه لتلك القوانين واعتراضه عليها وإعراضه عنها ما يصيبه بالضرر في نفسه أو في حياته أو في رزقه أو في عمله أو يمن يعول ويرعى ، أو يظهره كعنصر خارج على إجماع المواطنين ، عندئذ ينصاع لتلك القوانين بظاهر جوارحه ويعرض عنها بقلبه ووجدانه ، وقد قال الله تعالى " إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلآ إثم عليه إن الله غفور رحيم "[1]، أي فمن اضطر إلى افتعال منكر أو اقتراف سيئة وهو يقصد طاعة الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه فله الرخصة ، ومن عمد إلى المخالفة بغياً وعدواً وعن نية مسبقة فلا رخصة له .

قال تعالى " لا يتخذ المؤمنون الكافرين أوليآء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلآ أن تتقوا منهم تقاةً ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير "[2]، وقد تطرقت هذه الآية الكريمة بشكل واضح وصريح إلى إشكالية الولاء وتوزيعه — كما يخشى البعض — بين الولاء للإسلام وأمة المسلمين والولاء لدولة الإقامة والقائمين عليها من غير المسلمين ، وحقيقة الأمر أن الولاء لا يوزع ولا يتجزأ لأن الولاء أساساً شعور وحس يتطور إلى اطمئنان وطمأنينة واعتناق ثابت راسخ موضعه ومحله القلب ، والإيمان الصادق الراسخ محله كذلك القلب .

والمؤمن راسخ الإيمان ثابت العقيدة لا يمكن أن يوالى غير المؤمن ، لأن إيمانه بالوصف السابق يمنعه من ذلك ، وإذا والى غير المؤمن فإن إيمانه لا يمكن أن يكون ثابتاً راسخاً نابعاً من قلبه ، ومن ثم بات خارجاً عن دائرة المؤمن الصادق الإيمان .

---

[1] سورة البقرة : ١٧٣ .
[2] سورة آل عمران : ٢٨ .

والولاء والموالاة هي الحب الصادق النابع من القلب الذي يملك على الإنسان كل نفسه ، ويجعله ملكاً خالصاً لمن يحب ، والمؤمن يوالي المؤمن بهذا الوصف ، ولا يمكن أن يوالي غير المؤمن بنفس الوصف ، إلا أنه في بعض الحالات والظروف ذات الخصوصية قد يضطر المؤمن إلى موالاة غير المؤمن ، وهذا ينطبق على المسلم المقيم في دولة غير مسلمة ، وفي هذه الحالة يكون الولاء ظاهرياً أي بظاهر القول والفعل ، أما الولاء الحقيقي النابع من القلب والمستقر فيه فهو للإسلام والمسلمين ، وهذا الولاء الظاهري يكون اضطرارياً لاتقاء سطوة وقوة غير المؤمن ، إذا كان يملك ما يسيطر به على المسلم كالقوانين الوضعية وظروف ومتطلبات الحياة في الدول غير المسلمة .

وعليه فالتقية في هذه الحالة هي أداة أو ذريعة يُبرز من خلالها المسلم ظاهرياً موالاته لغير المسلم ، ويبطن أو يكن ولاءه الحقيقي الراسخ الثابت للإسلام والمسلمين ولأمة الإسلام ، التي تشكل له الأصل والأساس .

ويرد في هذا السياق قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم " ، وجوهر هذا الحديث الشريف يذهب إلى أن الله تعالى لا ينظر إلى ظاهر الأعمال التي قد يضطر المسلم إلى افتعالها لتجاوز ظروف وضغوط معينة ، ولكن ينظر إلى ما وقر في القلوب وهو أعلم بما تخفيه وتكتمه .

قال تعالى " من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم "[1]، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في شأن عمار بن ياسر حينما أخذه الكفار وعذبوه حتى قاربهم أي جاراهم في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبي ، فقال صلى الله عليه وسلم :" كيف تجد قلبك ؟ " ، قال : مطمئناً

[1] سورة النحل : ١٠٦ .

بالإيمان ، قال النبي :" إن عادوا فعد " ، وهذه الآية الكريمة والواقعة التي نزلت بخصوصها تحمل حكماً عاماً يقضى بأن المسلم الذي يُكره على مجاراة غير المسلم لا يؤاخذ ولا يأثم على أفعاله لأن قلبه عامر بالإيمان مطمئن إليه وولاءه للإسلام ولأمته .

– الاستقلال :

الدولة في الإسلام تتمتع بالاستقلال ويعتبر عنصراً من عناصر وجودها ، وهي لا تخضع لأية سلطة خارجية تحد من قدرتها على اتخاذ القرارات الخاصة بتنفيذ سياساتها الداخلية ، ولا مجال في هذا الموضوع للتفرقة بين الاستقلال والسيادة ، إذا قد سبق لنا تناول موضوع السيادة بوصفه إحدى قضايا الفكر السياسي المعاصر من وجهة النظر الإسلامية .

ولا يعتبر انتقاصاً من استقلال الدولة في الإسلام تفويض بعض السلطات إلى الحكومات المحلية لاتخاذ بعض القرارات وتنفيذ بعض السياسات الخاصة بالإدارة المحلية أو الحكم المحلي ، ويعرف ذلك بتفويض الصلاحيات والمسئوليات أو توزيع الاختصاصات .

* أشكال الدولة في الإسلام :

الدولة في الإسلام مثلها مثل الدولة في الفكر الموضوع ، تأخذ أحد شكلين :

– الدولة البسيطة :

وهي الدولة التي يتوحد فيها مركز السلطة وصنع القرار ، والدولة الإسلامية على هذا الشكل لا تدعوها الضرورة إلى تعديد مراكز السلطة واتخاذ القرار .

– الدولة المركبة :

وهي الدولة التي تدعوها الضرورة إلى تجزئة مركز السلطة واتخاذ القرار ، حيث تتكون من ولايات أو دول تتمتع ببعض الاستقلال الذاتي ، لتتمكن من تحمل بعض شئون الإدارة المحلية ، وللدولة في الإسلام والقائمين على شئونها أن يقرروا شكل الدولة الاتحادية أو المركبة حسب الظروف السياسية والجغرافية والاقتصادية .

المبحث الثالث

السياسة والحكم في الإسلام ونظرية المنهاج الإسلامي

[النظام السياسي]

في المبحث السابق تناولنا موقف الإسلام من نظرية الدولـة ، ولاحظنـا أن ذلـك الموقـف قـد اتسم بخصوصية تتواءم مع طبيعة الدين الإسلامي التي تميزه عن الفكـر الموضـوع ، وبالمثـل ننصرف في هذا المبحث إلى استعراض موقف الإسلام تجاه نظرية النظام السياسي ، منـوهين منذ البداية إلى خصوصية ذلك الموقف وتميزه في كثير من المواضع والقضايا عن الفكر الموضوع ، وسوف نعمد إلى توضيح ذلك من خلال الآتي :

أولاً : تعريف النظام السياسي والمنهاج الإسلامي :

النظام مدرك وظيفي ، لم يبتكر مـن أجـل الاسـتخدام الـسياسي بـل هـو مـستعار مـن علـم البيولوجيا أو وظائف الأعضاء ، والنظام حسب هذا الوصف السابق يعني مجموعة أجـزاء (أبعاض) بينـها علاقات متبادلة تعمل معاً من أجل تحقيق هدف معين بما يجعلها تبـدو في النهاية كلاً واحداً .

ومن ثم فالنظام السياسي حسب الفكر الموضوع هو مجموعـة مـن المؤسـسات بينهـا علاقـات متبادلة تعمل معاً من أجل تحقيق هدف محدد في ما يتعلق بالعلاقة بين الحـاكم والمحكـوم ، وتبدو هذه المؤسسات كما لو كانت كلاً واحداً .

مما تقدم نخلص إلي أن النظام هو أسلوب أو أداة أو وسيلة لتحقيق غاية عبر مجموعة مترابطة من العمليات ، وذلك كما ورد في الفكر السياسي الموضوع .

فما هو منطق الإسلام في التعامل مع فكرة النظام السياسي ؟ لقد انتهينا فيما مضى إلى استخلاص الآتي

* الإسلام يعرف الظاهرة السياسية ، ويعلي من شأن السياسة ، ويربطها دائماً بالأخلاق والقيم ، ويقرنها بالرياسة والقيادة ، ويتعامل معها علي أنها قيام الجماعة أو المجتمع المسلم بسياسة أموره وتصريف شئونه بالأصول والأسس والقواعد الشرعية المستنبطة من المرجعيات الإسلامية المحددة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة واختيار أولي الأمر والمسئولين الذين يتعهدون بتحمل المسئولية .

* كذلك فالإسلام يعرف الدولة ويعرف الأمة ، ويتعامل معهما كمفاهيم وظيفية ، وكحقائق مجتمعية ذات قيمة وشأن على المستويات القيمية والأخلاق والإنسانية .

* كذلك فالإسلام يعرف النظام السياسي قبل أن يعرفه ويتوصل إليه الفكر البشري ثم يستعيره من علم وظائف الأعضاء .

فقد عرف الإسلام النظام السياسي كأداة أو وظيفة مهمتها تحقيق غاية وهدف الدولة من خلال مجموعة من العمليات والتفاعلات ، فكيف إذن تعامل الإسلام مع نظرية النظام السياسي ؟ .

سبق أن أوضحنا أن الشِرعة أو الشريعة هي أصل الدين ومصدره ، والشِرعة أو الشريعة الإسلامية ترتكز على أساسين هما القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ولابد من أداة أو وسيلة أو

طريقة تضع ما يكِنه هذان المصدران من أحكام وأصول وقواعد موضع التطبيق ، أي وسيلة أو أداة تنقل الأحكام والأصول والقواعد من وضعيتها كنظريات وقواعد مجردة إلى أنماط سلوكية وممارسات عملية .

قال الله تعالى " إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً "[1] ، والطريق هو طريق الله ، وهو السبيل إلى الخير ، والسبيل هو الأداة التي تنقل وتوصل إلى غاية أو هدف ، وإذا كان الهدف أو الغاية هو شرع الله ، فإن الطريق هو الأداة أو الوسيلة التي تحقق شرع الله وتوصل إليه .

وقال تعالى " قالوا يا قومنآ إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم "[2]، فالهداية إلى الحق فيما يتعلق بالاعتقادات والأحكام والأصول والقواعد ، أما الهداية إلى الطريق المستقيم فهي فيما يتعلق بالعمليات أو الواقع العملي التطبيقي ، فالطريق المستقيم وسيلة أو أداة تطبيق المعتقدات ونقلها إلى أرض الواقع .

وقال تعالى " وكذلك أوحينآ إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشآء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم * صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألآ إلى الله تصير الأمور "[3]، أي انك يا محمد لتهدي الناس إلى الخلق القويم الذي يتضمنه شرع الله وشرع الله يتضمن المعتقد ويتضمن كذلك طريقة ووسيلة نشر المعتقد والعمل به وتطبيقه بين الناس .

---

[1]. سورة النساء : ١٦٨ .
[2]. سورة الأحقاف : ٣٠ .
[3]. سورة الشورى : ٥٢-٥٣ .

وقال تعالى " وأنزلنآ إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بمآ أنزل الله ولا تتبع أهوآءهم عما جآءك من الحق لكلٍ جعلنا منكم شِرعةً ومنهاجاً ولو شآء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في مآ ءاتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون "[1] ، ولقد سبق لنا أن أوضحنا معنى الشِرعة أو الشريعة في جزئية مستقلة ، وبينا أن الشِرعة أو الشريعة تتضمن المصادر الأساسية الأولية للدين ، وفي الإسلام الشيرعة تعني القرآن الكريم والسنة المطهرة اللذين يحويان الأصول والقواعد والأحكام ، أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل البيِّن والطريق يعني الوسيلة والأسلوب اللتين عن طريقهما تنتشر وتُطبّق الأصول والقواعد والأحكام .

وعليه فالمنهاج الذي تضمنه كتاب الله هو ما وصفه الفكر الموضوع بالنظام ، مع الفارق في حجم وشمولية وظيفة المنهاج ، ومن ثم فالمنهاج هو الطريق أو الأسلوب أو الوسيلة التي تحقق بها الجماعة السياسية أهداف وجودها والتي تعرف في النهاية بأهداف الدولة أو المجتمع .

مما تقدم نخلص إلى العناصر التالية في تعريف المنهاج الإسلامي :

– هناك تماثل وتناظر بين النظام والمنهاج في المعنى والتكوين والوظيفة وأسلوب التفاعل وشكل التعامل ، مما يجعل النظام السياسي في الفكر الموضوع لا يختلف عن المنهاج الإسلامي إلا في اللفظ والمسمى وحجم وشمولية وظيفة كل منهما ، فكلاهما وسيلة وأداة وأسلوب لتحقيق أهداف معينة من خلال عمليات وتفاعلات خاصة .

---

1. سورة المائدة : ٤٨ .

– المنهاج ينطلق من منطلقات ثابتة ومحددة هي الأصول والقواعد والأحكام ، التي تتضمنها الشرعة الإسلامية من خلال عنصريها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، أما النظام السياسي في الفكر الموضوع فهو ينطلق من أفكار ونظريات وآراء واجتهادات بشرية صيغت وتشكلت لتحقيق أهداف آنية قصيرة الأجل .

– المنهاج عبارة عن وسيلة وأداة ، والوسيلة أو الأداة تتضمن أجهزة وهياكل يتم تشكيلها بأسلوب معين حتى يتسنى لها القيام بمهمتها وهذه الأجهزة والهياكل منها ما تم تحديده وتعيينه بالقواعد والأصول ، ومنها ما ترك تشكيله وصياغته لظروف ومتغيرات المجتمع ومرئيات القائمين على المنهاج الإسلامي .

– للمنهاج وظيفة محددة تتمثل في تحقيق أهداف المجتمع أو الدولة ، وهذه الأهداف منها ما هو رئيسي أساسي وقد حددته الشرعة الإسلامية ، ومنها ما هو فرعي ثانوي ترك تحديده وتعيينه لمرئيات القائمين على المنهاج الإسلامي .

– المنهاج ينصرف إلى تحقيق أهداف الدولة الإسلامية بشكل شامل وعام في كافة نواحي الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية ، وليس هناك منهاج سياسي أو منهاج اقتصادي أو منهاج اجتماعي ، ولكن للمنهاج وظائف نوعية سياسية واقتصادية واجتماعية .

ثانياً : كيف يعمل المنهاج الإسلامي ؟ :

المنهاج الإسلامي ليس نظرية وهمية أو خرافية ، غايتها الدعاية للإسلام بأنه يمتلك تقاليع وموديلات شبيهة بما يمتلكه الفكر السياسي الموضوع ، ولكن المنهاج الإسلامي مفهوم وظيفي وجوهر واقعي ملموس من الأنماط السلوكية والممارسات الفعلية ، يعمل على أرض

الواقع وتحيط به مجريات وتطورات ومتغيرات وثوابت ومستجدات ، له وظيفة لا يؤديها سواه ، ويحوي عدة عناصر ومفردات من ضرورات وجوده وصلب قوامه ، ولكن كيف يعمل المنهاج الإسلامي ؟ .

يعمل المنهاج الإسلامي ويدير جزئياته ومفرداته ، ويحقق وظائفه ومهامه ، عبر ديناميـة تشترك فيها كل أبعاضه ، وذلك على النحو التالي :

• الوسط :

يعني بالوسط الواقع أو الحياة بشمولها وعموميتها التي يوجد فيها المنهاج الإسلامي ويتفاعل معها ، وقد ذكرنا أن المنهاج الإسلامي يتولى تحقيق أهداف الدولة أو المجتمع ، ومن ثم فلابد أن يتعامل مع ذلك المجتمع الذي يتعايش معه ويعيش فيه وينقسم الوسط إلى مستويين :

– المستوى الأول : وهو المستوى الأضيق والأكثر تماساً ومباشرة مع المنهاج ، وهو المجتمع الذي يعمل فيه ويتفاعل معه ، بكل ما يوجد في ذلك المجتمع من مكونات وعناصر .

– المستوى الثاني : وهو المستوى الأرحب والأقل تماساً ومباشرة مع المنهاج ، وهذا المستوى ينقسم بدوره إلى أكثر من مستوى فرعي ، فهناك المستوى الإقليمي أو مستوى المنطقة الجغرافية التي تقع فيها الدولة ، ثم هناك المستوى الأكثر اتساعاً ورحابة وهو العالم أجمع ، ويلاحظ أنه كلما زاد اتساع ورحابة الوسط قل احتكاك المنهاج به وقل بالتالي التفاعل والتأثير المتبادل بينهما .

* أهداف الدولة الإسلامية : [إحالة][1] :

للدولة في الإسلام أهداف محددة حددتها مصادر التشريع في القرآن والسنة ، وتتمثل تلك الأهداف في ثلاثة أهداف :

– إقامة شرع الله في مجتمع الدولة الإسلامية .

– تحقيق مصالح المواطنين بكافة أشكالها الاقتصادية والاجتماعية .

– الدعوة إلى الله من خلال الوظيفة الإتصالية التي هي أهم أهداف السياسة الخارجية للدولة الإسلامية .

وسوف نتولى تفصيل هذه الأهداف في موضع لاحق .

* الدراسة واتخاذ القرارات وتحديد وسائل تحقيق الأهداف :

يتسلم المنهاج أهداف الدولة ، ويعكف على دراستها ، ويحدد لكل هدف من الأهداف الوسيلة الملائمة لتحقيقه ، ويقوم المنهاج بهذه العملية المركبة والمعقدة من خلال ثلاثة أجهزة وبأسلوب وترتيب معين نختصره في الآتي :

– مجلس الشورى ، أهل الرأي والمشورة : ويتكفل هذا الجهاز المكون من الخبراء وأهل الرأي والمشورة بدراسة وتمحيص أهداف الدولة وإعداد التقارير النهائية بأنجع الوسائل والأدوات الخاصة بتحقيق تلك الأهداف .

---

[1]. إحالة إلى الفصل الثالث من هذا الجزء والذي يحمل نفس العنوان .

– الحاكم أو ولي الأمر أو رئيس الدولة : في تشاور مع مجلس الشورى أو المجلس الاستشاري ، من أجل صياغة وسائل وأدوات تحقيق الأهداف ، ثم هو في تعاون دائب مع الجهاز التنفيذي أو الحكومة من أجل تنفيذ السياسات الخاصة بتحقيق أهداف الدولة التي بلورها الحاكم مع جهازه الاستشاري .

– الجهاز التنفيذي ، الحكومة : وتتولى الحكومة والجهاز التنفيذي مهمة تحقيق الأهداف وتنفيذ السياسات الخاصة بتلك الأهداف والتي بلورها الحاكم مع جهازه الاستشاري .

* وسائل تحقيق الأهداف :

تمثل وسائل تحقيق الأهداف النسق القيمي في المنهاج الإسلامي ، وكذا في النظرية السياسية الإسلامية ، وتتمثل هذه الوسائل في العدالة والإخاء والمساواة والحرية والوظيفة الاتصالية للدولة .

* النصح والتوجيه :

من أهم المسائل التي يتعامل معها المنهاج الإسلامي وأكثرها حساسية وخطورة مسألة النصح والإرشاد ، وهذه المسألة تعد من أهم القيم السياسية في الوقت الراهن ، فهي من ناحية تعني مشاركة أفراد المجتمع في أمور الحكم من خلال نقل رأي أصحاب الرأي والعارفين بالأمور إلى الحاكم أو صانع القرار أو رأس الدولة ، وهي من ناحية أخرى تعبر عن التواصل والمساندة بين الحاكم وأفراد المجتمع ، وسوف نفرد جزئية مستقلة لدراسة هذه القيمة في موضعها .

ثالثاً : وظائف المنهاج الإسلامي :

يختلف المنهاج الإسلامي عن النظام السياسي في الفكر الموضوع في كون الأول يـؤدي وظائفه ومهامه بشكل عام وشامل لكل نواحي الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية ، فالمنهـاج يحقق أهداف الدولة جميعها في كافة النواحي والمجالات ، أما النظام السياسي فهـو وكما خُطط له يحقق أهدافاً محددة ويتولى وظائف بعينها داخل المجتمع .

وللإيضاح تجدر الإشارة إلى أن المنهاج الإسلامي وكما حددته الشريعة الإسلامية عبـارة عن طريق أو أداة ووسيلة لتحقيق أهداف المجتمع في عمومه وشموليته أو الدولة كمـنظِّم ومرتِّـب لشئون المجتمع ، إلا أنه ينبغي التأكيد على أنه بـالرغم مـن شموليـة المنهـاج الإسـلامي في تحقيق أهداف المجتمع إلا أنه يحدد في داخله آليات معينـة تتـولى تحقيـق تلـك الأهـداف حسب كل نشاط ومجال من مجالات الحياة ، فثمة آلية لتحقيق الأهداف الاقتصادية وثمـة آلية لتحقيق الأهداف الاجتماعية وثمة آلية لتحقيق الأهداف الخارجية وهكذا .

في حين أن الأمر يختلف بالنسبة إلى النظام السياسي ، فالنظام الـسياسي ينـصرف فقـط إلى تحقيق أهداف الدولة ذات الطبيعة السياسية ، على اعتبار أن ثمة نظماً أخرى مثل النظـام الاقتصادي والنظام المجتمعي ينصرف كل منها إلى تحقيق أهداف الدولة كلٌ فيما يخصه .

وهذا ما يثير في علم السياسة وفي الفكر السياسي الموضوع إشـكالية علاقـة الـسياسية بـشئون الحياة الأخرى من اقتصاد واجتماع وإدارة وثقافة إلى آخـره ، فقـد قامـت ولا تـزال معـارك حامية بين الدارسين والباحثين في مجالات العلـوم الـسياسية والاقتـصاد والاجتمـاع والإدارة حول من له الأولوية ومن يوجّـه الآخـر الـسياسة أم الاقتـصاد وتحـزّب كـلٌ لرأيـه ولم يـتم التوصل إلى نتائج حاسمة .

وفيما يتعلق بالطرح الإسلامي في هـذا الـشأن ، فـالأمر جـد مختلـف ، فـنحن إزاء وضـعية متميزة من التناسق الفكري والعقلي ، فهدف المجتمع الإسلامي يختلف عن هدف المجتمع غير المسلم ، فالأول أهدافه محددة ومرتبة وثابتة بثبـات الـشريعة الإسـلامية ، أمـا الثـاني فأهدافه غير محددة ودائمة التغيير من حقبة تاريخية إلى أخرى ، ومن حكومة معينة ونظام سياسي معين إلى حكومة أخرى ونظـام سياسـي آخـر ، فكـل حقبـة تاريخيـة لهـا ظـروف وتطورات ، وكل حكومة أو نظام سياسي له اهتمامات خاصة وأولويات متباينة .

فالمجتمع المسلم يستمد أهدافه ومبررات وجوده من الشريعة الإسلامية ، ومن ثم فهو يحـدد أهدافه وأهداف الدولة بشكل واضح ومتميز ، ثم يحدد بالتالي طريقة ووسيلة تحقيـق تلـك الأهداف جميعاً ممثلة في المنهاج الذي يتـولى تحقيـق تلـك الأهـداف بـشكل كلـي شـامل ، ويلاحظ أن أهداف المجتمع أو الدولة تحدد المنهـاج الـذي يتـولى تحقيقهـا ، وفي المجتمـع غير المسلم تختلف الأمور حيث يقسم المجتمع إلى عـدة أنظمـة فرعيـة سياسـية واقتـصادية واجتماعية ، وتعمل كل هذه النظم وترتبط ببعضها عبر علاقات ارتباط تبادلية .

شكل بياني رقم (١) نظرية المنهاج الإسلامي في السياسة والحكم في الإسلام

الوسط ـ المجتمع

النصح والتوجيه للقائمين على المنهاج

إقامة شرع الله

تحقيق مصالح الشعب

الدعوة إلى الله

أحداثهما

الدولة

المنهاج الإسلامي

قيمة الشورى وشكلها النظامي

الحاكم و الرئيس

الحكومة

المنهاج الإسلامي

العدالة

الإخاء

المساواة

الحرية

الوظيفة الاجتماعية

النقد

الوسط ـ المجتمع

النصح والتوجيه للقائمين على المنهاج

الوسط ـ المجتمع

رابعاً : عناصر المنهاج الإسلامي :

يحتوي المنهاج الإسلامي على ثلاثة عناصر رئيسية تشترك ثلاثتها في إدارة وتشغيل المنهاج حتى يتسنى له القيام بوظائفه المحددة في تحقيق أهداف الدولة ، وهذه العناصر هي :

* الحاكم أو رئيس الدولة :

هو رأس الدولة وأساس المنهاج ومحركه ، وهو من القضايا الجوهرية في النظرية السياسية الإسلامية ، ولا يُعير الفكر السياسي الموضوع الحاكم أو الرئيس الأهمية اللازمة ، وانطلاقاً من الأهمية التي تعطيها النظرية السياسية الإسلامية للحاكم أو الرئيس فسوف نفرد له جزئية مستقلة وتحليلاً مفصلاً .

* الحكومة :

على عكس الاهتمام المتواضع للفكر السياسي الموضوع بمسألة الحاكم أو الرئيس يبدي ذلك الفكر اهتماماً ملحوظاً بالحكومة ، أما المنهاج الإسلامي فيضع الحكومة في نصابها الصحيح كعنصر من عناصره وكقوة مساعدة للحاكم في إنجاز مهمة المنهاج وتحقيق أهداف الدولة ، وسوف نتناول الحكومة في جزئية مستقلة كعنصر من عناصر المنهاج .

* مجلس الشورى :

هو الانعكاس الواقعي لقيمة الشورى ، هذه القيمة العليا التي رسخها الإسلام منذ ظهوره قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، وهذا الجهاز أو الهيئة يعتبر عنصراً مهماً من عناصر المنهاج الإسلامي وله وظائف عديدة فهو يعكس مساهمة ودور أفراد المجتمع في الحكم ،

كذلك فهو أداة مساعدة ومساندة للحاكم تعينه على صياغة وإعداد وسائل تحقيق وإنجاز أهداف الدولة ، كذلك يقدم النصح والإرشاد والتوجيه للحاكم وقت اللزوم ، وسوف نقوم بتفصيل هذا العنصر في جزئية مستقلة .

الفصل الثاني

أهداف الدولة في الإسلام

الدولة في الشريعة الإسلامية لها خصوصية تميزها عن الدولة غير الإسلامية ، فالدولة الإسلامية قد تحددت أهدافها قبل وجودها ، على عكس الدولة غير الإسلامية فقد وجدت أولاً تلك الدولة ككيان ثم شُرِع في البحث عن أهداف ذلك الكيان ، وعندئذ تعددت وتباينت وجهات النظر البشرية وهي بصدد البحث عن تلك الأهداف .

كذلك فالدولة الإسلامية وسيلتها وأداتها المحددة لتحقيق أهدافها ، وهي المنهاج الإسلامي بمعالمه المعينة القاطعة ، وبدقائقه ومفرداته التي تُركت لاجتهاد أصحاب الرأي والمعرفة من المسلمين ، أما الدولة غير الإسلامية فكانت دائماً حقلاً للتجارب فهناك تجارب أخذت بالنظام السياسي الفردي ، وهناك تجارب أخذت بالنظام السياسي الشمولي ، وهناك تجارب أخذت من هذا وذاك ، وظل الأمر على هذا المنوال ، ومن يراقب تطورات العالم بعين الباحث يرى العجب ! .

ولعل أول ما يلفت الانتباه ويثير الذهن فيما يتعلق بالسياسة والحكم في الإسلامي هو أهداف الدولة ، فهي بادرة العملية السياسية ، وأول ما يتلاقى مع المنهاج الإسلامي وبها يبدأ في ممارسة مهام وظيفته ، كما أن أهداف الدولة هي أول نقطة التقاء وعناق بين المنهاج الإسلامي من ناحية وبين المجتمع من ناحية أخرى ، أما عن ثاني نقاط الالتقاء فهي وسائل وأدوات المنهاج لتحقيق أهداف الدولة .

وهناك أهداف رئيسية للدولة الإسلامية وبداخل هذه الأهداف الرئيسية وفي ثناياها توجد أهداف أخرى أقل عمومية وشمول وهي الأهداف الفرعية الثانوية .

وتختلف طبيعة أهداف الدولة من الدولة الإسلامية إلى الدولة غير الإسلامية ، فالدولة الإسلامية يغلب على أهدافها الطابع الديني ، على عكس الدولة غير الإسلامية التي يغلب على أهدافها الطابع اللاديني .

كذلك تلعب العقيدة والدعوة العقيدية دوراً مهماً في أهداف الدولة الإسلامية ، فإقامة شرع الله عبارة عن دعوة عقيدية موجهه إلى أفراد المجتمع ، أما الدعوة إلى الله عبر الوظيفة الاتصالية للدولة هي عبارة عن دعوة عقيدية موجهه إلى أفراد العالم الخارجي ، وقد يلاحظ أن بعض الدول غير الإسلامية يوجد لديها أهداف خاصة بالدعوة العقيدية الخارجية ، وهذه الدول صاحبة أيديولوجيات بشرية موضوعة تروّج لها وتدعو إليها ، وكان ذلك هو نمط الاتحاد السوفياتي السابق والولايات المتحدة حالياً ، فالدولة الأولى كانت تروّج للأيديولوجية الماركسية والنظام الشمولي والدولة الثانية كانت ولا تزال تروّج للأيديولوجية الرأسمالية والنظام الفردي .

ويأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : إقامة شرع الله .

المبحث الثاني : تحقيق مصالح المجتمع .

المبحث الثالث : الدعوة إلى الله .

المبحث الأول

إقامة شرع الله

أهم أهداف الدولة في الإسلام هو إقامة شرع الله ، كذلك فإقامة شرع الله هو أساس وجود الدولة وعلته الأساسية ، ويتمثل هذا الهدف في أمرين :

أولاً : الأمر الأول : إقامة الشعائر :

لقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بعبادته وإقامة شعائره ، التي حددها وعيَّنها لهم ومن ثم كان ذلك هو أول أهداف الجماعة السياسية أو الدولة ، فقال تعالى " ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنآ أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينآ إنك أنت التواب الرحيم "[1] ، والمناسك هي أمور العبادة .

وقال تعالى " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين "[2]، والنسك هنا هو جميع العبادة .

وقال تعالى " لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم "[3]، والمنسك هو العبادة .

---

[1]. سورة البقرة : ١٢٨ .
[2]. سورة الأنعام : ١٦٢ .
[3]. سورة الحج : ٦٧ .

وقال تعالى " ومآ أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لآ إله إلآ أنا فاعبدون " .[1]

وقال تعالى " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون "[2]، فالإسلام هو دين كل الأمم ، وجميع البشر مطالبون بعبادة الله الواحد الأحد .

وإقامة شعائر الإسلام قد بينها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بياناً واضحاً جلياً لا غبار عليه ولا غموض فيه ، ودولة الإسلام مطالبة ومأمورة بأن توضح للمسلمين كيف يقيمون شعائر دينهم ، وكيف يعبدون الله من خلال إعداد الدعاة والوعاظ والمرشدين ، وتهيئة الوسائل التي تربط بينهم وبين أبناء المجتمع ، ومن هذه الوسائل المطبوعات والكتب والإذاعة والتليفزيون وكل ما من شأنه أن يوضح للمسلم شعائر دينه وكيفية إقامتها .

كذلك تهتم الدولة بدور العبادة وتزويدها بمصادر الإشعاع الفكري والثقافي من كتب ومكتبات ووعاظ ومرشدين ودعاة ، ومعلوم أن للمسجد رسالة سامية ، ينبغي أن يؤديها في الدولة الإسلامية ، كما ينبغي على من يحمل لواء الدعوة أن يبذل جهده في تنقية العبادات والشعائر مما لحق بها من البدع ، ومما دخل عليها مما ليس فيها والعودة بها إلى نبعها الصافي ومصدرها الأصيل .

ثانياً : الأمر الثاني : تطبيق الشرائع :

إقامة الشعائر الإسلامية لابد أن يصاحبها تطبيق للشرائع حتى يكتمل شرع الله ويعم المجتمع المسلم ، وهذا هو أول أهداف الدولة في الإسلام ، وإذا كنا قد أوضحنا الشّق الأول

---

[1]. سورة الأنبياء : ٢٥ .
[2]. سورة الأنبياء : ٩٢ .

من إقامة شرع الله ، فما هي إذن مفردات الشّق الثاني من هذا الهدف السامي تتمثل مفردات الشّق الثاني من أهم أهداف الدولة الإسلامية وهو تطبيق وتفعيل الشرائع في الآتي :

• الحكم بين الناس بما أنزل الله :

المبدأ العام والركيزة الأساسية هو الحكم بما أنزل الله فيما يتعلق بالأحكام العامة والأصول والقواعد التي حددتها الشريعة الإسلامية ، حيث أن هذه الأصول والأحكام العامة والقواعد لا تتطور ولا تتغير فهي أساس الدين وحبله المتين .

قال تعالى " إنآ أنزلنآ إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بمآ أراك الله ولا تكن للخآئنين خصيماً "[1]، فكتاب الله وهو القرآن الكريم مشتمل على الصحيح الثابت من الأحكام .

وقال تعالى " إنما كان قول المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون "[2]، في هذه الآية أخبر الله تعالى عن صفة المؤمنين في المجتمع المسلم المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً ولا حكماً سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فهم يقولون لكتاب الله وحكمه سمعاً وطاعة ، ومن ثم وصفهم الله تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب .

---

[1]. سورة النساء : ١٠٥ .
[2]. سورة النور : ٥١ .

* الحدود حددتها الشريعة ولا تهاون فيها :

كذلك فالشريعة الإسلامية بأساسيها القرآن والسنة قد حددا الحدود وبيّنا خطورة وسوء عاقبة من يتعدى حدود الله ، وحدود الله تعني أحكام الله ، وتعني أيضاً الحدود الفاصلة بين الحلال المباح والحرام المحظور ، والحدود تعني كذلك العقوبات التي حددها الله لكل مخالفة أو تجاوز يرتكبه العبد .

قال تعالى " تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين " .[1]

وقال تعالى " الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاَّ يعلموا حدود مآ أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم " .[2]

وقال تعالى " التآئبون العابدون الحامدون السآئحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين " .[3]

* عواقب العدول عن إقامة شرع الله :

إقامة شرع الله من أجّل وأسمى أهداف الدولة في الإسلام ، وهذا الهدف هو هدف واجب التطبيق ، وقد أعد الله لمن يتقاعس عن إحراز هذا الهدف وتحقيقه خزياً في الحياة الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين .

1. سورة النساء : ١٣-١٤ .
2. سورة التوبة : ٩٧ .
3. سورة التوبة : ١١٢ .

قال تعالى " إنآ أنزلنا التوارة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الـذين أسـلموا للـذين هـادوا والربانيون والأحبار بما استُحفظوا من كتاب الله وكـانوا عليـه شـهدآء فـلا تخـشوا النـاس واخشون ولا تشتروا بئاياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بمآ أنزل الله فأولئـك هـم الكـافرون * وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بـالعين والأنـف بـالأنف والأذن بـالأذن والـسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بمآ أنزل الله فأولئـك هـم الظالمون " .[1]

وقال تعالى " وليحكم أهل الإنجيل بمآ أنزل الله فيه ومن لم يحكم بمآ أنزل الله فأولئـك هـم الفاسقون " .[2]

[1]. سورة المائدة : ٤٤ـ٤٥ .
[2]. سورة المائدة : ٤٧ .

المبحث الثاني

تحقيق مصالح المجتمع

يتمثل الهدف الثاني للدولة في الإسلام في تحقيق مصالح أفراد المجتمع ، وهذا الهدف يتفرّع إلى أهداف فرعية على النحو التالي :

أولاً : استخراج الموارد وإنماؤها :

تستهدف الدولة في الإسلام استخراج الموارد المادية والبشرية وإنماؤها ، والموارد المادية هي الدخل المادي ، والموارد البشرية بمثابة الكادر البشري الذي يتولى تشغيل وإدارة الجهاز الإداري وخطط الإنماء داخل الدولة .

وتتحصل الدولة الإسلامية على مواردها أو دخولها من مصادر عدة أهمها : الزكاة بجميع أنواعها ، والعائد من استغلال الموارد الطبيعية الموجودة بإقليم الدولة .

كذلك تستهدف الدولة إنماء مواردها من خلال إنماء قطاعات ونشاطات اقتصادها من صناعة وزراعة وتجارة .

ثانياً : توزيع الموارد والمنافع :

كذلك من أهداف الدولة الإسلامية توزيع الموارد والمنافع على الأفراد والجماعات وتشمل تلك المنافع السلع والخدمات والفرص والمناصب وكل ما له قيمة مادية ومعنوية ، وتنفق

الدولة الإسلامية من مواردها ودخلها على توفير الاحتياجات الأساسية للأفراد وتدعيم نشر التعليم والثقافة والصحة وغيرها من نشاطات الحياة الأخرى .

تهتم الدولة في الإسلام بتوزيع عمليات الإنماء والإحداث على مناطقها الجغرافية بشكل متوازن حتى لا يتم الإسراع بإنماء بعض المناطق على حساب المناطق الأخرى .

يضاف إلى ما تقدم إنفاق الدولة على شئون الدفاع والأمن الذي يعتبر هدفاً حيوياً من أهدافها ، حيث ترمي الدولة الإسلامية بشكل دائم إلى أن تبدو قوية مرهوبة الجانب حافظة لمكانتها الدولية .

يدخل كذلك في توزيع الموارد عمليات الإنفاق على الأجهزة الإدارية الحكومية والهيئات والمؤسسات العامة التي توكل إليها مسئولية تسيير نشاط الدولة .

ثالثاً : تنظيم أمور الدولة وتسيير شئونها :

يعتبر هدف تنظيم أمور الدولة وتسيير شئونها من أهدافها الفرعية التي تندرج تحت هدفها الرئيسي وهو تحقيق مصالح المجتمع ، ويجسد هذا الهدف الفرعي مدى قدرة الدولة على حفظ الأمن والنظام من خلال كافة مؤسساتها وجهازها الإداري وقواتها المسلحة .

ويرمي هذا الهدف الفرعي إلى تنظيم سلوك الأفراد والجماعات داخل الدولة الإسلامية ، وكذا يرتبط بأسلوب الدولة في فرض العقوبات ومنح المكافآت والحوافز .

المبحث الثالث

الدعوة إلى الله

الدعوة إلى الله هي خطاب موجّه إلى الفرد من خلال منطقه الذاتي ، وهذا الخطاب يحمل الحقيقة الإيمانية متّصفاً بالالتزام ومتسماً بالصدقية ، ويهدف إلى إحالة ذلك الفرد إلى مؤمن صحيح وقوي الإيمان .

من خلال هذا المفهوم الإجمالي للدعوة إلى الله ، يمكن أن نقف على عناصر وتفاصيل ذلك المفهوم من خلال الآتي :

أولاً : الدعوة إلى الله هي خلق علاقة روحية بين الداعية والمخاطب :

تتوجه الدعوة إلى الله إلى شخصٍ على استعداد لقبول هذه الدعوة والإيمان بها " والإيمان هو انتماء واستجابة كلية شاملة يفنى فيها الفرد لا فقط كمنطق أو كمفاهيم بل كوجود حركي "[1]، والدعوة بالمنطق السابق تتحول بعد انطلاقها إلى عاطفة تفسر حالة الولاء التي تتشكل بين مصدر الدعوة والمخاطب بها ، وهذه العاطفة ستكون مسئولة في نهاية المطاف عن نجاح الدعوة في تحقيق غاياتها وإصابة أهدافها .

وقد قال تعالى " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون "[2]، أي ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة

---

[1]. د. حامد ربيع ، الدعاية الصهيونية (القاهرة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٧٥) ص ٢٦ .
[2]. سورة آل عمران : ١٠٤ .

الإسلامية متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه ، ومن الجائز أن يكون المقصود من الآية أن تكون الأمة الإسلامية بالكامل من بين الأمم أمة من صفاتها واختصاصها أنها تدعو إلي الخير وتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر بين أمم الأرض ، فهي إذن أمة سلام ووئام وفضيلة وقيم وأخلاق .

وفي هذه الآية قدم الحق تبارك وتعالى الدعوة إلى الخير قبل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن شأن ذلك أن يخلق حالة من الأُلفة والقبول بين الداعي والمخاطب تؤهل لحالة التلاقي والعناق المستهدفة من وراء الدعوة والتي تنتهي بالقبول والإيمان .

وقال تعالى " يا أيها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون "[1] ، فالإسلام إحياء للقلوب وإنعاش للنفوس ، ولعله مما يعظم أثره في النفس ويشتد وقعه على القلب أن يدرك الإنسان أنه يدعى إلى ما يحييه بتزكية نفسه وتطهير قلبه .

ثانياً : الدعوة تفرض تقبل الرسالة الإيمانية في كمالها وكلياتها :

ما من شك في أن " الانتماء العقيدي في الدعوة (الإسلامية) يفسر ويفرض تقبُّل الرسالة في كمالها وكلياتها ، وابتداءً من هذا القبول ينبع الإيمان بالجزئيات ، إن المؤمن بالإسلام لا يمكن أن يناقش لماذا يتجه بالصلاة نحو الكعبة ، إن هذه الجزئية تنبع من إيمانه بالعقيدة ، ومن ثم يرتبط بها روحياً في كلياتها ، الأمر الذي يفرض عليه احترام الجزئيات دون مناقشة " .[2]

[1]. سورة الأنفال : ٢٤ .
[2]. د. حامد ربيع ، الدعاية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦ .

وقد قال تعالى " قولوا ءامنا بالله ومآ أنزل إلينا ومآ أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ومآ أوتي موسى وعيسى ومآ أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون "[1]، وفي هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله جميعاً ، وهذا يعني تقبل الرسالة الإيمانية بكمالها وكلياتها ، وهي بالتالي تتضمن في ثناياها الجزئيات ، والإيمان بالكليات يعني بالضرورة الإيمان بالجزئيات .

ثالثاً : الدعوة إلى دين الله تقوم على الحقيقة وتدعو إليها :

فالدعوة إلى دين الله الذي هو الإسلام " تقوم على الصراحة وتسعى إلى الحقيقة بالرغم من أنها تفترض علاقة عاطفية ، إلا أنها لا تُشعل تلك العلاقة بل ترى فيها مبرراً لأن تكون صريحة واضحة لا تنطلق إلا من الحقيقة ولأجل الحقيقة " .[2]

قال تعالى " لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنَّك في الأمر ، وادع إلي ربك انك لعلى هدى مستقيم "[3]، أي إن دعوة الإسلام حق ، وتدعو إلى طريق الهدى والحق طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود .

وقال تعالى " وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً "[4]، أي وأمرك يا محمد ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند .

---

[1]. سورة البقرة : ١٣٦ .
[2]. د. حامد ربيع ، الدعاية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦ .
[3]. سورة الحج : ٦٧ .
[4]. سورة الأحزاب : ٤٦ .

رابعاً : الدعوة إلى الله هدف واجب من أهداف الدولة في الإسلام :

الدعوة إلى دين الله هدف أساسي من أهداف الدولة الإسلامية ، وهذا الهدف هو كذلك مسئولية لا يمكن للدولة في الإسلام أن تتنصل منها .

قال تعالى " قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله ومآ أنا من المشركين "[1]، ويقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين : الإنس والجن، آمراً إياه أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي.

وقال تعالى " والذين ءاتيناهم الكتاب يفرحون بمآ أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنمآ أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعوا واليه مآب "[2]، وقد أمر الله رسوله بالدعوة إلى الله وأن تستمر هذه الدعوة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وقال تعالى " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين "[3]، يقول تعالى آمراً رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة أي ما أنزل عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة ، ومن احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، وهذا أمر بلين الجانب .

---

[1]. سورة يوسف : ١٠٨ .
[2]. سورة الرعد : ٣٦ .
[3]. سورة النحل : ١٢٥ .

وقال تعالى " ولا يصدنَّك عن ءايات الله بعد إذ أنزلت إليك ، وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين "[1]، وهذا أمر من الله لرسوله الكريم بالدعوة إلى دين الله ونشره وهذا واجب منوط باتباع رسول الله من بعده ، وبكل دولة اتخذت من الإسلام شِرعةً ومنهاجاً .

وقال تعالى " فلذلك فادع واستقم كمآ أمرت ولا تتبع أهوآءهم وقل ءامنت بمآ أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنآ أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير "[2]، أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك ، أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه ، واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله عز وجل ، وداوموا على نشر دين الله والدعوة إليه .

وقال تعالى " وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ".[3]

[1]. سورة القصص : ٨٧ .
[2]. سورة الشورى : ١٥ .
[3]. سورة الحديد : ٨ .

الفصل الثالث

المنهاج الإسلامي

[النظام السياسي في الإسلام]

في فصل سبق تناولنا فكرة المنهاج الإسلامي الذي هو نظير للنظام السياسي تناولاً نظرياً ، وفي هذا الفصل نعمد إلى دراسة المنهاج الإسلامي [النظام السياسي] بشكل تفصيلي تحليلي ، وتنصب هذه الدراسة على تحليل مكونات المنهاج التي تتحدد في الحاكم أو ولي الأمر ومجلس الشورى أو الهيئة الاستشارية والحكومة .

لقد مثلت هذه الجزئية ولا تزال في التراث والفكر الإسلامي لُب الظاهرة السياسية وموضوعها الرئيسي ، ولطالما قرأنا وسمعنا أن السياسة في الإسلام تعني الحاكمية أو الإمامة أو الخلافة والشورى ، وهذه الأحادية في النظر والفكر ألقت بالفكر الإسلامي في هوة سحيقة قيدت حركته وكبّلت حريته مما جعله يقف عاجزاً أمام مستجدات الظاهرة السياسية والدفق المتجدد من الأفكار والنظريات السياسية ، فكيف للفكر الإسلامي أن يحتوي ويستوعب مستجدات الفكر السياسي الموضوع ، وهو لا يملك إلاّ ترديد أفكار قديمة لم يقدر له أن يتحرر من قيودها ، فلم يكن أمامه من بد إلا رفض تلك المستجدات ووصفها بالبدع ، وعلى الجهة المقابلة وصف الآخرون ومعهم جمع كثير من أبناء الإسلام أنفسهم الفكر الإسلامي فيما يتعلق بالظاهرة السياسية بضيق الأفق والقصور والعجز عن مواكبة الأفكار السياسية المتجددة والمتطورة ، وكان السبب الرئيسي وراء كل ذلك أن باب الاجتهاد قد أوصد ولم يملك أحد الجرأة على محاولة فتح ذلك الباب .

ومما زاد من وطأة هذا الأمر أن الفكر السياسي البشري يتمتع بحرية حركة لا نظير لها زادت من إفرازاته ونتاجه ، فأصبحنا في مواجهة فيضانات فكرية قادمة من الغرب والشرق ونحن في وضع الأعزل الذي يفتقد أدوات الاحتواء والتطويع أو حتى أدوات التعامل ، وانزوينا في ركن ضيق مظلم وعندما نفذ إلينا بصيص من شعاع الأفكار الواردة من ثقب باب الاجتهاد الذي أحكمنا غلقه تشبثنا به وخلنا أنه المنقذ من الإفلاس ، فكان التهافت على

تلك الأفكار ، وتباري الجميع في ترجمة كتب الفكر السياسي الغربي وصنوف شتى من المؤلفات السياسية الغربية ، وليس من المنطقي أن نرفض ذلك الانفتاح على أفكار الآخرين ، ولكن ليس من المفروض أن نعتنق تلك الأفكار ونركن إليها ونعتبرها النموذج والقدوة ، وليس من المقبول كذلك أن نتوقف عند حد الإعجاب والانبهار بالمستورد ، ولا ننقب فيما لدينا من ينابيع فكرية وأصول معرفية تشعرنا بذاتنا وترسخ لدينا الجرأة على الاجتهاد والعطاء ، فللإسلام رسالة إنسانية سامية ، فمن ينبري لأدائها غير أبنائه ؟! .

إن الإسلام يملك منظومة متكاملة من النظريات والأفكار السياسية التي لديها القدرة على التحول إلى نموذج فريد ومتميز من الممارسات السياسية ، فالإسلام لا يقدم نظرية سياسية فقط بل يقدم كذلك نماذج نقل تلك النظرية إلى حيز الواقع ، فالكثير من مفردات النظرية السياسية المعاصرة وأفكارها المبتكرة يكتنفها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وهي في حاجة إلى من يملك أدوات استنباطها ويتقن فنون التعامل مع خصوصية وتميز هذين المصدرين الأجّل والأعظم للشريعة الإسلامية .

ربما نكون قد قدمنا فيما مضى تحليلاً لمفهوم ومفردات السياسة في الإسلام ، وننتقل في هذا الفصل وما يليه إلى تحليل ودراسة مفردات وأدوات الحكم في الإسلام ، من خلال ما اتفقنا على تسميته بالمنهاج الإسلامي أو النظام السياسي تجاوزاً ، والمنهاج هو وسيلة وأداة الحكم في الإسلام ، وقد سبق وقدمنا تحليلاً نظرياً لمفهوم المنهاج الإسلامي وما يحيط به من أفكار وما يحويه من مفردات بشكل نظري ، أما في هذا الفصل فسوف نقترب أكثر من المنهاج الإسلامي ، وربما نغوص إلى أعماقه للتعامل معه بوصفه أداة الحكم في الإسلام .

وعندما نعمد إلى تحليل المنهاج الإسلامي الذي يبدو لنا كلاً متكاملاً ، سنجد أنه يتكون من مفردات ثلاث أو فاعلين ثلاثة ، لكل من هؤلاء الفاعلين كيانه المستقل وطريقة تكوينه

وتشكيله ودوره المحدد ، وتربط كل فاعل بالآخَرين علاقات ارتباطية وعضوية دقيقة ونشيطة بل ودائبة الحركة في اتجاهي الأخذ والعطاء .

والحاكم أو ولي الأمر هو الفاعل الأول في المنهاج الإسلامي ، والمحرك الأساسي لذلك المنهاج ، وانطلاقاً من أهمية هذا الفاعل ودوره المحوري في العملية السياسية وفي منظومة أدوات الحكم في الإسلام تعددت وتشعبت الكتابات والتحليلات والأدبيات التي تراكمت عبر السنين حول الحاكمية أو الإمامة إلى أن كونت رصيداً زاخراً من الفكر السياسي الإسلامي ، وإن كانت تغلب على ذلك الرصيد سمة التكرار والتفصيل الممل والعجز عن مواكبة تطورات ومستجدات الحياة المعاصرة ومبتكرات الفكر السياسي والنظرية السياسية الغربية ، وتعويلاً على تلك الأهمية لدور الحاكم أو ولي الأمر ، فسوف نفرد لتحليل هذا الموضوع جزئية مستقلة في هذا الفصل .

يمثل موضوع كيفية الوصول إلى ممارسة السياسة والحكم من موقع المسئولية العامة والذي يعرفه الفكر الموضوع بتداول السلطة إشكالاً شائكاً وحساساً في الطرح الإسلامي لدى المسلمين وغير المسلمين ، فالأولون غُم عليهم ولم يقدر لهم فك رموز هذه المعضلة في غمرة الخلط والفهم غير الصحيح والدقيق لكلية السياسة والحكم في الإسلام وتشبثهم بأفكار وطروحات غير واقعية وغير موضوعية ، والأخيرون لم يفهموا الإسلام حق الفهم ولهم عذرهم في ذلك ، ومن ثم أصبح لزاماً على أبناء الأمة توضيح هذه المعضلة وإبراز الطرح الإسلامي الصافي إزاءها .

الفاعل الثاني في المنهاج الإسلامي والذي مثّل قيمة سياسية عليا كانت بمثابة الرد الشافي على مبدأ الديمقراطية الغربية الذي غزا فكرنا السياسي الإسلامي في قوة وعنف ، تلك كانت قيمة الشورى وانعكاسها الحركي أو النظمي المتمثل في مجالس الشورى أو الهيئات

الاستشارية المساندة والمساعدة للحاكم ، والممثلة لأفراد الشعب في سدة الحكم ، ونتناول هذه القيمة وانعكاسها النظمي المتمثل في مجلس الشورى في جزئية مستقلة من هذا الفصل .

أخيراً يأتي الفاعل الثالث في المنهاج الإسلامي وهو الحكومة أو المساعدين للحاكم ، والجهاز الإداري والتنفيذي الموكل إليه تنفيذ السياسات التي تحقق أهداف الدولة ، وإذا كان الفكر السياسي الإسلامي قد أفرد وخصص أجزاءً مطولة من تراكماته المعرفية للحاكمية والشورى ، فإنه لم يُعر الحكومة اهتماماً يمكن أن يذكر ، ومن ثم فسوف نخصص جزئية مستقلة من هذا الفصل للحكومة .

وعليه يأتي هذا الفصل في أربعة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : الحاكم أو ولي الأمر .

المبحث الثاني : إشكال كيفية الوصول إلي ممارسة السياسة والحكم من موقع المسئولية العامة (تداول السلطة) .

المبحث الثالث : قيمة الشورى وشكلها التنظيمي .

المبحث الثالث : الحكومة الإسلامية .

المبحث الأول

الحاكم أو ولي الأمر

نخصص هذه الجزئية لدراسة الحاكم أو ولي الأمر ، وهو الشخص الذي يتولى تصريف شئون الجماعة والحفاظ عليها وتحقيق أهدافها ، وتحليل الحاكم أو ولي الأمر يمكن أن يتم من خلال العناصر والمفردات التالية :

أولاً : اللقب والمنصب :

اختلفت وتعددت المسميات التي تطلق على المسئول الأول في الدولة في الإسلام ، ويمكن استعراض مجموعة الألقاب التي جاءت لوصف المسئول الأول في الدولة ، ويلاحظ بداءة على هذه الألقاب أن منها ما قد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وأن منها ما استُعمل بالتواتر والنقل من خلال أدبيات التراث الإسلامي ، ويمكن متابعة ذلك من خلال ما يلي:

● الملك :

من أقدم الألقاب العربية التي جاءت لوصف الرجل الأول في الجماعة المنتظمة في شكل مجتمع سياسي ، وقد ورد هذا اللقب في القرآن الكريم ليصف أشخاصاً من العصور القديمة حازوا مكانة المسئول الأول في مجتمعاتهم .

قال تعالى " وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يا أيها الملأ أفتوني في رُءياي إن كنتم للرُءيا تعبرون "[1] ، والملك في هذه الآية الكريمة هو ملك مصر .

وقال تعالى " وقال الملك ائتوني به فلما جآءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم "[2]، والملك في هذه الآية كما في الآية السابقة هو ملك مصر .

وقال تعالى " وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين "[3]، والملك هو كما ذكر أعلاه ملك مصر .

وقال تعالى " قالوا نفقد صواع الملك ولمن جآء به حمل بعير وأنا به زعيم "[4]، والملك هو ملك مصر .

وقال تعالى " فبدأ بأوعيتهم قبل وعآء أخيه ثم استخرجها من وعآء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلآ أن يشآء الله نرفع درجات من نشآء وفوق كل ذي علم عليم "[5]، والملك هو ملك مصر .

وقال تعالى " أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكـــان ورآءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً "[6]، وهذا الملك من الملوك المنصوص عليهم في التوارة .

1. سورة يوسف : ٤٣ .
2. سورة يوسف : ٥٠ .
3. سورة يوسف ٥٤ .
4. سورة يوسف : ٧٢ .
5. سورة يوسف : ٧٦ .
6. سورة الكهف : ٧٩ .

وقال تعالى " إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم "[1] ، وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ .[2]

وقال تعالى " قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلهآ أذلة وكذلك يفعلون "[3]، والملوك في هذه الآية المقصود بهم الملوك الذين يدخلون بلدة عنوة في حالة الحرب والصراع ، وكان مقصد قول بلقيس أن سليمان ربما يكون على شاكلة هؤلاء .

وقال تعالى " ونادي فرعون في قومه قال يا قومِ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون "[4]، " ملك مصر " في هذه الآية تفيد أن فرعون موسى كان ملكاً .

وقال تعالى " ألم تر إلى الملأ من بني إسرآئيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا وما لنآ ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنآئنا فلما كُتب عليهم القتال تولوا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ◦ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنىّ يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم "[5]، والملك في هاتين الآيتين الكريمتين هو طالوت من بني إسرائيل .

مما تقدم يتبين أن الملك لقب قديم يدل على من يتقلد منصب رأس الدولة وكبيرها ، ولهذا اللقب دلالته الواضحة من الجلالة والعظمة والقوة والمنعة وسعة الملك والسلطان .

---

[1]. سورة النمل : ٢٣ .
[2]. تفسير بن كثير ، مرجع سابق المجلد الثالث ، ص ٣٣٨ .
[3]. سورة النمل : ٣٤ .
[4]. سورة الزخرف : ٥١ .
[5]. سورة البقرة : ٢٤٦ـ ٢٤٧ .

• الخليفة :

كذلك لقب الخليفة من الألقاب التي انتشرت وشاعت في التراث الإسلامي ليُطلق على كبير الأمة الإسلامية وعظيمها والمسئول الأول فيها .

قال الله تبارك وتعالى " وإذ قال ربك للملآئكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون "[1]، وقد استقر المفسرون الثقاة على أن " خليفة " التي وردت في هذه الآية الكريمة تعني قوماً يخلف بعضهم بعضاً أي يتعاقبون جيلاً بعد الآخر .

وقال تعالى " وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشآء كمآ أنشأكم من ذرية قوم ءاخرين "[2]، والاستخلاف في هذه الآية يعني الإحلال أي يذهبكم ويأتي محلكم بخلق آخرين .

وقال تعالى " وهو الذي جعلكم خلآئف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في مآ ءاتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم "[3]، " والخلائف " في هذه الآية تعني إعمار الآدميين للأرض جيلاً بعد جيل وخلفاً بعد سلف .

وقال الحق تبارك وتعالى " أوعجبتم أن جآءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفآء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا ءالآء الله لعلكم

[1]. سورة البقرة : ٣٠ .
[2]. سورة الأنعام : ١٣٣ .
[3]. سورة الأنعام : ١٦٥ .

تفلحـون "[1]، جـاءت " خلفـاء " في هـذه الآيـة بمعنـى أنهـم أعقبـوا مـن كـانوا مـع نـوح في السفينة .

وقال الحق تبارك وتعالى " واذكروا إذ جعلكم خلفآء من بعد عاد وبـوأكم في الأرض تتخـذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا ءالآء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين "[2]، كذلك جاءت " خلفاء " هاهنا بمعنى أعقبتم قوم عاد وجئتم بعدهم .

وقال تعالى " قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد مـا جئتنـا قـال عـسى ربكـم أن يهلـك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملـون "[3]، " ويـستخلفكم " هنـا بمعنـى ترثـون وتملكون أرض مصر بعد هلاك عدوكم وهو فرعـون ، والخطـاب موجـه مـن موسـى إلى بـني إسرائيل .

وقال تعالى " اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبـع سـبيل المفـسدين "[4]، وقـول موسـى لأخيـه هارون عندما همَّ بالذهاب إلى ميقات ربه " اخلفني " أي خذ مكاني في بـني إسـرائيل وكـن عليهم خليفة لي وقم بأمور الحكم والسياسة .

وقال تعالى " ولما رجع موسـى إلى قومـه غـضبان أسـفاً قـال بئـسمـا خلفتمـوني مـن بعـدي أعجلـتم أمـر ربكـم وألقـى الألـواح وأخـذ بـرأس أخيـه يجـرُّه إليـه قـال ابـن أم إن القـوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تـشمت بـي الأعـدآء ولا تجعلـني مـع القـوم الظـالمين "[5]،

1. سورة الأعراف : ٦٩ .
2. سورة الأعراف : ٧٤ .
3. سورة الأعراف : ١٢٩ .
4. سورة الأعراف :١٤٢ .
5. سورة الأعراف : ١٥٠ .

وقول موسى عليه السلام في هذه الآية " بئس ما خلفتموني " تعني بئس ما صنعتم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم .

وقال تعالى " فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الأخرة خير للذيْنَ يتقون أفلا تعقلون "[1]، أي فخلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم .

وقال تعالى " ثم جعلناكم خلآئف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون "[2]، وقد سبق إيضاح دلالة " خلائف " .

وقال تعالى " فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلآئف وأغرقنا الذين كذبوا بئاياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين "[3]، وقد سبق بيان ذلك .

وقال تعالى " فإن تولوا فقد أبلغتكم مآ أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شئ حفيظ "[4]، وقد سبق بيان ذلك .

وقال تعالى " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً "[5]، أي جاء من بعدهم أقوام .

[1]. سورة الأعراف : ١٦٩ .
[2]. سورة يونس : ١٤ .
[3]. سورة يونس : ٧٣ .
[4]. سورة هود : ٥٧ .
[5]. سورة مريم : ٥٩ .

وقال تعالى " وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون "[1]، وهذه الآية الكريمة وعد من الله تعالى لرسوله الكريم بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي أئمة الناس والولاة عليهم وبهم تصلح البلاد ويخضع لهم العباد ، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم ، وقد أنجز الحق تبارك وتعالى وعده .

وقال تعالى " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب "[٢]، في هذه الآية وصية من الله عز وجلّ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وكذلك في هذه الآية خطاب من الله عز وجل إلى نبيه داود عليه السلام بأنه جمع له النبوة والخلافة ، وهذه هي الآية التي وردت فيها لقب الخليفة بمعناه المتعارف عليه .

وقال تعالى " هو الذي جعلكم خلآئف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلاَّ مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاَّ خساراً "[٣]، أي يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم .

وقال تعالى " ولو نشاء لجعلنا منكم ملآئكة في الأرض يخلفون "[٤]، في هذه الآية خطاب من الله عز وجل يفيد أن الله لو أراد لجعل على الأرض ملائكة بدلاً من بني آدم ثم يخلف بعضهم بعضاً كما يخلف بنو آدم بعضهم بعضاً .

---

[1] . سورة النور : ٥٥ .
[2] . سورة ص : ٢٦ .
[3] . سورة فاطر :٣٩ .
[4] . سورة الزخرف : ٦٠ .

مما تقدم يمكن استخلاص ما يلي :

الخليفة لغة هو السلطان الأعظم وجمعه خلائف وخلفاء ، والاستخلاف يعني القيام بالأمر عن المستخلف ، إما معه أو بعده ، والخلافة هي النيابة عن الغير ، إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته ، وإما لعجزه ، وإما لتشريف المستخلف [1] .

الخلافة في الاصطلاح عبارة عن رئاسة عامة تتضمن حفظ مصالح العباد في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

والخليفة سمي كذلك لكونه يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في أمته ، فيقال خليفة بشكل مطلق ، ويقال خليفة رسول الله .

ويُفهم من الآيات الكريمة أنه لا يجوز إطلاق خليفة الله على الخليفة بالمعني المقصود والمعين في التحليل لأن " خليفة " الواردة في الآيات إنما قُصد بها الخلافة العامة في عمارة الأرض التي هي لبني آدم .

إن لقب " الخليفة " ظهر أول ما ظهر عقب انتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى واستقر أمر الصحابة على مبايعة أبي بكر الصديق ليخلف رسول الله أميراً للمؤمنين حينئذٍ بدأ استعمال لقب خليفة رسول الله بمعني من يخلفه في رئاسة المؤمنين ، والفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم ، ويردعهم عن المحارم والمآثم .

في العصور المتأخرة من عمر الدولة الإسلامية تحول لقب " خليفة المسلمين " أو " الخلافة الإسلامية " إلى رمز على أن الأمة الإسلامية هي دولة واحدة ، مهما اتسعت

[1] القاموس المحيط ، مادة " خلف "

رقعتها وامتدت مساحتها وتعددت وكثرت الولايات والأمصار التابعة لها ، فحكمها يتبع مصدر واحد وأمرها يؤول إلى مسئول واحد هو الخليفة مهما كان موقعه ومهما كان مرجع أصله ، فالمهم هو مقدرته على لمّ شمل الأمة الإسلامية ، وإخضاع كافة الأمصار والإمارات لسلطته ، ومن ثم كانت الخلافة دائماً رمزاً للوحدة الإسلامية .

* الإمام :

إضافة إلى الخلافة التي أوضحنا معانيها ومواضع ورودها في القرآن الكريم ثمة لقب آخر يحمل نفس المعنى ويعتبر مرادفاً للقب الخليفة وهو لقب الإمام ، والإمام لغة هو ما ائتم به من رئيس أو غيره ، وهو قيّم الأمر المصلح له ، ويطلق على النبي عليه الصلاة والسلام وكذلك على الخليفة وعلى قائد الجند وعلى الدليل والحادي[1] .

قال تعالى " وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين "[2]، جاءت كلمة " إمام " في هذه الآية بمعنى قدوة للناس يقتدي به ويحتذي حذوه .

وقال تعالى " وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لآ أيمان لهم لعلهم ينتهون "[3]، ولفظة " أئمة " في هذه الآية الكريمة تعني رؤساء المشركين وكبراء الكافرين وقوادهم وقدوتهم ، وتفيد هذه الآية أن الإمام كما قد يكون في الخير يكون كذلك في الشر .

---

1 القاموس المحيط ، مادة " أمم " .
2 . سورة البقرة : ١٢٤ .
3 . سورة التوبة : ١٢ .

وقال تعالى " أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون "[1]، كذلك وردت لفظة " إمام " في هذه الآية بمعنى القدوة التي يقتدي بها والرحمة المرسلة من الله .

وقال تعالى " يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً "[2]، في هذه الآية وردت لفظة " إمام " بمعنى ثار حوله خلاف :

فهناك من يرى أن " إمام " في هذه الآية بمعنى نبيهم .

وهناك من يرى أن " إمام " في هذه الآية تعنى كتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع .

وهناك من يرى أن " إمام " في هذه الآية بمعنى كتاب أعمالهم ، وهذا هو الراجح لتمشيه مع عموم معنى الآية .

وهناك من يرى أن " إمام " في هذه الآية بمعنى من يأتمون به فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء وأهل الكفر ائتموا بالأشرار والطواغيت .

وقال تعالى " وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينآ إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتآء الزكاة وكانوا لنا عابدين "[3]، لفظة " أئمة " في هذه الآية بمعنى يقتدي بهم .

---

[1] . سورة هود : ١٧ .
[2] . سورة الإسراء : ٧١ .
[3] . سورة الأنبياء : ٧٣ .

وقال تعالى " والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً "[1]، ولفظة " إمام " في هذه الآية بمعنى يقتدي بنا أو هداة مهتدين دعاة إلى الخير .

وقال تعالى " ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين "[2]، جاءت لفظة " أئمة " في هذه الآية بمعنى يقتدي بهم .

وقال تعالى " وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصرون "[3]، وتعني لفظة " أئمة " في هذه الآية القدوة في الشر والكفر والضلال .

وقال تعالى " وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بئاياتنا يوقنون "[4]، كذلك وردت لفظة " أئمة " في هذه الآية بمعنى قدوة يهدون إلى الخير والحق .

وقال تعالى " ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين "[5]، وفي هذه الآية جاءت لفظة " إمام " بمعنى إن الله أنزل على موسى التوراة قبل القرآن لتكون قدوة يؤتم بها في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام .

بالرجوع إلى لفظة " إمام التي وردت في الآيات الكريمة يلاحظ الآتي :

أن ثمة خلط في التراث الإسلامي بين لفظتي " الخليفة " و " الإمام " وكثيراً ما استخدم اللقبان كمرادفين ، فعندما يذكر أحدهما فهو يعني الآخر .

---

1 . سورة الفرقان : ٧٤ .
2 . سورة القصص : ٥ .
3 . سورة القصص : ٤١ .
4 . سورة السجدة : ٢٤ .
5 . سورة الأحقاف : ١٢ .

" والإمام " سمي كذلك تشبيهاً بإمام الصلاة حيث يتبع ويقتدي به في أداء الصلاة ، وتـواتر استعمال لقب " الإمام " بعد وفاة الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم ليـدل علـى " الخليفـة " وهو نائب صاحب الشريعة .

نظراً لارتباط لقب " الإمام " بالصلاة فقد ارتبط كذلك في ذهن العامة بمن توكـل إليـه ولايـة الأمور الدينية ، كما كثر استعمال هذا اللقب واكتسب خصوصية لدى فرقة الشيعة وفكـرهم الديني والفلسفي والسياسي .

يمكـن الانتهـاء إلى أن اسـتعمال لقـب " خليفـة " أو " إمـام " يمكـن أن يـؤدي الغـرض الاصطلاحي منه ، ويمكن لكل منهما أن يحل محل الآخر ، وتجدر الإشارة إلى أنه قد حل محل هذين اللقبين لقب آخر ارتبط بضعف الدولة الإسلامية وتفتتها ، وهو لقب "السلطان" وقد استعمل اللقب الأخير ليؤدي نفس الغرض .

* الحاكم :

يأتي كذلك لقب " الحاكم " ليدخل على الفكر السياسي الإسلامي الحديث والمعاصر بمعنى الرئيس أو المسئول الأول في الدول .

قال تعالى " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بهآ إلى الحكام لتأكلوا فريقـاً مـن أمـوال الناس بالإثم وأنتم تعلمون "[1]، في هذه الآية الكريمة وردت لفظة " الحكام " بمعنى القضاة .

---

[1] . سورة البقرة : ١٨٨ .

وقال تعالى :" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلي أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً "[1] ، تعني لفظة " تحكموا " في هذه الآية تفصلوا في الخصومات وتقضوا بين الناس .

وقال تعالى " إنآ أنزلنآ إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بمآ أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً "[2]، في هذه الآية خطاب من الحق تبارك وتعالى لرسوله الكريم بأن يحكم بين الناس وفق كتاب الله وما أوحاه الله إليه .

وقال تعالى " يا يحيى خذ الكتاب بقوة وءاتيناه الحكم صبياً "[٣]، في هذه الآية الكريمة وردت لفظة " الحكم " بمعنى الفهم والعلم .

وقال تعالى " ولوطاً ءاتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبآئث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين "[٤]، لقد وردت لفظة " حكم " في هذه الآية بمعنى " النبوة " .

وقال تعالى " ففهمناها سليمان وكلاً ءاتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين "[٥]، جاءت لفظة " الحكم " في هذه الآية بمعنى " النبوة " .

وقال تعالى " ولما بلغ أشده واستوى ءاتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين "[٦]، كذلك وردت لفظة " حكم " في هذه الآية بمعنى " النبوة " .

---

[1]. سورة النساء : ٥٨ .
[2]. سورة النساء : ١٠٥ .
[3]. سورة مريم : ١٢
[4]. سورة الأنبياء : ٧٤ .
[5]. سورة الأنبياء : ٧٩ .
[6]. سورة القصص : ١٤ .

بعد الإطلاع على المعاني والدلالات التي اقترنت بلقب " حاكم " أو " الحاكم " في الآيات السابقة يمكن استخلاص الآتي :

وردت لفظة " الحكم " بمعنى القضاء ، و " الحاكم " بمعنى القاضي ، و " يحكم " بمعنى يقضي ويفصل في الخصومة .

كذلك وردت لفظة " الحكم " بمعنى " النبوة " .

تستخدم لفظة " الحاكم " بمعنى الرئيس أو المسئول الأول في الدولة ، ويعد هذا اللقب الأنسب لإطلاقه في الوقت الراهن على الدولة في الإسلام أكثر من لقبي " الخليفة " و " الإمام " ، وذلك بسبب تمزق الدولة الإسلامية إلي دول عديدة مشتتة وغير متحدة في دولة واحدة ، فالخليفة أو الإمام لعموم المسلمين .

* ولي الأمر :

لقب ولي الأمر من الألقاب التي جاءت بشكل مباشر في كتاب الله العزيز لتخاطب الرؤساء والمسئولين في الدولة الإسلامية .

قال تعالى " يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر ذلك خير وأحسن تأويلاً "[1] ، وقد أجمع المفسرون على أن لفظة " ولي الأمر " تعني من بيدهم أمر الجماعة وعقدة الحل والربط والفصل في الأمر ، أما " منكم " فتفيد توجيه الخطاب إلى الرسول الكريم وعموم المسلمين من الحق تبارك وتعالى .

[1] . سورة النساء : ٥٩ .

وقال تعالى " وإذا جآءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً "[1]، كذلك وردت لفظة " أولي الأمر " بمعنى المسئولين والرؤساء وأصحاب الشأن .

إذن فلقب " ولي الأمر " من الألقاب التي تناسب منصب المسئول الأول في الدولة الإسلامية نظراً لما يتصف به هذا اللقب من عمومية ، وعدم ارتباطه بشكل معين من أشكال ولاية المسئولية في الدولة .

بعد أن استعرضنا كافة الألقاب التي وردت في القرآن الكريم والتراث الإسلامي وتعنى الرجل الأول في الدولة الإسلامية ، يمكن الانتهاء إلى ما يلي :

إن لقبي الخليفة والإمام لم يعدا يوائمان وضع الأمة الإسلامية الراهن ، وتوزع أبناء الأمة في دول مستقلة لا يربطها إلا رابطة الدين .

إن كافة الألقاب الأخرى سواء الملك أو السلطان أو الحاكم أو ولي الأمر أو الرئيس ، كلها ألقاب يمكن إطلاقها على المسئول الأول في الدولة الإسلامية .

ثانياً : صفات الحاكم أو ولي الأمر أو الرئيس :

التراث الإسلامي زاخر بالحديث عن صفات وخصال الحاكم أو ولي الأمر أو الرئيس ولكن يلاحظ أن اتساع الهوة الزمنية بين وقت صدور تلك الأدبيات والوقت الراهن جعل من الصعب على المحلل المتخصص أن يعمد إلى تطبيق نصوص تلك الأدبيات على الأوضاع الراهنة والمعاصرة ، فلكل زمن ظروفه وتطوراته ، ولكل عصر خصائصه وسماته — وقد سبق

---

[1] . سورة النساء : ٨٣ .

لنا الحديث مطولاً في هذا الشأن — وبالرغم من ذلك يبقى الحديث عن صفات الحاكم أو ولي الأمر أو الرئيس من الأهمية بمكان ، ولهذا نذكرها في الآتي :

* الخصال والصفات الخِلقية :

ما من شك في أن الوجاهة والبشاشة وطلاقة الوجه أمور محبذة في شخص الحاكم أو ولي الأمر أو الرئيس ، وتلك الأمور تعني إجمالاً سلامة الأعضاء والحواس ، ويلاحظ أن التركيز في الوقت الراهن على الخصال والصفات الخِلقية لشخص الحاكم لم يعد كما كان في السابق والسبب هو اختلاف الظروف وتطورات العصر ، فالقوة الجسمانية والعضلية كانت أمراً ضرورياً لابد من توافره في ولي الأمر ، حيث أنه هو الذي يقود الجيش وقت الحرب والصراع ، أما الآن فقد حل محل هذه الخصلة خصلة أخرى وهي الذكاء والإلمام باستراتيجيات الحروب وتكتيكاتها ، وبذلك تكون قد حلت الخصلة الخُلقية محل الخصلة الخِلقية في شخص الحاكم أو ولي الأمر .

* الخصال والصفات الخُلقية :

كذلك عدد التراث الإسلامي الخصال والصفات الخُلقية الواجب توافرها في شخص الحاكم أو ولي الأمر ، ويمكن جمع كل هذه الخِصال والصفات في خِصلتين تلائمان عصرنا الراهن هما :

الخِصلة الأولي : أن يكون الحاكم أو ولي الأمر سياسياً بارعاً ، وهذه الخِصلة تجمع كل مستلزمات التعامل مع مجريات الحياة الراهنة من حنكة وخبرة ودراية وسداد ورشاد

وعقلانية وروية وعدم التسرع في إصدار الأحكام على الأمور والتطورات ، والإلمام بمتغيرات ومستجدات العلاقات الدولية .

الخصلة الثانية : التقوى والورع ، وهذا يعني قوة الوازع الديني ، والغيرة على دين الله والالتزام بتطبيق شرع الله داخل الدولة ، والاجتهاد في سبيل الدعوة إلى دين الله في الخارج وتجهيز الدعاة للقيام بذلك .

* الأصل :

يدقق التراث الإسلامي في مسألة الأصل والنسب بالنسبة إلى الحاكم أو ولي الأمر أو الرئيس ، فكثير من الأدبيات تركز على أصل الحاكم وتعتبره شرطاً ضرورياً لابد أن يتوافر فيه ، والثابت أن الشريعة الإسلامية لم تعر مسألة أصل الحاكم أو ولي الأمر اهتماماً يمكن أن يعوّل عليه ، بل جعلت الفيصل هو تقوى الله ولزوم طاعته .

قال تعالى " ألم تر إلى الملأ من بني إسرآئيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا وما لنآ ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنآئنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين * وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّي يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشآء والله واسع عليم "[1] .

[1] . سورة البقرة : ٢٤٦ و ٢٤٧ .

وقال تعالى " يآ أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبآئل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير "[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له " انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلاّ أن تفضله بتقوى الله " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" المسلمون أخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى " .

إذن فأصل الحاكم ونسبه ليس هو المحك الرئيسي في توليه الحكم وولاية الأمر ، بل إن المعيار الأكثر موضوعية هو الصلاحية والكفاءة وتقوى الله ، فلو أضيف إلى ذلك الأصل العريق لاكتملت في ولي الأمر أو الرئيس كل شمائل الخير وأمارات الصلاح .

ثالثاً : طريقة اختيار وتعيين ولي الأمر أو الرئيس :

ننتقل إلى جزئية أخرى مهمة فيما يتعلق بالحاكم أو ولي الأمر ألا وهي كيفية اختياره أو تعيينه ، ولطالما كانت هذه الجزئية محور خلاف وجدال بين علماء الأمة وما يمكن قوله بداءة أن مسألة اختيار وتعيين ولي الأمر تترك لأمرين :

[1] . سورة الحجرات : ١٣ .

الأمر الأول : أن مسألة التعيين والاختيار تُترك لظروف كل مجتمع مسلم ، ولطبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراده .

الأمر الثاني : أن الهدف أو القصد من عملية الاختيار أو التعيين هو الوصول إلى أنسب الأشخاص المؤهلين لشغل منصب الحاكم أو ولي الأمر ، ومن ثم فلا أهمية لطريقة وشكل الاختيار طالما أن الهدف محدد ومعروف .

وثمة أكثر من طريقة لاختيار الحاكم أو ولي الأمر أو الرئيس :

• البيعة :

البيعة هي العقد أو العهد على الولاء والطاعة ، ولقد وردت البيعة في القرآن الكريم للدلالة على العهد الذي أخذه المسلمون الأوائل على أنفسهم بالدخول في الإسلام والولاء والطاعة لله ولرسوله ، ولكن ذلك لا يرتبط بالبيعة التي هي أسلوب من أساليب اختيار ولي الأمر أو الرئيس .

قال تعالى " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرءان ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم "[١] .

وقال تعالى " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً "[٢] .

---

1. سورة التوبة : ١١١ .
2. سورة الفتح : ١٠ .

وقال تعالى " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً "[1] .

وقال تعالى " يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن إن الله غفور رحيم "[2] .

وبعد ذلك كانت البيعة لأبي بكر الصديق ليخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيادة المسلمين ، واعتاد المسلمون بعد ذلك مبايعة الخلفاء ومعاهدتهم على الولاء والطاعة .

ومنذ عهد الخليفة الراشد الأول أبي بكر الصديق كانت البيعة تتم على الوجه التالي :

بيعة الخاصة وكبار القوم حيث يقوم خاصة القوم وكبراؤهم بمبايعة ولي الأمر بشكل مباشر أو من خلال وفود وممثلين ، وقد بايع الصحابة أبا بكر في سقيفة بني ساعدة .

بيعة العامة حيث يجتمع عامة المسلمين في مكان عام لمبايعة ولي الأمر أو الحاكم ، وقد كانت بيعة العامة لأبي بكر الصديق في مسجد رسول الله .

ولا تزال البيعة بالشكل الذي تقدم هي الأسلوب الأمثل لاختيار ولي الأمر أو الحاكم أو الرئيس ، ويرى البعض أن البيعة كأسلوب لاختيار ولي الأمر أو الحاكم لم يعد يتلاءم مع الحياة المعاصرة ، حيث زاد عدد السكان وتعقدت أمور الحياة ، وهذا الأمر مردود عليه ،

---

1. سورة الفتح : ١٨ .
2. سورة الممتحنة : ١٢ .

فبيعة الخاصة وكذا بيعة العامة يمكن ألا تتم في وقت واحد بل تتم على مدى عدة أيام حتى تكتمل المسألة حسب أصولها .

الاقتراع أو الانتخاب :

تلجأ كثير من الدول في الوقت الراهن إلى أسلوب الاقتراع أو الانتخاب المباشر كوسيلة لاختيار الحاكم أو ولي الأمر ، وحسب هذه الطريقة يقوم كل مواطن بانتخاب الشخص الذي يقبل به رئيساً للدولة ، إذا كان هناك أكثر من شخص رشحوا أنفسهم لهذا المنصب ، أو يقترع بالموافقة أو عدم الموافقة إذا لم يكن هناك إلا شخص واحد مرشح لهذا المنصب .

وبالرغم من أن البيعة — كما سبق الإيضاح — تعد الأسلوب الأمثل في اختيار الحاكم أو ولي الأمر في زمن صدر الإسلام ، إلا أن أصول الشريعة الإسلامية لم تحدد البيعة طريقة لاختيار الحاكم أو ولي الأمر ، ولم تقطع بأية طريقة أخرى ، بل تركت هذا الأمر ضمن مسئولية المجتمع ، فللمجتمع المسلم تخير الوسيلة التي تمكنه من اختيار أولياء أموره .

أما الحديث عن البيعة كطريقة لاختيار الحاكم أو ولي الأمر فقد تم استنباطها من الممارسات السياسية التي تمت في عهد الخلافة الراشدة ، وبعض فترات الدولة الإسلامية في العهدين الأموي والعباسي .

رابعاً : الحاكم أو ولي الأمر وظاهرة السلطة :

السلطة مفهوم بغيض يقترن بالبطش والقهر ، لأنها في حقيقتها تعني أن من يملكها يكون هو الأعلى وما سواه هو الأدنى ، ومن ثم كان معنى التسلط استعمال السلطة في القهر والبطش والجبر ، والسؤال المطروح هو : هل عرف الإسلام أو بعبارة أكثر دقة الحكم في

الإسلام ظاهرة السلطة ؟ وهل الحاكم أو ولي الأمر هو مالك السلطة ؟ الإجابة على هذا السؤال تستوجب تناول مجموعة من النقاط والعناصر نرصدها في الآتي :

من يحكم في الإسلام ؟ :

مما تقدم يمكن القول بأن الحاكم أو ولي الأمر هو المسلم الذي يقيم شرع الله كما أراده الله ، وهو يحمل صفات وخصال سبق إيضاحها ، وليس بالضرورة أن يكون عالماً بالشريعة بل يكفي أن يكون تقياً ورعاً غيوراً على دين الله ، يعمل على إقامة شرع الله والدعوة إليه .

من يمنح الحاكم أو ولي الأمر مسئولية الحكم وولاية الأمر ؟ :

الجماعة المسلمة أو المجتمع المسلم في عمومه وشموليته هو الذي يمنح الحاكم أو ولي الأمر مسئولية الحكم أو ولاية الأمر ، فذلك المجتمع هو الذي ائتمن ولي الأمر على حياته ومصيره ومصالحه ، وولي الأمر من جانبه قد قبل هذه الأمانة وتحمل المسئولية ، فعليه أن يؤدي الأولى ويحسن حمل الثانية ويسعى لها سعيها .

الإسلام لم يعرف ظاهرة السلطة ولكنه عرف قيماً ومعانٍ أخرى :

عرف الإسلام فيما يتعلق بأمور الحكم قيماً ومثُلاً سامية ، فقد عرف الإسلام الصلاحية وهي الشروط الواجب توافرها في شخص معين للقيام بعمل معين ، وعرف كذلك الكفاءة وهي إنجاز العمل المنوط بالشخص كما يجب أن يكون ، وعرف أيضاً المسئولية وهي العزم على حمل الأمانة وأدائها ، ومن هنا فالشخص الذي تتوافر فيه شروط القيام بعمل ما ويتحمل مسئولية القيام بذلك العمل ينبغي أن يؤديه على أكمل وجه ، إذن فقد خبُر الإسلام واجب الوظيفة وعبء المسئولية .

والحاكم أو ولي الأمر في الإسلام الذي 'ختارته الجماعة أو المجتمع ليقيم شرع الله كما أراد الله ، يدير شئون الجماعة ويسوسها من خلال مستشاريه ومعاونيه كل في ما يخصه دون تحديد سلطة دينية أو سلطة مدنية ، فالمفتي أو القاضي أو شيخ الإسلام والهيئات التي تتبعهم ليس لها سلطان ديني على الناس إلا التوجيه والإرشاد ، وكذلك المسئول عن الصناعة أو الزراعة أو الصحة .

إن أولياء الأمور أو المسئولين في الإسلام يفكرون في كيفية القيام بدورهم وأداء مهامهم على أكمل وجه قبل أن يفكروا فيما لديهم من إمكانيات الأمر والنهي ، ومن ثم فالإسلام لم يعرف لا سلطة دينية ولا سلطة مدنية وبالتالي لم يعرف الفصل بينهما .

السلطة ظاهرة دخيلة على الإسلام :

إن ما تقدم هو فطرة الإسلام وطبيعته البسيطة السمحة قبل أن تدخل عليه المفاهيم الدخيلة والأفكار الغربية ، والسلطة هي إحدى الظواهر التي دخلت على الفكر السياسي الإسلامي من الفكر الإغريقي ، وقد أثارت هذه الظاهرة في الفكر السياسي الإسلامي الكثير من الجدل والإرسابات التي انعكست بالتالي على أصول السياسة والحكم في الإسلام فشوهت بعض تلك الأصول وأساءت إلى بعضها الآخر ، وسارت بالفكر السياسي الإسلامي إلى منحدر خطير لم يخرج منه ذلك الفكر حتى الآن ، وهي الفصل بين الدين والسياسة أو الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدينة !! .

خامساً : طاعة ولي الأمر :

لقد أوجبت الشريعة الإسلامية طاعة ولي الأمر وتقديره واحترامه وحفظ مكانته وذلك تقديراً لمسئوليته واحتراماً للأمانة التي يحملها ، ونفصّل ذلك في الآتي :

* مصادر طاعة ولي الأمر :

تستمد طاعة ولي الأمر عناصر وجودها ووجوبها من مصادر ثلاث تتمثل في الآتي :

ـ مصدري الشريعة الإسلامية :

القرآن الكريم :

أوجب الحق تبارك وتعالى على كل مسلم طاعة ولي الأمر ، قال تعالى " يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر ذلك خير وأحسن تأويلاً "[1] .

وقال تعالى " وإذا جآءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلاً "[2] .

السنة النبوية :

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلاّ أن يؤمر بمعصية ، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " .

[1] . سورة النساء : ٥٩ .
[2] . سورة النساء : ٨٣ .

وعنه قال :" كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا : فيما استطعتم " .

وعنه قال :" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية " .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشي ، كأن رأسه زبيبة " .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك " .

وعن أبي هنيدة وائل بن حجر رضي الله عنه قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه ، ثم سأله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم " .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها ستكون بعدي أثرة ، وأمور تنكرونها ، قالوا يا رسول الله : كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم " .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصي الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني " .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج عن السلطان شبراً مات ميتة جاهلية " .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أهان السلطان أهانه الله " .

تؤكد الآيتان الكريمتان والأحاديث الشريفة على وجوب طاعة ولي الأمر أو الحاكم واحترامه وتقديره وإجلاله ومعاونته في تحقيق صالح الجماعة من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي ذلك حفظ لكيان الأمة وسبب لتماسكها وقوتها ، فانعقاد اللواء للحاكم أو ولي الأمر والتفاف الجميع حوله يظهر الدولة الإسلامية في شكل قوي ويكسبها العزة والمنعة .

ـ حرمة وقداسة البيعة :

البيعة ليست إلا عهداً وميثاقاً على الولاء والطاعة للحاكم أو ولي الأمر على أن يقيم شرع الله ويدعو إلى دين الله ، ومن ثم فقد اكتسبت البيعة من طبيعتها ومن ذاتها حرمة وقداسة أوجبت احترامها بطاعة ولي الأمر واحترامه وتقديره .

فطاعة ولي الأمر أو الحاكم تعني احترام عهد وميثاق البيعة ، وقد حث الحق تبارك وتعالى وأوجب الوفاء بالعهد ، قال تعالى " الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون " .[1]

وقال تعالى " ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من ءامن بالله واليوم الأخر والملآئكة والكتاب والنبيين وءاتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن

[1] سورة البقرة : ٢٧ .

السبيل والسآئلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وءاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأسآء والضرآء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون " .[1]

وقال تعالى " بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين * إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الأخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم " .[2]

وقال تعالى " يا أيها الذين ءامنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد " .[3]

قال تعالى " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذالكم وصاكم به لعلكم تذكّرون " .[4]

وقال تعالى " الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق "[٥] .

وقال تعالى " وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون "[٦] .

وقال تعالى " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً "[٧] .

---

[1]. سورة البقرة : ١٧٧ .
[2]. سورة آل عمران : ٧٦-٧٧ .
[3]. سورة المائدة : ١ .
[4]. سورة الأنعام : ١٥٢ .
[5]. سورة الرعد : ٢٠ .
[6]. سورة النحل : ٩١ .
[7]. سورة الإسراء : ٣٤ .

وقال تعالى " والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون "[1] .

كما أن الخروج على البيعة وشق عصا الطاعة يعني الإفساد في الأرض وإثارة الفتنة وتفتيت وحدة الجماعة ، قال تعالى " والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون مآ أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار "[2] .

ـ الطاعة قرينة الاستقرار :

المصدر الثالث من مصادر وجوب طاعة ولي الأمر أو الحاكم يتعلق بما تؤدي إليه الطاعة من استقرار الأوضاع داخل الدولة الإسلامية وسيادة الوئام والأمن ، وانصراف جهد ولي الأمر وكافة العناصر المساندة له وكذا كل أفراد المجتمع إلى تحقيق أهداف الدولة .

* شرط طاعة ولي الأمر أو الحاكم :

قدمنا ما يؤكد على وجوب طاعة ولي الأمر أو الحاكم ولكن ما هو شرط قبول الطاعة ؟ لقد حددت الشريعة كما حددت الممارسات السياسية في عهد الخلافة الراشدة أن للطاعة شرطاً وهو أن يكون الحاكم أو ولي الأمر مطيعاً لله قائماً على شرعه آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر ، فلا طاعة إلاَّ في معروف ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وعن أنس رضي الله عنه قال : لما بُويع أبو بكر رضي الله عنه في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر ... ثم قال : أما بعد أيها الناس فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت أعينوني وإن أسأت فقوّموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف منكم

---

[1] . سورة المؤمنون : ٨ .
[2] . سورة الرعد : ٢٥ .

قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذل ، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلاّ عمَّهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

أما إذا بدر من الحاكم أو ولي الأمر ما استيقن أبناء الأمة أنه خروج على شرع الله ، أو أمر بمنكر ونهى عن معروف ، فهذا شأن آخر يُعالج بطرق ووسائل حكيمة ورشيدة تتفق مع حكمة ورشاد الإسلام ، وسوف يتم تناول ذلك في موضعه .

سادساً : علاقة الحاكم أو ولي الأمر بشعبه :

علاقة الحاكم أو ولي الأمر بأفراد شعبه لها أهمية في استقرار الأمور وانتشار الأمن وسيادة الألفة والترابط داخل المجتمع ، وقد وضع الإسلام من القواعد ما يقوّم هذه العلاقة ويصلحها ، ويمكن إيضاح ذلك في الآتي :

* مهام الحاكم أو ولي الأمر :

تتحدد مهام الحاكم إجمالاً في تحقيق أهداف الدولة – التي سبق إيضاحها في جزئية مستقلة – ويمكن تفصيل تلك المهام في المفردات والجزئيات التالية :

تفقد أحوال الشعب والوقوف على تلك الأحوال بشكل مباشر والتحري عن دقة التقارير المرفوعة بهذا الشأن من أصحاب الاختصاص .

العدل بين الناس في إقامة شرع الله والفصل في الخصومات والمظالم ، وتوزيع الثروة والمناصب والفرص والمكاسب وكل ما له قيمة .

المساواة بين أفراد الشعب ، فلا فضل لشخص على آخر إلاّ بالتقوى ، ولا تمايز إلاّ بالعطاء والتفاني والإخلاص ، حتى يرتفع شأن المجتمع وترقى مكانته ، كذلك فالجميع أمام الفرص والمناصب سواء ، ولا تفاضل إلاّ بمبدأي الصلاحية والكفاءة .

العمل على نشر المحبة والإخاء بين أفراد المجتمع ، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وبذلك يقوى المجتمع ويشتد عوده ، ويكتسب القوة والمنعة التي تمكنه من التصدي للضغوط والمؤثرات .

* كيف يعامل الحاكم أو ولي الأمر أفراد شعبه ؟ :

شدد الإسلام على علاقة الحاكم بشعبه ومواطنيه ، فهي أساس المجتمع القويم والأمة السامية ، ومن ثم حض الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم على الإحسان إلى الرعية وإلانة الجانب لهم ورعاية مصالحهم والحرص عليهم ، قال تعالى " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين " .[1]

وقال تعالى " لا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين "[٢] .

---

[1]. سورة آل عمران : ١٥٩ .
[2]. سورة الحجر : ٨٨ .

وقال تعالى :" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتآئ ذي القربى وينهى عن الفحشآء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون "[1] .

وقال تعالى " واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين "[2] .

وعن بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته وكلكم راع ومسئول عن رعيته " .

وعن أبي يعلى معقل بن يسار رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلاَّ حرم الله عليه الجنة " .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا : " اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به " .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وأنه لا نبي بعدي ، وسيكون بعدي خلفاء فيكثرون ، قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال :" أوفوا بيعة الأول فالأول ثم أعطوهم حقهم واسألوا الله الذي لكم فإن الله سائلهم عما استرعاهم " .

---

1. سورة النحل : ٩٠ .
2. سورة الشعراء : ٢١٥ .

وعن أبي مريم الأزدي رضي الله عنه أنه قال لمعاوية رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة ، فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس " .

وكان عمر رضي الله عنه إذا قدم عليه الوفد سألهم عن أميرهم : أيعود المريض ؟ أيجيب العبد ؟ كيف صنيعه من يقوم على بابه ؟ فإن قالوا الخصلة منها وإلاَّ عزله[1] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا بعث عماله شرط عليهم أن لا تركبوا برذوناً[2]، ولا تأكلوا نقياً[3]، ولا تلبسوا رقيقاً ، ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس ، فإن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلَّت بكم العقوبة ثم يشيعهم ، فإذا أراد أن يرجع قال : إني لم أصلتكم على دماء المسلمين ولا على أبشارهم ولا على أعراضهم ولا على أموالهم ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسّموا فيهم فيئهم وتحكموا بينهم بالعدل ، فإذا أشكل عليكم شيئاً فارفعوه إليَّ ، ألا ! فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ولا تعتلوا عليها فتحرموها ، جردوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم ، وكان يقصى من عماله ، وإذا شكي إليه عامل له ، جمع بينه وبين من شكي ، فإن صحَّ عليه أمر يجب أخذه به أخذه به[4] .

وأرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر الجمحي فقال : إنا مستعملوك على هؤلاء تسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم ، فقال يا عمر لا تفتني فقال عمر : والله

---

[1] . الكاندهلوي ، حياة الصحابة .. ، مرجع سابق ، الجزء الثاني ، ص ص ٦٩ ـ ٧٠ .
[2] . البرذون هو التركي من الخيل .
[3] . النقي هو الخبز الحواري ، أي الأبيض .
[4] . الكاندهلوي ، المرجع السابق ، ص ٧٠ .

لا أدعكم ، جعلتموها في عنقي ثم تخليتم عني ، إنما أبعثك على قوم لست أفضلهم ولست أبعثك لتضرب أبشارهم ولتنتهك أعراضهم ولكن تجاهد بهم عدوهم وتقسم بينهم فيئهم[١] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعثني أعلمكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، وأنظف طرقكم[٢] .

سابعاً : الاستخلاف (تعيين الرديف) أصوله الإسلامية ونتائجه المعاصرة :

الاستخلاف أو تعيين الرديف[3] ، يعني أن يقوم الحاكم أو ولي الأمر أو الرئيس بتحديد وتعيين من يخلفه ، وهذا الأمر شائع ومعروف منذ القدم ، ولكنه يتمتع بخصوصية في عهد الخلافة الراشدة ، ثم أخذ شكلاً محدداً في التاريخ الإسلامي بعد ذلك ، ويمكن لنا متابعة ذلك من خلال الآتي :

* الاستخلاف (تعيين الرديف) في عهد الخلافة الراشدة :

استخلاف أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب : عندما أحسَّ أبو بكر الصديق بدنو أجله وهو في مرض الموت جمع إليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبرهم أنه استخلف عليهم عمر بن الخطاب وذلك لعلمه أن في ذلك صلاح المسلمين وخوفاً من الفتنة .

استخلاف عمر بن الخطاب لعثمان بن عفان : لما طعن أبو لؤلؤة المجوسي عمر بن الخطاب واستشعر أن فيها نهايته ، جمع إليه كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم : عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن

---

1 . المرجع السابق ، ص ٧١ .
2 . المرجع السابق ، نفس الصفحة .
3 . الرديف بلسان العرب الذي بعد الرجل والعرب تقول ذلك للرجل الذي يرجونه بعد رئيسهم .

عوف وسعد بن أبي وقاص ، ليستخلف منهم واحداً فاستخلف منهم عثمان بن عفان ، وقد كان عثمان يدعى في إمارة عمر بن الخطاب رديفاً .

من هنا كان أصل الاستخلاف ومنشأه في الإسلام ، ويلاحظ أن الاستخلاف كما تم في عهد الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر قد حدث وهما يحتضران أي في آخر حياتهما ، وما حدث بعد ذلك فيما يتعلق بهذه الظاهرة كان مختلفاً ، ليس في أصل وأساس الظاهرة ولكن في بعض جوانبها .

* الاستخلاف (تعيين الرديف) في التاريخ الإسلامي :

انتهت حياة كل من الخليفتين الراشدين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب نهاية مأساوية مؤثرة في التاريخ الإسلامي ، فلم يستخلف أي منهما الخليفة الذي يعقبه ، ولكن منذ بداية العصر الأموي الذي استهلّه معاوية بن أبي سفيان وعلى مدى العصرين العباسيين الأول والثاني برزت ظاهرة الاستخلاف بشكل جلي ومميز ، حيث كان الخليفة منذ أن يبايع له ويبدأ فترة حكمه يختار ويحدد من يخلفه فيتخذه ولياً للعهد أو نائباً للخليفة ، وظل ذلك هو حال الخلافة الإسلامية حتى انهيارها وزوالها بانهيار الخلافة العثمانية .

* نتائج الاستخلاف (تعيين الرديف) المعاصرة :

المشاهد أن النظم السياسية في كافة أنحاء العالم تحذوا حذو الإسلام في مسألة الاستخلاف أو تعيين الرديف ، فكل رئيس لدولة يعين نائباً له ، قد يخلفه وقد لا يخلفه ، ولكنه يعاونه ويكتسب من معاونته الخبرة والدراية إلى أن يصبح الأكثر تأهيلاً لشغل منصب الرئيس ، ولمسألة الاستخلاف نتيجتان تتواءمان مع متغيرات الواقع المعاصرة :

النتيجة الأولى : إن الاستخلاف أو تعيين نائب الحاكم أو الرئيس يحدد الرجل الثاني في الدولة بعد الرئيس ، ويؤكد كذلك على أنه الأقدر والأجدر دون سواه لتحمل أعباء الحكم في حالة خلو منصب الرئاسة ، والقدرة والجدارة ليست حكماً تعسفياً صدر لصالح النائب أو الرجل الثاني انقياداً وراء اختيار الحاكم أو الرئيس ، ولكن النظرة الأعمق توضح أن الحاكم أو ولي الأمر أو الرئيس لم يقدم على اختيار شخص لهذا المنصب يقل عنه خبرة ودراية ، أو يتدنى عنه في صفاته وخصاله ، فهو معاونه ومشاركه الأول والأساسي في صناعة واتخاذ القرار وفي تنفيذه بعد ذلك ، وبالتالي فلابد أن يكون كفئاً وفاعلاً بحق ، حتى يضمن الرئيس لقراره التمكين ولهدفه الإصابة ولسياسته الرشاد والكياسة ، في هذه الحالة يكون الحاكم أو الرئيس قد جنّب البلاد والعباد شر فتنة قد تعصف بالمجتمع من بعده ، فالنائب يحل محل الحاكم أو الرئيس مباشرة أو بشكل مؤقت لحين تدبر الأمر وتعيين حاكم جديد ولكنه يظل الأنسب والأجدر دائماً .

النتيجة الثانية : إن الاستخلاف أو تعيين الحاكم المحتمل ومشاركته في عملية صناعة واتخاذ القرار ووضع السياسات الخاصة بتنفيذ ذلك القرار تكسبه خبرة ودراية وحنكة سياسية ، وتصقل مقدّراته وإمكاناته وتجعله أكثر أبناء الأمة بعد الحاكم قدرة واستعداداً على القيام بمهام الرجل الأول حال خلو ذلك المنصب ، وتعرف هذه العملية في النظرية والممارسة السياسية بالتجنيد السياسي ، فعملية تعيين نائب للحاكم وإشراكه في أمور السياسة والحكم هي في ذات الوقت عملية إعداد له وتأهيل مسبق لشغل منصب الرجل الأول حال خلوه .

ثامناً : كيف يؤدي الحاكم أو ولي الأمر مهامه ؟ :

كيف يؤدي الحاكم أو ولي الأمر مهامه ؟ ليس القصد من هذا السؤال معرفة مجريات وفعاليات الحياة اليومية للحاكم أو الرئيس ، ولكن الهدف من السؤال الوقوف على مجموعة الأفعال والممارسات والتفاعلات والعلاقات السياسية التي تتم حالماً يقوم الحاكم بتأدية مهامه المتمثلة في تحقيق أهداف دولته ، وترتكز مهام الحاكم أو الرئيس على محورين رئيسيين تناولاهما كفيل بإيضاح كيفية أداء تلك المهام ، وذلك من خلال الآتي :

* تقرير السياسات الخاصة بتحقيق أهداف الدولة :

على هذا المحور يعتمد الحاكم على مجلس الشورى اعتماداً أساسياً حيث يتم التعاون بينهما من أجل صياغة وتقرير السياسات والوسائل التي تضع أهداف الدولة على أرض الواقع ، وهذه العملية تتم عبر آليات عديدة وتفاعلات وعلاقات شتى منها :

- تقرير السياسات الخاصة بتحقيق كل هدف من أهداف الدولة ، وقد يستوجب ذلك الرجوع إلى ذوي الشأن والاختصاص في القطاع الذي يرتبط بذلك الهدف .

- قد يقوم الحاكم متعاوناً في ذلك مع مجلس الشورى بدور المشرع فيما يتعلق بالفروع أو فيما لم يرد فيه نص من المستجدات والمتغيرات .

* تنفيذ السياسات مع الحكومة والجهاز الإداري ومتابعتها :

أما بالنسبة إلى هذا المحور فهو المحور التنفيذي ، حيث يتولى الحاكم إحالة السياسات والاستراتيجيات إلى الحكومة والجهاز الإداري اللذين يقومان بتنفيذ تلك السياسات ووضعها موضع التطبيق .

يتابع الحاكم عمليات التنفيذ التي تقوم بها الحكومة والجهاز الإداري للسياسات الخاصة بتحقيق أهداف الدولة ويتلقى كذلك التقارير النهائية بإتمام عمليات التنفيذ .

وأخيراً تأتي عملية انتظار نتائج تنفيذ سياسات الحكومة التي تصل إلى الحاكم أو الرئيس من مصادر شتى مثل مجلس الشورى والحكومة نفسها .

المبحث الثاني

إشكال كيفية الوصول إلى ممارسة السياسة والحكم من موقع المسئولية العامة (تداول السلطة)

كثر الجدل في الأيام الأخيرة حول مسألة مهمة وحيوية بل وخطيرة من مسائل السياسة والحكم ألا وهي مسألة كيفية الوصول إلى ممارسة السياسة والحكم من موقع المسئولية العامة أي تولي أمر المسلمين ، وما إذا كان هذا الموقع مقصوراً على فرد بعينه أو جماعة بذاتها أو تنظيم معين ، ويتصل هذا الإشكال بوجهة نظر الإسلام في مسألة السياسة والحكم اتصالاً مباشراً ، لأن البعض قال بولاية الفقيه ، والبعض الآخر قال بولاية جماعة إسلامية دون غيرها ، والبعض الأخير قال بولاية تنظيم إسلامي دون سواه .

فما هي حقيقة السياسة والحكم في الإسلام ، وما هو جوهر كل من هذين المفهومين وكيف يمكن للمسلم أن يمارس السياسة والحكم من موقع المسئولية العامة ، وكيف له أن يمارس السياسة والحكم من موقع المسئولية النوعية ، وما هو المقصود في الإسلام بالمسئولية العامة ، وما هو المقصود بالمسئولية النوعية .

إن مسألة السياسة والحكم في الإسلام تحتاج إلى إيضاح وتفصيل دقيقين ، وذلك لتعديل ظن خاطئ عند المسلمين وغير المسلمين كذلك ، وهذا الظن استتبع معضلات كثيرة ، وشوه الصورة الصافية النقية لمسألة السياسة والحكم كما جاءت في المرجعيات الإسلامية ، وكان ذلك وراء أن يخشى الناس مسلمون وغير مسلمين حكم الإسلام وسياسته لشئونهم .

فمن ذا الذي يستطيع أن يمارس السياسة والحكم في الإسلام من موقع المسئولية العامة ! أي من ذا الذي يمكن أن يتولى أمر المسلمين ، إن لكل مسلم عاقل رشيد سوي يرغب فيه

الناس ويقبلون به ويملك الرغبة والإرادة في الحكم بما أنزل الله الحق في أن يمارس السياسة والحكم من موقع المسئولية العامة ، والمسلمون جميعاً في ذلك سواء .

إن من يمارس السياسة والحكم من موقع المسئولية العامة يُختار لهذه المهمة من بين أفراد المجتمع المسلم ليؤديها وفق منهج محدد وواضح هو العمل وفق شرع الله في كل أمر من الأمور ، وعليه أن يلتزم بذلك ، وهذا هو الذي يبايعه المسلمون على أساسه وليس لولي الأمر أن يحيد عن هذا المنهج وإلا فسد عقد البيعة ، فالمنهج إذن هو أهم ما في مسألة السياسة والحكم في الإسلام .

والمنهج في حقيقته ووفق حكمة الله صالح لأن يصلح شأن المسلم وغير المسلم ، ولذلك فسوف يرى كل منهما أن في ذلك المنهج ما يوافق مصالحه وما يرتب شؤونه ، فليس لغير المسلم أن يمتعض أو يخشى حكم الإسلام فهو في صالحه أكثر من أي نوع آخر من الحكم .

أولاً : السياسة والحكم في الإسلام .. قول في ضبط المدركات :

لعله من الأهمية بمكان الوقوف على مضامين ومدلولات مجموعة من المدركات ، نظراً لما لها من دور يعتد به ويعوّل عليه فيما يتعلق بتفصيل وشرح هذه الجزئية المهمة من نظرية السياسة والحكم في الإسلام ، وتقديم الدليل المنطقي التحليلي على كون الإسلام نظاماً اجتماعياً متكاملاً يحوي السياسة والاقتصاد والإدارة وغيرها بتفرد واقتدار .

* السياسة : مدرك له مدلوله ومضمونه الذي يتفق مع عموم استعماله الوظيفي في الأفكار الوضعية على اختلاف مشاربها ، ويختلف عنها من الوجهة الإسلامية في كونه لا ينظر إلى السياسة إلا من خلال نظرة أخلاقية قيمية بوصفها وسيلة شريفة أمينة لغاية نبيلة سامية ، فالسياسة وفق رؤية الإسلام تعني ترتيب أمور أفراد المجتمع وتنظيم شؤونهم في كياسة وحصافة وفهم يظللهما نسق من القيم والأخلاق حيث يصبو كل ذلك إلى عبادة الله وطاعته في مجتمع يتفق مع تلك الغاية شكلاً وموضوعاً .

* الحكم : كذلك يتميز الإسلام بنظرة خاصة إلى هذا المدرك تختلف في الكثير عن مضمونه في الأفكار الوضعية وحتى في الأفكار ذات الصبغة الإسلامية السطحية ، فالحكم في الإسلام من الناحية الموضوعية والمقصودة أصالة يعني الفصل بين الناس وحسم أمورهم بتصريفها وقضاء حوائجهم ، وهذا لا يعني أبداً التحكم فيهم والسيطرة عليهم وعلى أفكارهم وسلوكاتهم ومصائرهم .

* المسؤولية العامة : مدرك مهم ورد ضمناً في المرجعيات الإسلامية ، ويمكن استنباطه من بين مفاهيم متقاربة ، فالمسؤولية العامة تعني الاهتمام بعموم الأمور وكافة الأحوال اهتماماً مترتباً على توكيل عام من صاحب تلك الأمور والأحوال ، ومرتب عليه سؤال عن النتائج .

* الصلاحيات العامة : تصرفات وإجراءات يخول القيام بها بناء على تفويض من أصحاب الأمور والأحوال لإنفاذ المسؤولية العامة .

* المسؤولية النوعية : من جنس المسؤولية العامة ولكنها تختلف عنها في الدرجة والنطاق الموضوعي والمكاني والزمني ، وهي تذهب إلى الاهتمام بأمور وأحوال شتى محددة موضوعياً ومكانياً وزمانياً ، وهذا الاهتمام مرتب على تكليف من صاحب المسؤولية العامة ، أو من أصحاب الأمور والأحوال ، ومرتب عليه سؤال عن النتائج .

* الصلاحيات النوعية : من جنس الصلاحيات العامة ، ولكنها تختلف عنها في الدرجة والنطاق الموضوعي والمكاني والزمني ، فهي بمثابة تصرفات وإجراءات يخول القيام بها بناء على تفويض من صاحب المسؤولية العامة أو من أصحاب الأمور والأحوال النوعية .

إن المدركات التي أوردناها أعلاه تمثل مفردات وجهة نظر الإسلام في مسألة السياسة والحكم بشكلها المركز والمختصر والتي تتصل مباشرة وتمثل مدخلاً لتفصيل مسألة جزئية أخرى تختص بممارسة السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة والذي يعرف في الفكر الموضوع بتداول " السلطة " ، وترتيب هذه المفردات يبدأ بمسلّمة مفادها أن كل أفراد

الجماعة المسلمة أو المجتمع المسلم يمارسون السياسة والحكم من موقعين متفقين موضوعياً ومختلفين من حيث الدرجة والنطاق المكاني والزمني : أولهما هو ممارسة السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة ، وثانيهما هو ممارسة السياسة والحكم من موقع المسؤولية النوعية ، وتحقيق ذلك أن صاحب المسؤولية العامة أو ولي الأمر يقوم بهذه المسؤولية متكاتفاً ومتضامناً مع بقية أفراد المجتمع تحت مظلة عقد البيعة وقيمة الشورى وشكلها التنظيمي ، وهو في القيام بهذه المسؤولية يرتكن على صلاحيات عامة تمكنه من تحمل تلك المسؤولية وأدائها كما ينبغي لها أن تكون .

يتصل بما تقدم نوع آخر من المسؤولية والمسئولين ، هي المسؤولية النوعية في المواقع والمجالات والنشاطات المختلفة ، وصاحب هذه المسؤولية يمارس السياسة والحكم هو أيضاً فيما هو مسؤول عنه ، ويلي ذلك صاحب الأسرة فهو يمارس السياسة والحكم في أسرته ، وأخيراً يأتي الفرد وهو أيضاً يمارس السياسة والحكم من موقعين مختلفين ، الموقع الأول هو موقع المسؤولية العامة وما دون ذلك من مسؤولية نوعية ، والموقع الثاني هو سياسته لشؤونه وأموره الخاصة وحكمه لأفكاره وسلوكاته وتصرفاته الذاتية .

ثانياً : تصحيح ظن خاطئ :

بعد أن قدمنا وصفاً دقيقاً للمدركات التي تتعلق بالسياسة والحكم في الإسلام ، وبصفة خاصة ما ينصرف نحو ممارسة السياسة والحكم ، يصبح من الضروري والمجدي معاً تصحيح ظن خاطئ وقع فيه مسلمون وغير مسلمين ، ومفردات هذا الظن وتصحيحها نورده فيما يلي :

* إن الإسلام لا يقرض فرداً بعينه أو جماعة بذاتها أو تنظيماً بنفسه لكي يمارس السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة ، وقد راج لدى الكثير من المسلمين ونقله عنهم الآخرون أن الإسلام يحدد أفراداً أو جماعات أو تنظيمات ثم يختصها بممارسة السياسة والحكم من

موقع المسؤولية العامة ، فهناك من تحدث عن ولاية الفقيه ، وجعلها ضرورة حتمية في المجتمع المسلم ، وهناك من تحدث عن جماعات بذاتها ينبغي أن تتولى ممارسة السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة ، وهناك من تحدث عن تنظيمات بعينها جديرة بأن تمارس السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة .

إن تلك الدعاوى والأقاويل هي ظن محض : فما قدمناه من دراسة وتحليل وتقص وتمحيص واستدلال وإسناد لمسائل السياسة والحكم في الإسلام لم تشر من قريب أو من بعيد إلى هذه الدعوة " الكهنوتية " التي خرجت بأصول وقواعد السياسة والحكم في الإسلام عن مرجعياتها الأصيلة ومنطلقاتها الصافية إلى طريق آخر شوه صورتها وأساء إليها ، وأدخل على الإسلام ما ليس فيه ، وفي ذلك ظلم عظيم .

* لجميع المسلمين الحق في ممارسة السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة ، هذا الحكم مترتب مباشرة ومرتبط عضوياً بالمسلّمة التي سبقته ، فحق المسلم ثابت شرعاً في أن يمارس السياسة والحكم : إبتداءاً من سياسة أموره وحكم تصرفاته ، ثم بسياسة أسرته وتصريف شؤونها ، ثم بتولي أمر من أمور المسلمين وقضاء حوائجهم وانتهاءً بممارسة السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة ، وموقع المسؤولية العامة توليه الأفكار الموضوعة أهمية خاصة ، وتلح في جعله هدفاً لكل فرد وجماعة وتنظيم لما فيه من سلطة وميزة تعود على الفرد والجماعة والتنظيم ، والإسلام هو الآخر جعل لهذا الموقع أهميته القصوى لا لكونه تشريفاً ولكن لكونه عبئاً ثقيلاً ومهمة خطيرة ينوء بها من لا يستعد لها ، والإسلام كفل لكل أبنائه في أي مجتمع من المجتمعات أن يصبوا إلى موقع المسؤولية العامة وأن يقدموا أنفسهم لشغل هذا الموقع بعد أن يأنسوا فيها كافة القيم والفضائل والهمم العالية والإرادة القوية والرغبة الصادقة للقيام بهذا الأمر على أكمل وجه .

وتساوي المسلمين في هذا الحق يرجع إلى كونهم أفراداً في مجتمع مسلم يظلهم نسق واحد من القيم والفضائل ، ويطمحون في تحقيق منظومة واحدة من الأهداف ، وينطلقون من مرجعيات شرعية واحدة ، ومن ثم كان تفكيرهم وفكرهم وثقافتهم واحدة ، وكل ذلك يمثل إطاراً عاماً من التفاهم المشترك والاتفاق النهائي الذي لا يمكن ولا ينبغي الخروج عليه ، لأن بداخله مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ورفعة الدين وإرضاء الله وطاعته .

* الاختلاف في إطار الاتفاق العام مسموح به ومطلوب ، فالمجتمع المسلم كتلة واحدة متماسكة متضامنة ، يضمن تكتلها التوحيد ، ويكفل تماسكها الإسلام ، ويحفظ تضامنها الإيمان ، وفي داخل هذه الكتلة تفاعلات عديدة متداخلة ومتشعبة ومتشابكة ، وينتج عن هذه التفاعلات التي تمثل ديناميات المجتمع المسلم الكثير من الرؤى ووجهات النظر والطروحات التي تصب جميعها في مصلحة المجتمع المسلم .

وتعدد الرؤى ووجهات النظر والطروحات إن هي إلا اجتهادات تنطلق من منطلقات مرجعية واحدة ، وتستهدف مقاصد مشتركة ، ولكنها تختلف في الأداة أو الوسيلة أو الواسطة ، وهذه الاجتهادات تنأى عن تحقيق مآرب ذاتية لفرد أو جماعة أو تنظيم داخلي أو خارجي .

والاجتهاد بالوصف السابق مكفول لكل مسلم قادر عليه في أي مجال من مجالات الحياة ، ولذلك الاجتهاد شروطه ، وله كذلك منطلقاته ، وله أخيراً أهدافه ومقاصده فالاجتهاد إذن ليس حكراً على فرد دون آخر أو جماعة دون أخرى ، ولا يرتبط بمجال دون سواه ، فكل مسلم يمكنه أن يقدم جهداً فكرياً أو حركياً في أي منحى من مناحي الحياة .

إن الاختلاف بين الطروحات ووجهات النظر والاجتهادات داخل المجتمع المسلم إن هو إلا جهد من أجل الوصول إلى صيغة للتفاهم والتنسيق والتشاور تأخذ بالأفضل والأمثل ، وتضمن مصلحة المجتمع وتحفظ كيانه .

إذا كان اختلاف الطرح والرؤية والاجتهاد أمراً قائماً في المجتمع المسلم ، وهو رحمة لذلك المجتمع ، ويستهدف مصلحته وحفظ كيانه ، فهو لا ينبغي أن ينحرف ليتحول إلى شق عصا الطاعة والخروج على الجماعة ، فهنا يصبح الاختلاف نقمة وليس رحمة ، ويفسد المجتمع ويبدد وحدته ويهدر قيمه .

إن المجتمع المسلم مجتمع إنساني مشحون بالتفاعلات المتشابكة والرغبات المتعارضة والمقاصد المتضاربة ، إلا أن كل ذلك يتم تهذيبه وتشذيبه ليدور في حدود معينة لا يتجاوزها ، لأنه إذا تجاوزها تحول من الرحمة والفائدة إلى النقمة والمفسدة ، وخسر الفرد والمجتمع معاً ، فالمجتمع المسلم يحدد إطاراً عاماً يدور بداخله الاختلاف بين الطروحات والاجتهادات والآراء والرؤى ، ولا يخرج عنه لأن في خروجه خروجاً على الجماعة وشق عصا الطاعة ، وهذا يعني تدمير المجتمع والعبث بقيمه وإهدار مصالحه .

إن أي مسلم ينتسب إلى وجهة معينة ، أو يتبنى طرحاً بذاته ، أو يقدم اجتهاداً بعينه ، يمكنه أن يمارس السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة ، ويحقق مصالح المجتمع ، ويحرز أهدافه من خلال اجتهاداته ، لأنه ينطلق من المرجعيات الشرعية التي يقرها الجميع وينطلقون في العمل والحركة منها ، كما أنه يستهدف أهدافاً ومقاصد يرغب الجميع في الوصول إليها ، إلا أنه سوف يستخدم آلية أو وسيلة لها خصوصيتها وتميزها .

* إن المجتمع المسلم هو وحده الذي يملك اختيار وتفويض من يمارس السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة ، ويمنحه الصلاحيات التي تمكنه من أداء تبعات هذه المسؤولية من خلال عقد البيعة الذي يوقع بين الطرفين ، ثم هو الذي يراقب ذلك المسئول العام

والمسئولين النوعيين ويقيم تصرفاتهم ونتائج تلك التصرفات ويحسب كم حققت من الأهداف والمقاصد المرسومة والمبتغاة ، ثم يتولى تقويم تلك التصرفات والأعمال ويصحح مسارها ويضبطها ويعيدها إلى جادة الصواب ، فالمجتمع إذن هو الفاعل الأساسي والمحرك الأول لديناميات المجتمع وممارسة السياسة والحكم فيه في كافة المواقع إبتداءاً من المسؤولية الذاتية وانتهاءً بالمسؤولية العامة مروراً بالمسؤوليات النوعية . وهذا ينفي وجود أية اعتبارات أو موجبات تفرض على المجتمع فرداً بذاته أو جماعة بعينها .

إن معنى ما تقدم أن المجتمع الذي اختار صاحب المسؤولية العامة ، وأبرم معه عهد البيعة ، وراقبه وقيم أعماله وقومها ، في استطاعته هو ذاته أن يسحب ذلك الاختيار أو التزكية ، ويفسخ عقد البيعة ، إذا ثبت أن المسئول العام قد أخل بشروط ذلك العقد ، وقيام المجتمع المسلم بهذه التصرفات والأفعال السلبية في حق المسئول العام لا تأتي بشكل مفاجئ أو عنيف ، بل تأتي بعد التثبت من انحراف المسئول العام عن المنهج المتفق عليه ، ثم تتم عبر النصيحة المتكررة المثابرة ، وإذا لم يتحقق المقصود من النصيحة ويرتدع المسئول العام ويرتجع عن الخروج إلى المتفق عليه ، فإن التصرف التلقائي الذي على المجتمع أن يقوم به هو ألا يعيد اختيار ذلك المسئول العام مرة أخرى ، ويتيح الفرصة لآخر لكي يتولى أمر المسؤولية العامة .

* ليس لأحد مهما كان أن يمكث في موقع المسؤولية العامة لمارسة السياسة والحكم إلا بموافقة المجتمع ، فلم تشر أية مرجعية شرعية إسلامية ، ولم تدلل أية ممارسة في عهد الخلافة الراشدة على أن ممارسة السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة غير محدد الزمن ، بل لابد أن يكون موقوتاً لأن في توقيته ما يتيح الفرصة للآخر لخدمة مجتمعه من نفس ذلك الموقع ، كما أنه يعطي المجتمع الفرصة لتجديد البيعة أو لاختيار جديد ، وفي الأول حق لكافة المسلمين لابد أن تتاح لهم فرصة استخدامه ، وفي الثاني حق أصيل

للمجتمع لابد أن يستخدم فيجدد الاختيار لنفس المسئول العام أو يختار مسئولاً عاماً جديداً .

ومعنى ما تقدم أن توريث ممارسة السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة ، أو نقل هذه المسؤولية بشكل أو بآخر ، لا يقوم على مبدأ الاختيار المجتمعي ، أو الاستمرار في هذا الموقع باستخدام أساليب التزييف أو التدليس أو الكذب أو أية وسيلة أخرى ، هي تصرفات وسلوكات غير شرعية ، ولا تتفق مع أصول وقواعد السياسة والحكم في الإسلام التي تضمنتها وأقرتها وأكدت عليها المرجعيات الشرعية الإسلامية .

إن أصول وقواعد ممارسة السياسة والحكم في الإسلام تفرض مبدأ الدورية وتداول موقع المسؤولية العامة بين القادرين الأكفاء من المسلمين ، ولا يقتصر ذلك الموقع على أحد بعينه أو جماعة بذاتها أو تنظيم بنفسه .

ثالثاً : من يستطيع أن يمارس السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة :

إن ما تقدم من طروحات ونقاشات تدفع أمامنا بسؤال مهم عن الشروط الواجب توافرها في من يمارس السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة ، ولعل استقراء وتمحيص المرجعيات الإسلامية ، وكذا تحليل وتدقيق نموذج الممارسة في دولة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، يضع أيدينا على ثلاثة شروط هي : -

• الإسلام : فالإسلام إذن هو الشرط الأول ، إذ لا يُقبل شرعاً أن يتولى موقع المسؤولية العامة في مجتمع مسلم شخص غير مسلم ، كما لا يُقبل بالأنثى أن تتولى هذا الموقع كذلك ، ولعله الموقع الوحيد الذي يقتصر شغله على الذكور دون الإناث أما ما دون ذلك فهو سواء بين الذكر والأنثى .

والمسلم حسن إسلامه ، لا ينتمي إلى مذهب أو فرقة أو طائفة أو جماعة أو تنظيم أو جهة أو موجه من قوة خارجية ، ليس شرطاً أن يكون متفقهاً في الدين ، بل يكفي أن يكون ملماً بأصول العقيدة ومبادئ الإسلام ، يؤدي أركانه على أكمل وجه .

* الرغبة والإرادة في السياسة والحكم وفق ما انزل الله : الشرط الثاني أن تتوفر لدى المسلم الذي يتقدم لموقع المسؤولية العامة أن يكون لديه الرغبة والإرادة معاً في الحكم بين المسلمين وسياستهم وفق ما أنزل الله ، والرغبة تعني توفر النية الصادقة والقصد الحسن في الحكم بما أنزل الله ، ولا تكفي الرغبة بمفردها بل ينبغي أن يقترن بها الإرادة وهي القدرة على الحكم بما أنزل الله ، والإرادة والقدرة هما وسيلة تحقيق الرغبة ، ويتجسدان في الشخصية القوية والهمة العالية والعزم والمضاء على القيام بذلك دون تردد ، والمثابرة في سبيل ذلك ، وبذل الجهد دون كلل أو ملل .

* يرغب فيه أفراد المجتمع ويقبلون به : على المجتمع بكافة أفراده وفئاته أن يعرف عن المتقدم لموقع المسؤولية العامة أكبر قدر ممكن من المعلومات ، وإذا تعدد الأفراد المتقدمون لذلك الموقع ، فينبغي أن يتساووا في ما يخصص لكل منهم من إعلام وتعريف بهم ، وبما يتبنونه من طروحات ورؤى واجتهادات بكافة السبل والوسائل .

ثم على المجتمع بكل أفراده أن يمارس عملية الاختيار ، لأنها من صميم اختصاصات ذلك المجتمع ، فالاختيار قرار مصيري وخطير ودور المجتمع فيه أكثر خطورة وأهمية ، ولا ينبغي على المجتمع أن يقصّر في هذه المهمة ، لأنها بمثابة ممارسة للسياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة ، كما أن المجتمع ينبغي أن يكون بكل تكويناته وتشكيلاته الدينية ، فالأقليات غير المسلمة لابد أن تشترك مع المسلمين في القيام بهذه المهمة ، ولا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم .

إن المجتمع بالوصف المتقدم عندما يقرر اختيار أحد أفراده لمارسة السياسة والحكم من موقع المسؤولية العامة يكون قد أبرم عقد البيعة بينه وبين ذلك الفرد المختار ، وهو عقد دقيق وبسيط وموجز ، يتلخص في السياسة والحكم أي أداء هذه المهمة والنهوض بالمسؤولية بما أنزل الله في شرعه الحنيف ، وعليه يكون المجتمع هو الذي قام بالاختيار وهو الذي وقع عقد البيعة ، ثم يتولى بعد ذلك مراقبة قيام المسئول العام بمسؤوليته وفق العقد المبرم ، ثم يواصل مهمته في تقييم عمل المسئول الأول أو المسئول العام وتقويم تلك الأعمال .

لا تزال مهمة المجتمع متواصلة ، حيث توكل إليه مهمة تداول موقع المسؤولية العامة ، فبعد فترة من الزمن يحددها المجتمع ، يتجدد اختيار من يشغل موقع المسؤولية العامة من جديد ، فإما أن يجدد اختيار المسئول العام ، وإما أن يختار مسئولاً جديداً ، وهكذا يكون دور المجتمع حاسماً في ممارسة السياسة والحكم ومن موقع المسؤولية العامة أيضاً ، لأنه هو الذي يمنح المسلم موقع المسؤولية العامة ، ويبرم معه عقد البيعة ، ثم يراقبه ويقيم أعماله ويقومها كذلك ، ثم يداول ذلك الموقع بين من هم أهل له .

رابعاً : المنهج هو المهم :

إن المجتمع يظله منهج واضح المعالم دقيق المقومات مفصل المرتكزات يتلخص في العمل والسير وفق ما أنزل الله ، والمسلم في كل موقع للمسؤولية يحكّم هذا المنهج ويعمل وفق عناصره ، وكافة الرؤى والوجهات والاجتهادات تدور في إطار هذا المنهج ولا تتجاوزه ، فالمنهج يضبط فكر وسلوك المسئولين في كل المواقع ، وبالأخص فكر وسلوك من هو في موقع المسؤولية العامة ، فهو أحوج ما يكون إلى المنهج ، حيث يرده رداً جميلاً إليه ، إذا انجرف مع رؤية أو انحرف مع رأي أو انصرف إلى وجهة تنأى به عن مضمون عقد البيعة .

فالمنهج إذن هو المهم . لأنه الواجب التطبيق ، وإليه يحتكم أفراد المجتمع في أي موقع للمسؤولية كانوا . فلا خوف على المجتمع المسلم ذي المنهج الإسلامي من تعدد الآراء واختلاف الرؤى وتباين الوجهات ، لأن الجميع سوف يلتئم حول المنهج فهو العروة الوثقى ، وعليه ومن أجله أبرم الجميع عقد البيعة .

خامساً : المنهج يُصلح شأن المسلم وغير المسلم :

الحكمة البالغة والقدرة المطلقة للخالق سبحانه جعلت في منهجه صلاحاً للمسلم وغير المسلم ، فالمسلم يجد فيه ما يتفق مع ما يقر به قلبه وتسكن به روحه وتتحقق به مصالحه وتقضى حوائجه وتلبى غرائزه ، فيجمع لديه بين موجبات الروح ومتطلبات المادة ، وغير المسلم يجد فيه ما يحقق مصالحه ويقضي حوائجه ويلبي غرائزه : فيستجيب لمتطلباته المادية التي ينشدها ويسعى من أجلها .

ومعنى ما تقدم أن المجتمع المسلم مهما اشتمل على أقليات أو جماعات غير مسلمة فإنها ستلاقي وفق المنهج الإسلامي كل ما يكفل لها الأمن والسلام والاحترام ، فهي جزء من ذلك المجتمع ، ولها دورها فيه الذي لا يُنكر ، والمنهج يقدر لها ذلك ولا يهضمها حقها .

المبحث الثالث

قيمة الشورى وشكلها التنظيمي

لا تزال قيمة الشورى إحدى مميزات المنهاج الإسلامي أو النظام السياسي الإسلامي وهي قيمة حضارية بزغت وانتعشت في الوقت الذي عانى الآخرون من الذل والهوان ولم تلق هذه القيمة من أصحابها أية رعاية أو اهتمام ، بل فضلوا السعي وراء ما زُجَّ إليهم به من أفكار ونظريات مستوردة ، ولا تزال هذه القيمة كذلك في حاجة إلى أن توضع في نصابها الصحيح داخل إطار المنهاج الإسلامي أو النظام السياسي الإسلامي ونعمد إلى التوضيح من خلال الآتي :

أولاً : مصدر الشورى في الشريعة الإسلامية :

تجد قيمة الشورى مصدرها في القرآن والسنة ، وتستمد منهما في ذات الوقت وجودها وقوتها ونوضح ذلك من خلال الآتي :

* قيمة الشورى في القرآن الكريم :

قال تعالى " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين "[1] ، وتحمل هذه الآية الكريمة أمراً للرسول صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه في الأمور التي تعن له ما لم ينزل الوحي .

---

[1]. سورة آل عمران : ١٥٩ .

وقال تعالى " والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون "[1]، وهذه الآية الكريمة إشارة إلى المؤمنين بصفاتهم ، فالذين استجابوا لربهم بإتباع رسله وإطاعة أمره واجتناب زجره ، وأقاموا الصلاة التي هي أعظم العبادات أولئك هم المؤمنون الذين يتشاورون فيما بينهم ، ولا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه .

والآية الأولى تحمل الأمر الإلهي من الخالق عز وجل إلى رسوله الكريم بمشاورة المؤمنين في الأمور التي لا يقطع فيها الحق تبارك وتعالى بوحي منزّل ، وهذه الآية نزلت للتربية والتعليم والتهذيب ، فالرسول بين أصحابه وأعوانه يعلمهم قيمة الشورى ويربيهم على استعمالها والتعامل في أمورهم من خلالها ، فهذه الآية بمثابة نص دستوري وضعه الرسول الكريم موضع التطبيق ، ودلل عليه بالممارسات والوقائع والتجارب حتى يقدّر المسلمون هذه القيمة حق قدرها ويحفظون لها رقيها وسموها ، ثم يتمرسون على التعامل من خلالها ويخبرون أساليبها وأصولها ، وهكذا كانت عمليات التثقيف والتنشئة السياسية تتم داخل المدرسة المحمدية .

والآية الثانية بمثابة عهد وميثاق تتعهد بموجبه الجماعة الإسلامية بعد رسول الله وفي كل زمان ومكان على أن تظل محتفظة بقيمة الشورى التي وردت في الآية الثانية على أنها إحدى صفات المؤمنين اللصيقة بهويتهم والمقترنة بكيانهم .

فلقد عددت الآيات من السادسة والثلاثين إلى التاسعة والثلاثين من سورة الشورى صفات المؤمنين وحصرت تلك الصفات في الآتي :

– الذين على ربهم يتوكلون ، ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات .

[1]. سورة الشورى : ٣٨ .

- والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، بالابتعاد عن كبائر الذنوب والموبقات .

- والذين إذا ما غضبوا هم يغفرون ، فسجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس .

- والذين استجابوا لربهم ، بلزوم الطاعة وترك المعصية .

- والذين أقاموا الصلاة ، التي هي أعظم العبادات لله عز وجل .

- والذين أمرهم شورى بينهم ، صفاتهم التشاور في أمورهم والتداول في تصريف شئونهم .

- والذين مما رزقناهم ينفقون ، بالإحسان بالصدقات والزكاة .

- والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم .

وكذلك وردت الإشارة بشكل لطيف من الخالق سبحانه إلى قيمة الشورى وكيف تكون بين المؤمنين وهم بصدد قرار مصيري تتوقف عليه حياتهم المستقبلية دنيا وديناً حيث يقول سبحانه وتعالى في الآية العاشرة من سورة الكهف على لسان الفتية الذين آمنوا به وزادهم هدى ، عندما لجئوا إلى الكهف " إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً " وقد اجتمع الفتية في الكهف وأزمعوا اتخاذ القرار الخاص بمستقبل حياتهم ، فطلبوا من الخالق سبحانه أن ينزل عليهم من لدنه الرحمة وهي الهداية او الهدى إلى الصواب ، وأن يهيئ لهم من أمرهم ، وتهيئة الأمر هي الشورى ، أما الرَشَد فهو القرار الصائب الصحيح ، والرَشَد يختلف عن الرُشْد فالأخير يعني اتباع المنهج الإلهي .

يتضح مما تقدم أن الشورى التي وردت في الآية الثامنة والثلاثين من سورة الشورى هي صفة من صفات المؤمنين ، وقد جاءت هذه الصفة مرتبة في تلك الآية بعد إقامة الصلاة وقبل الزكاة والصدقات ، تلك كانت قيمة الشورى ، تارة للتعليم والخبرة والمعرفة من معلم الإنسانية ، وتارة أخرى صفة وسلوك ملازم للجماعة المسلمة في كل زمان ومكان والى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وتارة أخيرة لإيضاح وتبيين سلوك المؤمنين الصالحين وكيف يصنعون ويتخذون قراراتهم المصيرية مستخدمين قيمة الشورى مجسدة في واقع بديع يعقبه قرار صائب حصيف .

* قيمة الشورى في السنة المطهرة :

لما كان الحق تبارك وتعالى قد أمر رسوله الكريم بالأخذ بقيمة الشورى وتطبيقها وتعليمها لامته وتدريبهم عليها ، فقد بلّغ الرسول الكريم على أكمل وجه وأحسن صورة ، بالفعل والقول :

- بالفعل والممارسة :

○ شاور أصحابه يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا : يا رسول الله ، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول : إذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون ، وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم .

○ وشاور أصحابه يوم أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو ، فأشار جمهورهم أي أكثريتهم أو معظمهم بالخروج إليهم فخرج إليهم .

○ وشاور أصحابه يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ ، فأبيا ذلك عليه السعدان سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فترك ذلك .

○ وشاور أصحابه يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين ، فقال له الصديق : إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين ، فأجابه لما قال .

○ وشاور الرسول أصحابه في قصة الإفك " أشيروا علي معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورموهم ، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن ؟ والله ما علمت عليه إلا خيراً " .

○ واستشار الرسول الكريم علياً وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها .

– بالقول :

○ عن عليٍ بن أبي طالب قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزم ، فقال :" مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم " .

○ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المستشار مؤتمن " .

○ عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه " .

* قيمة الشورى في عهد الخلافة الراشدة :

وفي عهد الخلافة الراشدة ازدهرت قيمة الشورى ، وكانت أحد العناصر الأساسية في السياسة والحكم في تلك الفترة ، ويتضح ذلك مما يلي :

- قيمة الشورى في عهد أبي بكر الصديق :

كان أبو بكر الصديق إذا نزل به أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي وأهل الفقه دعا رجالاً من المهاجرين والأنصار ودعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وكل هؤلاء كان يفتي في خلافته ، وإنما يصير فتوى الناس إلى هؤلاء .[1]

جاء عُيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر الصديق فقالا له : يا خليفة رسول الله : إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة ، فإذا رأيت أن تقطعناها لعلنا نحرثها ونزرعها ، فأقطعها إياهما وكتب لهما عليه كتاباً ، وأشهد فيه عمر رضي الله عنه وليس في القوم ، فانطلقا إلى عمر ليشهداه ، فلما سمع عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما ثم تفل فيه محاه ، فتذمرا وقالا مقالة سيئة قال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل ، وأن الله قد أعز الإسلام ، فاذهبا فاجهدا جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما ، فأقبلا إلى أبي بكر وهما يتذمران فقالا : والله ما ندري أنت الخليفة أم عمر ؟ فقال بل هو ولو شاء كان ، فجاء عمر مغضباً حتى وقف على أبي بكر فقال : أخبرنا عن هذه الأرض التي اقتطعتها هذين الرجلين ، أرض هي لك خاصة أم هي بين المسلمين عامة ؟ قال : هي بين المسلمين عامة ، قال : فما حملك أن تخص هذين بها

[1]. الكاندهلوي ، حياة الصحابة ، مرجع سابق ، الجزء الثاني ، ص ٣٨ .

دون جماعة المسلمين ؟ قال : استشرت هؤلاء الذين حولي ، فأشاروا عليَّ بـذلك ، قـال : فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك أو كل المسلمين أوسعت مشورة ورضا ، فقال أبو بكر : قد كنت قلت لك : إنك أقوى على هذا مني ولكنك غلبتني .[1]

وخرج الأقرع والزبرقان إلى أبي بكر فقالا : أجعل لنا خراج البحرين ونضمن لك أن لا يرجع من قومنا أحد ، ففعل وكتب الكتاب ، وكان الذي يختلف بينهم طلحة بن عبد الله وأشهدوا شهوداً منهم عمر بن الخطاب ، فلما أتى عمر بالكتاب ونظر فيه لم يشهد ثم قـال : ولا كرامة ، ثم مزق الكتاب ومحاه ، فغضب طلحة وأتى أبا بكر فقال : أنت الأمير أم عمر ؟ فقال : عمر غير أن الطاعة لي ، فسكت .[2]

وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور في الحرب فعليك به .[3]

– قيمة الشورى في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان :

كان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان يدعوان بن عباس فيشير مع أهل بدر ويفتي في عهد عمر وعثمان إلى يوم مات ، فكان عمر يستشير بن عباس في الأمر إذا أهمه ويقول : غص غواص ! وقال سعد بن أبي وقاص عن بن عباس : ما رأيت أحداً أحضر فهماً ولا ألب لُباً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من بن عباس ، ولقد رأيت عمر بن الخطاب يدعوه للمعضلات

---

[1]. المرجع السابق ، ص ٣٩ .
[2]. المرجع السابق ، ص ٤٠ .
[3]. المرجع السابق ، نفس الصفحة .

، ثم يقول : قد جاءتك معضلة ، ثم لا يجاوز قوله ، فإن حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار .[1]

كذلك كان عمر إذا نزل الأمر المعضل ، دعا الفتيان فاستشارهم يقتفي حدة عقولهم حتى أن كان ليستشير المرأة فربما أبصر في قولها الشيء يستحسنه فيأخذ به .[2]

خرج عمر ذات يوم حتى نزل على ماء يدعى صراراً فعسكر به ، ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقيم ؟ وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف ، وكان عثمان يدعى في إمارة عمر رديفاً . وكانوا إذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلّثوا بالعباس رضي الله عنه ، فقال عثمان لعمر : ما بلغك ما الذي تريد ؟ فنادي الصلاة جامعة . فاجتمع الناس إليه فأخبرهم الخبر ثم نظر ما يقول الناس ، فقال العامة : سر وسر بنا معك . فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق فقال : استعدوا وأعدوا فإني سائر إلاّ أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك ، ثم بعث إلى أهل الرأي ، فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب فقال : أحضروني الرأي فإني سائر فاجتمعوا جميعاً وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ويقيم ويرميه بالجنود ، فإن كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريدون . وإلا أعاد رجلاً وندب جنداً آخر ، وفي ذلك ما يغيظ العدو ويرعى المسلمين ويجيء نصر الله بإيجاز موعود الله ، فنادي عمر الصلاة جامعة فاجتمع الناس إليه وأرسل إلى على وقد استخلفه على المدينة فأتاه ، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة فرجع إليه ، وعلى المجنبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف ، فقام في الناس فقال : إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله ، فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء

---

1. المرجع السابق ، ص ٤١ .
2. المرجع السابق ، نفس الصفحة .

من شيء أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ، ومن قال بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم ، يا أيها الناس أني كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلّفت .[1]

وجّه عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب إلى سعد بن أبي وقاص إلى القادسية وكان له هناك بلاء حسن ، كتب عمر إلى سعد قد وجهت إليك أو أمددتك بألفي رجل عمرو بن معد يكرب وطلحة بن خويلد وهو طلحة بن خويلد الأسدي فشاورهما في الحرب ولا تولهما شيئاً .[2]

لقد لوحظ على الشورى في عهد الخلافة الراشدة أنها قد أخذت صفة الدوام ، وشكل المجلس الاستشاري المكون من وجوه صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار .

ثانياً : الشورى قيمة تفرضها الشريعة :

ننتقل إلى الحديث عن مسألة من المسائل الحساسة المتعلقة بقيمة الشورى ، وهذه المسألة لا تتعلق بأصول ومصادر هذه القيمة ، فأصولها ومصادرها معلومة وقد أوضحناها تفصيلاً ، فتلك الأصول والمصادر مرتبطة بالقرآن والسنة ، أما تلك المسألة فهي تتعلق بالتزام الجماعة أو الدولة المسلمة بهذه القيمة ، هل هذا الالتزام مفروض وواجب بحكم الشريعة أم أنه أمر

---

1. المرجع السابق ، ص ص ٤٢-٤٣ .
2. المرجع السابق ، ص ٤٣ .

متروك لاختيار الدولة ، فيمكن لها أن تأخذ بهذه القيمة أو لا تأخذ ؟ يمكن إيضاح ذلك في الآتي :

* الله سبحانه وتعالى أمر الرسول بالشورى :

في الآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة آل عمران أمر الحق تبارك وتعالى رسوله الكريم بثلاثة أوامر متتالية ، وثلاثتها أفعال تخص المسلمين الذين آمنوا به وصدقوه ونصروه :

- الأمر الأول : أن يعفو عنهم ويتجاوز عما ناله من أذاهم .

- الأمر الثاني : أن يطلب لهم من الله المغفرة والعفو والصفح .

- الأمر الثالث : أن يشاورهم في الأمور التي تهمهم .

وهذه الأفعال الثلاثة التي أمر الله رسوله الكريم أن يقوم بها ليس من باب الندب تطييباً لقلوب أصحابه والمؤمنين ، ولكن من قبيل الأمر الواجب الذي سيترتب عليه ألفة وتأليف للقلوب ومغفرة من الله عز وجل وتنظيم لحياة الأمة .

* الرسول صلى الله عليه وسلم يربي الأمة على قيمة الشورى :

تلقى الرسول الكريم وهو المعلم الأول والمربي الفاضل الأمر من ربه وشرع في تربية أمته وتعليمها كيف تسوس شئونها وترتب أمورها ، دون استبداد برأي أو انفراد بقرار ، ولو لم يكن الرسول الكريم قد تلقى من ربه ذلك الأمر ، ولم يقدم له النموذج والقدوة ، لما كان قد وصلنا عن قيمة الشورى إلا النص القرآني ، وكنا سنظل نهبا للحيرة والضياع ونحن بصدد

تلمس سبل ووسائل وأساليب وضع تلك القيمة موضع التطبيق ، فالأمر الإلهي صدر للرسول الكريم لتعليم الأمة وتربيتها ، حتى تجد الأجيال التالية رصيداً وافراً من الممارسات التربوية والتعليمية فيما يتعلق بشئون السياسة والحكم .

* قيمة الشورى صفة من صفات الأمة الإسلامية :

إضافة إلى ما تقدم جاءت الشورى في الآية الثامنة والثلاثين من سورة الشورى كإحدى أهم صفات وخصائص الأمة الإسلامية مثل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والصفة دائماً تطبع السلوك ، وإذا كانت الأمة الإسلامية قد وصفها الله سبحانه وتعالى بأن أمرها شورى بين أبنائها فإن سلوكها ينبغي أن يكون قائماً على تلك الصفة .

لقد سجل القرآن الكريم للأمة الإسلامية صفة الشورى والسلوك القائم عليها ، ومن ثم فقد صاغ لها دستوراً دائماً بدوام الكتاب العزيز وخالداً بخلود الذكر الحكيم ، فالدولة الإسلامية أينما وجدت وحينما قامت لابد أن تكون تلك صفتها .

* قيمة الشورى أهم خصائص الحكم الإسلامي :

نظام الحكم في الإسلام شهد نموذجه الأمثل وتطبيقاته الأولية في عهد الرسول الكريم وخلفائه الراشدين ، وقد كانت الشورى أهم خصائص ذلك النظام وعموده الفقري ، وعليه فلا نظاماً سياسياً إسلامياً إلا بالشورى .

يتضح مما تقدم أن قيمة الشورى واجبة على الجماعة المسلمة وأنها ملزمة بإتباعها وتطبيقها فكراً وممارسةً .

ثالثاً : الشورى قيمة سياسية متطورة (مهام الشورى) :

الشورى وجدت وستظل قيمة سياسية متطورة ذات طابع إنساني حضاري ، ومهمتنا نحن المسلمين أن نضعها في نصابها الصحيح ونرفعها مكانتها العالية ، وقد برزت قيمة الشورى كقيمة سياسية من خلال الآتي :

* تمثيل أبناء الأمة في صناعة واتخاذ القرار :

الشورى في الواقع العملي تعني أن الحاكم أو ولي الأمر أو الرئيس وهو بصدد صناعة واتخاذ القرار التي تهم الأمة يشرك معه أبناء الأمة المؤهلين لذلك ، ومعلوم أن هؤلاء المستشارين أو الهيئة الاستشارية أو مجلس الشورى هم من بين أبناء الأمة ويمثلون عموم شعبها تمثيلاً جغرافياً ونوعياً .

فكل الأمة بموجب قيمة الشورى أصبحت معنية ومشاركة في عمليات صناعة واتخاذ القرار ، من خلال مشاركة أبنائها الذين يشكلون الهيئة أو المجلس الاستشاري المعاون لولي الأمر في اتخاذ تلك القرارات .

* مساندة الحاكم أو ولي الأمر :

إضافة إلى أهمية الشورى في تمثيل الأمة إلى جوار الحاكم فهي كذلك تمثل معاونة فعلية حقيقة من أبناء الأمة الأكفاء في تحمل أعباء ومسئوليات قيادة الدولة والمجتمع كل فيما يخصه وحسب تخصصه ، فقيادة الدولة الإسلامية والمجتمع المسلم تحتاج إلى طاقات ومقدرات كل أبنائه المتميزين القادرين على العطاء والتفاني ، فولي الأمر أو رئيس الدولة مهما كانت مقدراته وإمكاناته لن يستطيع أن يعمل في كل الاتجاهات ويسد جميع الأبواب

ويلبي كافة المطالب . وعليه فلابد من رجال جادين يتحملون مسئولية معاونة الرجل الأول في تلك الشئون والأمور حتى تنتظم أمور الدولة وتتحقق مصالح الناس .

* الشورى ومهمة التشريع :

قيام المجتمع المسلم بمهمة التشريع أمر وارد بل وضروري لترتيب وتنظيم أمور الحياة ومواءمتها مع متطلبات ومستجدات العصر . ومهمة التشريع يحيلها المجتمع إلى الجهة المؤهلة للقيام بذلك وهي مجلس الشورى . وتتوزع مهمة التشريع على النحو التالي :

– كافة المسائل والقضايا التي لم يرد فيها نص شرعي من قرآن أو سنة ، فهي متروكة لمجلس الشورى كي يتولاها بالتقنين والصياغة ، بما يتمشى مع الأصول الشرعية والقواعد العامة .

– تفسير الأصول والقواعد العامة ، إذا تعارضت مع مستجدات الواقع وتطورات العصر ، ومواءمة الأخيرة مع عموميات الشرع وأصوله .

– المسائل الفنية في العلاقات الدولية .

* تلقي طلبات أبناء الشعب وتوصيلها إلى الحاكم :

مجلس الشورى على اتصال مستمر بأبناء الشعب ومن ثم فهو يعكس طلباتهم ورغباتهم ويوصلها إلى ولي الأمر ، فالشورى أداة وصل بين الحاكم وبين شعبه ، وهذه هي إحدى المهام الحساسة لمجلس الشورى ، علماً بأن ولي الأمر على اتصال مستمر بأبناء شعبه من خلال اللقاءات المباشرة التي يلتقيهم فيها .

* النصح والإرشاد للحاكم والحكومة :

كذلك تؤدي قيمة الشورى مهمة جليلة داخل المجتمع المسلم تتمثل في موالاة الحاكم أو ولي الأمر بالنصح والإرشاد فيما يعن من القضايا الخلافية .

رابعاً : الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية :

القيم الإسلامية يقاس عليها بوصفها المعيار الثابت والمقياس الدائم ، ولا توضع البتة موضع مقارنة ومفاضلة مع قيم بشرية ، كانت حصيلة جهد وتجارب العقل البشري ولكن قد يضطر المحلل اضطراراً لأن يعقد مقارنة بين قيمة إسلامية وأخرى موضوعة عندما يهدف إلى إيضاح القيم الإسلامية لأناس لا يعرفون عنها كيف نشأت وتطورت وحقيقة معانيها وواقع أهدافها ومقاصدها ، ولا يرون أمامهم إلا أفكاراً مشوهة وآراء ونظريات معتلة ، عندئذ نضطر إلى المفاضلة بل ونلجأ إليها لجوءاً .

* المصدر :

- نزلت قيمة الشورى من عند الله وحياً على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بإتباعها ، ثم صفة من صفات الجماعة المسلمة وسمة من سمات الحكم الإسلامي الذي ينبغي أن يسود الدولة في الإسلام ، ومن ثم حفظت ضمن كتاب الله قيمة خالدة أبداً .

- في حين كانت الديمقراطية فكرة ابتدعها الإغريق الأقدمون من بنات أفكارهم لتحقيق أهداف وغايات آنية محددة ، ثم اختفت مع اختفاء حضارتهم ، وظلت مطمورة مئات السنين ، ثم ظهرت مرة أخرى على أيدي مفكرين أوربيين ، لتحقيق غايات وقتية ، وظلت الفكرة مثار قبول ورفض حتى وقتنا الراهن .

* الهدف والغاية :

– الشورى قيمة سامية مطلقة ، هدفها واضح ومحدد ، يتبلور في تحقيق أهداف الدولة والمجتمع المسلم ، فالشورى نزلت يشترك الجميع في اعتناقها ، والاتصاف بها ، وإعلاء شأنها كما هي في ذاتها ، وهذه القيمة لا تؤول تبعاً للهوى والرغبة ، ولا تجزأ فتطبق جزئياً أو مرحلياً ، ولكنها تسود بوصفها سمة من سمات الأمة ، وخاصية من خصائص حكمها .

– فكرة الديمقراطية أضحت في نظر مبتكريها قيمة سياسية مطلقة ، يقاس عليها صلاح النظم السياسية من عدمه ، وبناء عليها يوزعون أحكامهم ، ويصدرون شهادات التقدير والتحقير ، كذلك فالديمقراطية هدفها تحقيق مصلحة فريق في مواجهة الآخرين .

* المجتمع والبيئة :

– المجتمع المسلم كله كتلة واحدة ووسط متجانس ، لا يضم في كنفه أغلبية أو أقلية وقيمة الشورى توجد في ذلك المجتمع من أجل الوصول إلى القرار الصائب والصحيح الذي هو هدف كل الجماعة المسلمة ، وليس من أجل انتصار رأي على رأي آخر .

– الديمقراطية تفترض وجود مجتمع مقسم إلى أحزاب وتجمعات متناحرة ومتصارعة هدفها الوصول إلى سدة الحكم والسيادة على الآخرين ، والديمقراطية إن هي إلا أداة ارتضاها الفرقاء لحسم النزاع فيما بينهم ، ووسيلة في يد الأغلبية لقهر وإخضاع الأقلية .

* الفكر والمنهج :

- مجتمع الشورى مجتمع يسوده فكر واحد ، وغاية واحدة وأداة واحدة لتحقيق تلك الغاية ، وجميع أفراد المجتمع المسلم يلتفون حول ذلك الفكر ، وينشدون تلك الغاية ويستخدمون تلك الأداة .

- مجتمع الديمقراطية مجتمع تسوده آراء وأفكار متعددة ومتضاربة وغايات متباينة ويتلمس كل فريق أو حزب أداة خاصة به ، لتحقيق أهدافه وغاياته من ، خلال برامج واستراتيجيات تطغى عليها سمة الفردية والتشرذم .

خامساً : الشكل التنظيمي لقيمة الشورى :

فيما مضى تناولنا الأطر الفكرية والأبعاد النظرية المختلفة لقيمة الشورى ، والآن ننتقل إلى تناول الشكل التنظيمي لقيمة الشورى الذي تبدو فيه بوصفها فاعلاً ضمن الفاعلين بالمنهاج الإسلامي ، أو إن شئنا القول في النظام السياسي الإسلامي .

والمقصود بالشكل التنظيمي لقيمة الشورى هو تجسيد تلك القيمة في شكل جهاز أو تنظيم معين ، ينقل تلك القيمة من محتواها الفكري وإطارها النظري إلى شكل مادي ملموس ، والشكل التنظيمي هو دائماً واحد لا خلاف على جوهره ومضمونه ، ولكن الخلاف يحدث حول تسمياته ، فالبعض يسميه مجلس الشورى والبعض الآخر يسميه الهيئة الاستشارية ، وهناك من يسميه بمجلس المستشارين .

وهناك طرق مختلفة لتعيين أعضاء مجلس الشورى وللمجتمع أن يتخير الطريقة التي على أساسها يتم تعيين أعضاء مجلس الشورى ، فليس ثمة طريقة محددة لذلك الاختيار ، وتتمثل طرق تعيين أعضاء مجلس الشورى في الآتي :

- التعيين بالاختيار :

في بعض الدول يتم تعيين أعضاء مجلس الشورى بالاختيار ، والاختيار يتم من خلال رصد كافة المعلومات عن الشخص المرشح ، واختيار أكثر الأشخاص خبرة في المجالات المطلوبة والأوسع علماً والأعمق دراية وحنكة والأطيب سمعة والأوفر ورعاً وخوفاً من الله وقرباً منه ، ومن اشتهر بحبه لأمته وخدمته لشعبه وغيرته على دينه .

- الانتخاب :

وفي دول أخرى يتم تعيين أعضاء مجلس السوري بالانتخاب ، حيث تترك الفرصة لأبناء الشعب لاختيار المناسب لمجلس الشورى .

ومما لا شك فيه أن كلا الأسلوبين ، التعيين والانتخاب لأعضاء مجلس الشورى صالح لأداء هذه المهمة ، ولكن ثمة قضية موضوعية نطرحها في هذا الموضع ، مفادها أن طبيعة شخصيات أعضاء مجلس الشورى طبيعة خاصة جداً ، فهؤلاء الأشخاص ينبغي أن يكونوا علماء وخبراء متميزين ، فمن إذن يستطيع أن يقيّم هؤلاء ، هل يستطيع الشخص العادي (الناخب) أن يستوعب حقيقة تلك الشخصيات ، وما تتمتع به من العلم والمعرفة والخبرة ؟ وهل من المنطقي والمقبول أن نطرح أسماء هؤلاء النوابغ على شخص ربما يكون أمياً لاختبار أفضلية هؤلاء !! .

المبحث الرابع

الحكومة الإسلامية

الحكومة هي الفاعل الثالث في المنهاج الإسلامي ، والحكومة تعني الوزراء وكافة موظفي الجهاز الإداري والتنفيذي من مدنيين وعسكريين ، ويمكن تناول الحكومة الإسلامية في الآتي :

أولاً : خصوصية الحكومة الإسلامية :

انطلاقاً من خصوصية المنهاج الإسلامي أو [النظام السياسي الإسلامي] تجاوزاً ، تتمتع الحكومة الإسلامية هي الأخرى بخصوصية تميزها عن أية حكومة أخرى ، يتضح ذلك من الآتي :

* الحكومة يعينها الحاكم أو ولي الأمر :

الحكومة بكل جزئياتها يعينها الحاكم أو ولي الأمر ، وهو في ذلك يتخير أكفأ العناصر ، وأكثرها خبرة ودراية .

* الحكومة الإسلامية ذات طبيعة تنفيذية بحتة :

الحكومة الإسلامية تتحدد مهمتها في الجانب التنفيذي الصرف ، المتعلق بتنفيذ السياسات والاستراتيجيات التي وضعها الحاكم أو ولي الأمر بالتعاون مع مجلس الشورى لتحقيق أهداف الدولة والمجتمع .

ثانياً : مكونات الحكومة الإسلامية :

الحكومة الإسلامية تتكون من ثلاثة عناصر أساسية :

* العنصر الأول : مجلس الوزراء :

مجلس الوزراء يتكون من رئيس المجلس ونواب الرئيس ثم الوزراء المسئولين عن إدارة وزارات ، وأولئك الذين بدون وزارات ، وقد يضاف إلى هؤلاء رؤساء الدوائر والأجهزة الكبرى المستقلة غير التابعة لأية وزارة .

* العنصر الثاني : الإدارة العامة أو الجهاز الإداري :

تشمل الإدارة العامة أو الجهاز الإداري كل الأشخاص الذين هم في منصب أدنى مباشرة من منصب الوزير ، وتمتد لتشمل أصغر الموظفين الذين يعملون بالحكومة ، فالإدارة العامة هي أداة الحكومة للقيام بأعمالها وتنفيذ سياساتها .

* العنصر الثالث : القوات المسلحة أو الجيش :

تشمل القوات المسلحة أو قوات الجيش قوات الأمن والشرطة إضافة إلى قوات الجيش البرية والبحرية وأية قوات أخرى .

ثالثاً : إنشاء الهيئات والأجهزة المعاونة :

كذلك يمكن للحاكم أو ولي الأمر إنشاء أية هيئات أو أجهزة أخرى مستقلة ، إذا دعت الضرورة أو الحاجة إلى ذلك .

الفصل الرابع

وسائل تحقيق أهداف الدولة في الإسلام

[نسق القيم السياسية الإسلامية]

يعمد المنهاج الإسلامي إلى تحقيق أهداف الدولة من خلال مجموعة من الأدوات والوسائل ، التي تشكل في ذات الوقت نسقاً متكاملاً من القيم السياسية ، والقيم بشكل عام عبارة عن أفكار مثالية تعكس تصورات إنسانية مطلقة لجوانب الوجود الإنساني .

وهناك قيم إنسانية مطلقة مثل الجمال والخير ، وهناك قيم أخرى نوعية مثل القيم السياسية ، التي هي أفكار مثالية تمثل نموذجاً مطلقاً للممارسة السياسية ، وتتوزع القيم في انساق ، وكل نسق يحوي مجموعة من القيم التي ترتبط ببعضها ارتباطاً عضوياً .

وتنفرد النظرية السياسية الإسلامية بنسق خاص للقيم السياسية ، ويتسم هذا النسق بسمات وخصائص تميزه عن نسق القيم السياسية في نظريات سياسية أخرى .

القيم السياسية الإسلامية التي تنتظم في نسق خاص ، يعتمد عليها المنهاج الإسلامي أو النظام السياسي الإسلامي كأدوات لتحقيق أهداف الدولة الإسلامية ، وتتسم تلك القيم بجملة من الخصائص :

أولاً : القيم السياسية الإسلامية ترتبط ببعضها ارتباطاً عضوياً ، مما يجعلها تبدو في كل واحد أساسه وقواعده الشريعة الإسلامية ، ومحوره الأساسي المنهاج الإسلامي ، وهدفه الفضيلة والسمو العقلي والفكري والسلوكي .

ثانياً : الإسلام يضفي على القيم السياسية الخاصة به طابعاً خاصاً ، فهذه القيم إنما وجدت لتقويم السلوك الإنساني وتهذيبه ومواءمته مع الصورة المثلى الذي خططها الإسلام للمجتمع .

ثالثاً : القيم السياسية الإسلامية في جملتها بمثابة أدوات تهدف إلي تحقيق أهداف الدولة الإسلامية ، وقد فرضها الله سبحانه وتعالى وأمر ولي الأمر أن يقيمها وينشرها في المجتمع الإسلامي .

ونتناول نسق القيم السياسية الإسلامية في خمسة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : العدالة .

المبحث الثاني : الإخاء .

المبحث الثالث : المساواة .

المبحث الرابع : الحرية .

المبحث الخامس : الوظيفة الاتصالية للدولة في الإسلام .

المبحث الأول

العدالة

العدالة قيمة إنسانية عليا وُجدت في مجتمعات عديدة منذ قديم الزمان ، وهي تعـني انتفـاء الظلم والجور ، ويمكن تناول قيمة العدالة كقيمة إسلامية من أكثر من جانب :

أولاً : الجانب الشرعي للعدالة :

نتناول الجانب الشرعي لقيمة العدالة مـن خـلال الاهتمـام الملحـوظ الـذي أعطتـه الـشريعة الإسلامية لتلك القيمة .

قال تعالى : " إن الله يأمركم أن تـؤدوا الأمانـات إلـي أهلـها ، وإذا حكمـتم بـين النـاس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً "[1] ، وفي هذه الآية الكريمة أمر من الخالق تبارك وتعالى بالعدل بين الناس ، وهذا الأمر موجه إلي الحكام والقضاة .

وقال تعالى : " يا أيها الذين ءامنوا كونـوا قـوامين بالقـسط شـهدآء لله ولـو علـى أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فـالله أولى بهمـا فـلا تتبعـوا الهـوى أن تعـدلوا وإن تلووا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً "[2] ، يأمر تعـالى عبـاده المـؤمنين أن يكونـوا حاكمين بالعدل ولا يحملنهم الهوى والعصبية على ترك العدل .

---

[1]. سورة النساء : ٥٨ .
[2]. سورة النساء : ١٣٥ .

وقال تعالى :" يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين لله شهدآء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون "[1] ، أمر آخر في هذه الآية الكريمة من الله إلي المؤمنين بأن يكونوا حاكمين بالحق قاضين به لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة ، شهداء بالعدل ولا يضطرهم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل يستعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً ، فهذا العدل من تقوى الله ولزوم طاعته .

وقال تعالى :" ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلاّ وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذالكم وصاكم به لعلكم تذكرون "[2] ، كذلك تحمل هذه الآية أمراً من الله تعالى بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد .

وقال تعالى :" ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون "[3] ، يخبر الحق تبارك وتعالى عن بني إسرائيل أن منهم جماعة يتبعون الحق ويحكمون به بين الناس ، وفي هذا دليل على أن العدل ينبغي أن يسود كل المجتمعات المسلمة وغير المسلمة لأنه سنام المجتمع وعماد الأمان والاستقرار والوئام .

وقال تعالى :" وممن خلقنآ أمة يهدون بالحق وبه يعدلون "[4] ، والمقصود بالأمة في هذه الآية أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهي قائمة بالحق قولاً وعملاً ، يقولون به ويدعون إليه ويعملون ويقضون وفقاً له .

---

[1]. سورة المائدة : ٨ .
[2]. سورة الأنعام : ١٥٢ .
[3]. سورة الأعراف : ١٥٩ .
[4]. سورة الأعراف : ١٨١ .

وقال سعيد عن قتادة بلغني أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول إذا قرأ هذه الآيـة هـذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية :" إن من أمـتي قومـاً علـى الحـق حتـى ينـزل عيسى بن مريم متى ما نزل " .

وعن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا تزال طائفة مـن أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة " .

وقال تعالى :" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتآئ ذي القربى وينهى عن الفحشآء والمنكـر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون "[1] ، يـأمر الله تعـالى في هـذه الآيـة بالعـدل الـذي هـو القسط والإحسان الذي يعني الفضل .

وقال تعالى :" فلذلك فادع واستقم كمآ أُمرت ولا تتبع أهوآءهم وقل إمنت بما أنـزل الله مـن كتاب وأُمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنآ أعمالنا ولكم أعمـالكم لا حجـة بيننـا وبيـنكم الله يجمع بيننا وإليه المصير "[2] ، تحمل هذه الآية الكريمة أمراً من الحق تبارك وتعالى إلي رسوله الكريم بأن يحكم بالعدل بين المشركين إذا تخاصموا إليه .

وقال تعالى :" وإن طآئفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهمـا فـإن بغـت إحـداهما علـى الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتـى تفـيء إلـي أمـر الله فـإن فـآءت فأصلحوا بينهمـا بالعـدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين "[3] ، وهـذا أمـر إلهـي في هـذه الآيـة للمـؤمنين بالإصـلاح

1. سورة النحل : ٩٠ .
2. سورة الشورى : ١٥ .
3. سورة الحجرات : ٩ .

والعدل بين المؤمنين إذا اختلفوا أو اقتتلوا ، وتحري العدل أمر واجب وضروري في الإصلاح بين المتقاتلين، فالله يحب ذلك ويزكيه .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا " .

ثانياً : الجانب الاجتماعي للعدالة :

لقيمة العدالة جانب اجتماعي مهم ، فسيادة هذه القيمة داخل المجتمع تقود إلي انتشار الأمن والأمان والاطمئنان لدى الأفراد والجماعات ، فكل فرد داخل المجتمع يشعر ويتيقن أنه سيحصل على حقه دون ضياع أو إهدار .

وقال تعالى :" الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور "[1] ، تشمل هذه الآية الكريمة ولي الأمر والرعية ، فلولي الأمر تطبيق شرع الله ، وأن يأخذ من الظالم للمظلوم ، وأن يهدي للتي هي أقوم ما استطاع ، وعلى الرعية الطاعة والإخلاص .

وقال تعالى :" وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون "[2] ، هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي أئمة الناس

[1]. سورة الحج : ٤١ .
[2]. سورة النور : ٥٥ .

والولاة عليهم وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد ، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم ، فالعدل يصلح المجتمع وبه تستقر أمور الناس ويأمنون على أنفسهم وأموالهم .

ثالثاً : الجانب الإجرائي للعدالة :

يقصد بالجانب الإجرائي للعدالة المسائل ذات الصبغة الفنية مثل المساواة أمام القانون ، ونزاهة المحاكمات ، ويوجد في الدولة الإسلامية جهة معينة تكون مسئوليتها الإشراف على تطبيق العدالة ، وهي في المعتاد وزارة العدل .

ويقع على عاتق ولي الأمر أو الحاكم مهمة إقامة العدالة في المجتمع وتنظيم وترتيب الجانب الإجرائي للعدالة ، والذي يتمثل في الآتي :

* تحديد معايير وضوابط تعيين القضاة وتدرجها ، وكذلك العاملين في مجال إقامة العدالة ، بما يضمن نزاهة القضاء واستقلاليته .

* إنشاء المحاكم ودور القضاء وتوزيعها بشكل متوائم مع مناطق الكثافة السكانية على إقليم الدولة ، حتى لا يشق على المتقاضين وأصحاب الحقوق .

*اختصار زمن وإجراءات نظر القضايا والبت فيها ، حيث أن العدالة البطيئة نوع من الظلم ، ولكن بما لا يخل بمتطلبات الاستيفاء ، ومستلزمات الحيدة والنزاهة .

* تجهيز وإعداد القوة الخاصة بتنفيذ الأحكام ، بما يضمن سرعة التنفيذ وحصول صاحب الحق على حقه .

رابعاً : مراتب العدالة :

لقيمة العدالة مراتب ودرجات يمكن تناولها في الآتي :

* عدالة الخالق عز وجل :

الله هو الحكم العدل بين جميع المخلوقات والموجودات ، أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وقد حرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده حراماً .

قال تعالى : " مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون "[1] .

وقال تعالى : " ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد "[2] .

وقال تعالى : " ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد "[3] .

وقال تعالى : " وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فمآ أغنت عنهم ءالهتهم التي يدعون من دون الله من شئ لما جآء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب "[4] .

وقال تعالى : " هل ينظرون إلآ أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون "[5] .

---

1. سورة آل عمران : ١١٧ .
2. سورة آل عمران : ١٨٢ .
3. سورة الأنفال : ٥١ .
4. سورة هود : ١٠١ .
5. سورة النحل : ٣٣ .

وقال تعالى : " وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون "[1] .

وقال تعالى : " ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد "[2] .

وقال تعالى : " من عمل صالحاً فلنفسه ومن أسآء فعليها وما ربك بظلام للعبيد "[3] .

وقال تعالى : " وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين "[4] .

وقال تعالى : " ما يبدل القول لدي ومآ أنا بظلام للعبيد "[5] .

❖ عدالة الرسل والأنبياء :

تأتي عدالة الرسل والأنبياء في المرتبة الثانية بعد عدالة الحق تبارك وتعالى ، وتتمثل عدالة الرسل والأنبياء في أكثر من شكل :

– الدعوة إلي دين الله وتبليغ رسالاته وهداية الناس .

– الحكم بين الناس بما أنزل الله من الكتاب .

وقال تعالى : " إنآ أنزلنآ إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بمآ أراك الله ولا تكن للخآئنين خصيماً "[6] .

---

1. سورة النحل : ١١٨ .
2. سورة الحج : ١٠ .
3. سورة فصلت : ٤٦ .
4. سورة الزخرف : ٧٦ .
5. سورة ق : ٢٩ .
6. سورة النساء : ١٠٥ .

• عدالة ولي الأمر أو الحاكم :

في المرتبة الثالثة تأتي عدالة ولي الأمر أو الحاكم ، وقد سبق لنا تناول عدالة ولي الأمر أو الحاكم عند الحديث عن الجانب الشرعي للعدالة .

• عدالة المسلم :

حتى المسلم العادي مطالب بأن يكون عادلاً في أسرته وبين أبنائه ، وبينه وبين كافة الناس في المجتمع الذي يعيش فيه .

قال الحق تبارك وتعالى : " وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النسآء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا "[1] .

وقال تعالى : " ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النسآء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً "[2] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم " .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لتؤدن الحقوق إلي أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء " .

---

[1]. سورة النساء : ٣ .
[2]. سورة النساء : ١٢٩ .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أراضين " .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ :" وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد " .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شئ فليتحلله منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، من كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمّل عليه " .

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلي ، لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار " .

وعن بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً " .

وعن خولة بنت عامر الأنصارية وهي امرأة حمزة رضي الله عنهما قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة " .

المبحث الثاني

الإخاء

القيمة الثانية في نسق القيم السياسية الإسلامية هي الإخاء ، والإخـاء يعـني إنـزال العلاقـة الدينية بين المسلمين منـزلة الأخوة من النسب ، ومن ثم فقيمة الإخاء عبارة عن علاقة بـين المسلمين أساسها الدين الإسلامي ، وهذا الدين انطلاقاً من سموه ومكانته يجعل العلاقة بين المسلمين من القوة والمتانة بما يصل بها إلي منـزلة ومكانة الأخوة من النسب .

والإخاء كقيمة إنسانية سامية نادت بها كافة الأديان يهوديـة ومـسيحية ، وحتـى الأفكـار الإنسانية الموضوعة ، إلا أن الإسلام قد أضفى على هذه القيمة طابعاً خاصـاً وأعطاهـا مـذاقاً مميزاً ، فقد آخى الإسلام بين أشخاص وأفراد لا يعرف بعضهم بعضاً وينحدرون من أصـول لا يمت بعضها إلي بعض بصلة ، وكانت أخوة الدين في كثير من الأحيان أقوى وأمـتن مـن أخوة النسب وعلى هذا الأسـاس المـتين نـشأت وتوطـدت أركـان دولـة الإسـلام الأولى الـتي أسسها النبي الكريم في المدينة المنورة .

وقيمة الإخاء تقود مباشرةً وتلقائياً إلي ما يعرف بالتكافل الاجتماعي ، وللتكافل الاجتماعي شكلان : الشكل الأول أعم وأشمل فهو يشمل كل العلاقـات والـروابط بـين أبنـاء المجتمـع الإسلامي ، الشكل الثاني : أخص وأكثر تحديداً ، وتقوم به الدولـة مـن خـلال أجهزتهـا المعنية ، وسوف نوضح ذلك في حينه ، والآن نتتبع قيمة الإخاء من خلال الآتي :

أولاً : قيمة الإخاء في الشريعة الإسلامية :

أبرزت الشريعة الإسلامية قيمة الإخاء بصورة واضحة وجلية ، ويمكن تتبع ذلك من خلال الآتي :

* القرآن الكريم :

قال تعالى : " في الدنيا والأخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شآء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم "[1] ، وتأتي هذه الآية الكريمة لتحض على كفالة اليتيم والإحسان إليه ومخالطته في طعامه وشرابه فهو أخ في الدين .

وقال تعالى : " واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعدآءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم ءاياته لعلكم تهتدون "[2] ، هذا السياق في شأن الأوس والخزرج فقد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام صاروا إخواناً متحابين متواصلين متعاونين على البر والتقوى .

وقال تعالى : " يآ أيها الذين إمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحي ويميت والله بما تعلمون بصير "[3] ، وفي هذه الآية ينهى الله تعالى عباده المؤمنين

---

1. سورة البقرة : ٢٢٠ .
2. سورة آل عمران : ١٠٣ .
3. سورة آل عمران ١٥٦ .

عن مشابهة الكفار ، في قولهم لإخوانهم إذا سافروا للتجارة ونحوها أو كانوا في الغزو لو بقوا عندنا ما ماتوا في السفر ولا قتلوا في الغزو .

وقال تعالى : " الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين "[1] ، كذلك وردت لفظة إخوانهم في هذه الآية لتدل على قوة الرابطة وعمق الأواصر .

وقال تعالى : " فإن تابوا وأقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصّل الأيات لقوم يعلمون "[2] ، وتعني هذه الآية الكريمة أن المشركين إذا أقلعوا عن الآثام والمعاصي وعبادة الأوثان وتابوا إلي الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة بذلك أصبحوا إخواناً للمؤمنين في الدين ، ويا لعظمة الإسلام عندما يجبُّ ما قبله ويحوّل الشرك إلي أخ أعزُّ من أخ النسب .

وقال تعالى : " يآ أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا ءابآءكم وإخوانكم أوليآء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون * قل إن كان ءابآءكم وأبنآؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونهآ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين "[3] ، ويتضح من سياق هاتين الآيتين الكريمتين أن الأخوة في الإسلام أبقى وأفضل من الأخوة في النسب .

---

[1]. سورة آل عمران : ١٦٨ .
[2]. سورة التوبة : ١١ .
[3]. سورة التوبة : ٢٣ و ٢٤ .

وقال تعالى : " ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين "[1] ، ترسم هذه الآية صورة رائعة للأخوة في الإسلام ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة نزع اللهِ ما كان في صدورهم في الدنيا من غل وجعلهم أكثر محبة وألفة مما كانوا عليه في الدنيا .

وقال تعالى : " ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا ءاباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً "[2] ، كذلك أبرزت هذه الآية الكريمة معناً بديعاً للتراحم والإخاء ، فقد استعاضت هذه الآية بعلاقة الأخوة في الدين عن علاقة الأبوة إذا لم يُعلم الأب .

وقال تعالى : " إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون "[3] توضح هذه الآية الكريمة أن كل المؤمنين أخوة في الدين ، والإصلاح بين الأخوة واجب وفريضة على كل من يشهد خلافاً بين المؤمنين .

وقال تعالى : " يآ أيها الذين ءامنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم "[4] ، تحث هذه الآية الكريمة على الألفة والتآخي والبعد عن الغيبة والنميمة .

وقال تعالى : " والذين جآءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين ءامنوا ربنا إنك رءوف رحيم "[5] ، ترشد هذه الآية الكريمة

---

1. سورة الحجر : ٤٧ .
2. سورة الأحزاب : ٥ .
3. سورة الحجرات : ١٠ .
4. سورة الحجرات : ١٢ .
5. سورة الحشر : ١٠ .

إلي صفات المؤمنين الذين يحبون لإخوانهم ما يحبونه لأنفسهم ويطلبون لهم المغفرة ويسألون الله أن يُخلِص قلوبهم لإخوانهم .

* السنة المطهرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إذا دعا المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب قال الملَك آمين ولك مثله " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن من أهل الإيمان كما يألم الجسد في الرأس " .

ثانياً : الإخاء والتكافل الاجتماعي :

قيمة الإخاء وثيقة الصلة بمبدأ التكافل الاجتماعي ، والمبدأ الأخير يعد إحدى الركائز الأساسية التي ترتكز عليها الدولة في الإسلام ، فهو هدف من أهداف تلك الدولة ،

والتكافل الاجتماعي يعني أن يتكفل من يملك بمساعدة من لا يملك ، ومن يملك قد يكون فرداً وقد تكون الدولة ذاتها ، ويمكن أن نزيد ذلك إيضاحاً من خلال الآتي :

* الإخاء والتكافل بين المسلمين :

قيمة الإخاء داخل المجتمع المسلم تقود إلي سيادة مبدأ التكافل الاجتماعي ، فالمسلم يهمه شأن أخيه ، فيشقى لشقائه ويسعد لسعادته ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ، وعليه فالتواصل والتراحم بين الأفراد يعد إحدى سمات المجتمع المسلم ، والتواصل والتراحم لا يقتصر على الأمور والمسائل المعنوية والوجدانية وإنما يتجاوز ذلك إلي التكافل والتعاون المادي والاقتصادي .

قال تعالى :" ومآ أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار * إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقرآء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير * ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشآء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغآء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * للفقرآء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم * الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون "[1] .

وقال تعالى :" يآ أيها الذين ءامنوا لا تحلوا شعآئر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلآئد ولا ءآمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا

[1]. سورة البقرة : ٢٧٠ ـ ٢٧٤ .

يجرمنَّكم شنئآن قوم أن صدُّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب "[1] .

وقال تعالى :" إنما الصدقات للفقرآء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم "[2] .

وقال تعالى :" خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم "[3] .

وقال تعالى :" وفي أموالهم حق للسآئل والمحروم "[4] .

وقال تعالى :" والذين في أمولهم حق معلوم * للسآئل والمحروم "[5] .

* دور الدولة الإسلامية في التكافل الاجتماعي :

للدولة الإسلامية دور يعتد به في ترسيخ مبدأ التكافل الاجتماعي من خلال التدخل لمساعدة الأفراد المحتاجين ، وتتضمن تلك المساعدة توفير المتطلبات الأساسية للحياة ويتشابه مبدأ التكافل الاجتماعي في الدولة الإسلامية مع فكرة " دولة الرفاهة " السائدة في الفكر السياسي المعاصر ، وتطبق الدولة الإسلامية مبدأ التكافل الاجتماعي عن طريق الأخذ من الأغنياء والقادرين وإعطاء الفقراء وغير القادرين ، وتعرف هذه العملية شرعاً بالزكاة ؛ وبذا توفر

[1] سورة المائدة : ٢ .
[2] سورة التوبة : ٦٠ .
[3] سورة التوبة ١٠٣ .
[4] سورة الذاريات : ١٩ .
[5] سورة المعارج : ٢٤ و ٢٥ .

الدولة متطلبات الحياة الضرورية لأكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع المسلم ، إضافةً إلي توفير فرص العمل لمن يستطيع .

ثالثاً : الآثار السياسية لقيمة الإخاء :

تترك قيمة الإخاء آثار سياسية بليغة على المجتمع والدولة والنظام السياسي ، وقد برزت تلك الآثار وتنبّه إليها الكثيرون في الوقت الراهن ، ويتضح ذلك في الآتي :

* توطيد البعد الاجتماعي للدولة في الإسلام :

توضح قيمة الإخاء اهتمام الدولة الإسلامية بالبعد الاجتماعي ، كما تبرز هذه القيمة إحدى أهم خصائص تلك الدولة ، وهي خصية الاهتمام بالفقراء والمحتاجين ، فهي تأخذ من الغني لتزكية ماله دون تعسف أو إضرار ، وتعطي للفقير دون من أو أذى لتشعره بالأمن والأمان ، وتلبي حاجته فلا يلجأ إلي الطرق المنحرفة لكي يحرز ما يريد ، ولا يمتلئ قلبه بالحقد والبغض على الغني ، وعندئذ يصبح الجميع مواطنين أسوياء يحب بعضهم البعض ويقدرون للدولة دورها الحاني .

لقد وردت نظريات بشرية عديدة للوصول إلي تلك القيمة وإقرارها ، ولم تفلح أي من تلك النظريات في الوصول إلي ما جاءت به الشريعة الإسلامية وصاغته في قيمة الإخاء ، وتركت لأولياء الأمر تطبيق تلك القيمة ، وأناطت بالمجتمع جني ثمارها .

* إقرار الأمن والاستقرار داخل المجتمع :

قيمة الإخاء بالوصف والتفصيل اللذين أوردناهما ، تساعد بشكل فعال على إقرار الأمن والاستقرار داخل ربوع الدولة الإسلامية ، فهي تحمي المجتمع من الصراعات بين الأغنياء والفقراء ، وتجعل منه نسيجاً متجانساً ، ومن ثم تتحول الدولة الإسلامية إلي دولة قوية متماسكة تقدم الأنموذج الجدير بالاحترام والتقدير .

المبحث الثالث

المســــاواة

المساواة هي إحدى قيم النسق الإسلامي للقيم السياسية ، ولقد ظهرت هذه القيمة في الفكر السياسي البشري منذ القدم ، ولا تزال حتى الآن تسيطر على فكر الكثيرين ، ونتناول قيمة المساواة من خلال الآتي :

أولاً : ماهية المساواة :

قيمة المساواة من القيم التي يتسم تعريفها بالصعوبة ، وتنبع هذه الصعوبة من كون مفهوم المساواة يضيق ويتسع حسب معايير وضوابط معينة ، وكذلك من تداخل هذا المفهوم مع مفاهيم أخرى مثل العدالة والحرية ، والمساواة في معناها العام المجرد تعني حالة انتفاء الفروق بين عناصر تتجانس في صفاتها .

ويمكن تحليل المفهوم السابق إلي عناصره التالية :

* حالة انتفاء الفروق : وهذه الحالة تعني التشابه والتماثل والتناظر في المعاملة والقابلية لاستقبال أحكام معينة .

* العناصر موضع التحليل : وهي هنا العناصر البشرية أو الأفراد من البشر .

* التجانس في الصفات : وهذا العنصر من العناصر المهمة في تعريف المساواة ، والتجانس في الصفات هو الذي يعطي مفهوم المساواة التحديد والضبط ، فالتجانس في الصفات هو

المعيار والأساس الذي بناء عليهما تطبق المساواة وتظهر إلي حيز الوجود ، وهذا المعيار الذي هو التجانس في الصفات يضيق ويتسع ، ويضيق ويتسع معه نطاق تطبيق قيمة المساواة .

وإذا أخذنا بمعيار التجانس في الصفات على أوسع نطاق ، كنا أمام أفراد الجنس البشري أو بني آدم ، وهنا تظهر قيمة المساواة فيما بين البشر . ويكون للمساواة على هذا النطاق أو المدى أوجه ومواطن معينة مثل توفير متطلبات الحياة الإنسانية وكافة الأمور الأكثر عمومية .

أما إذا ضيقنا من نطاق التجانس في الصفات إلي مستوى الدولة نكون أمام مواطني الدولة ؛ فهم أولاً متساوون على أساس معيار الآدمية أو الإنسانية . ثم بعد ذلك هم متساوون في كونهم يحملون صفات المواطنة لدولة بعينها ، ومن ثم فلهم حقوق وعليهم واجبات متساوية وذلك بموجب صفات المواطنة ، وإن المفاضلة بين المواطنين لا تتم إلا على أساس الكفاءة والصلاحية دون اعتبار للأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية أو الأصل أو اللون إلي غير ذلك من العوامل الأثينية .

ثانياً : التداخل بين قيمتي العدالة والمساواة :

يلاحظ أن ثمة تداخلاً واضحاً بين قيمتي العدالة والمساواة ، وقد قاد ذلك التداخل إلي إحاطة مفهوم المساواة بهالة من الغموض وعدم الوضوح لدى كثير من الكتّاب والمفكرين غير المتخصصين ، فالبعض ينظر إلي المساواة على أنها وجه من وجوه العدالة ، إذ أن العدالة تتطلب المساواة في تطبيق الأحكام وإجراء المحاكمات وإقامة الحدود . كما أن هاتين

القيمتين يرتبط وجود كل منهما بوجود الأخرى ويتوقف عليها . فلا يتصور وجود العدالة وقيامها بدون المساواة ، وكذلك لا يتصور وجود المساواة بدون العدالة .

وبالرغم مما تقدم تظل قيمتا العدالة والمساواة لكل منهما معناها المتميز ومجالات تطبيقها ودلالتها الخاصة : والتلازم بين القيمتين وجوداً وعدماً يميز نسق القيم السياسية الإسلامية .

ثالثاً : المساواة في الشريعة الإسلامية :

قيمة المساواة وردت في الشريعة الإسلامية مرتبطة بقيمة العدالة ، على اعتبار أن قيمة العدالة في المجتمع الإسلامي تقود تلقائياً إلي قيمة المساواة . ويمكن الوقوف على ذلك من خلال الإحالة إلي الجانب الشرعي لقيمة العدالة .

رابعاً : الآثار السياسية والاجتماعية للمساواة :

مثل جميع القيم والمبادئ السياسية تنعكس قيمة المساواة على الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ، فالمجتمع الذي تسود فيه قيمة المساواة لا يعرف المحسوبية ولا الرشوة ولا أي مظهر من مظاهر الفساد الأخرى ، كذلك فالنظام السياسي يتسم بالقوة والتماسك والتواصل بينه وبين مجتمعه الذي يمثل بالنسبة له الوسط والبيئة التي يتفاعل معها ويعيش فيها .

المبحث الرابع

الحرية

الحرية في نسق القيم السياسية الإسلامية ذات خصوصية وتميز يميزاها عن معناها في الأفكار السياسية الأخرى ، ويمكن إيضاح ذلك من خلال الآتي :

أولاً : خصوصية قيمة الحرية في الإسلام :

قيمة الحرية في الإسلام تتسم بسمتين تميزاها عن معناها في الأفكار السياسية الأخرى وتتمثل هاتان السمتان في الآتي :

* الحرية في الإسلام مشروطة بعدم الإضرار بالآخرين :

قيمة الحرية في الإسلام قيمة منظّمة ومهذّبة ، لا تصل إلى حد الإطلاق والفوضى ، فهي تعطي لكل فرد حق في أن يتصرف بحرية شريطة ألاً تتجاوز تصرفاته حدود حريات الآخرين ، ومهمة الدولة الإسلامية أن تضع الحدود الفاصلة بين حرية الفرد وحريات الآخرين ، وأن تحمي تلك الحريات وتحمي كذلك تلك الحدود وتردع من يفكر في تجاوزها وتعاقب من يتجاوزها بما يتواءم مع قدر التجاوز .

* الحرية في الإسلام مشروطة بعدم تخطي الحدود التي وضعتها الشريعة :

النظريات السياسية الغربية التي هي نتاج للفكر البشري تجتهد في أن تهذب الحريات الفردية من خلال قيم ومبادئ تحكم تلك الحريات وتُحِد من جموحها حتى لا تصل إلى حد

الفوضى ، أما الوضع في نسق القيم السياسية الإسلامية فيختلف اختلافاً جوهرياً في هذا الصدد ، فالشريعة الإسلامية ممثلة في القرآن والسنة تضع الحدود والفواصل التي تهذب حرية الفرد بالمبادئ والقيم الإسلامية ، فالمسلم يدرك أنه يعيش في مجتمع إسلامي قائم على قيم العدالة والمساواة ، ويدرك كذلك أن جميع أفراد مجتمعه متساوون في الحقوق والواجبات ، ومن ثم فهو مطالب بأن يحترم حريات الآخرين حتى يضمن أن يحترم الجميع حقوقه وحرياته .

ثانياً : معنى الحرية في الإسلام :

الحرية تعني انتفاء القيود التي تحد من رغبات الفرد فكراً وسلوكاً ، وهذا هو المعنى المطلق والواسع للحرية ، والمتأمل لهذا التعريف يلحظ أن رغبات الفرد سواء تبلورت في صورة أفكار أو تجسدت في شكل سلوك هي أساس مفهوم الحرية ، وأنه كلما فُرضت القيود على تلك الرغبات كان الحد من مساحة الحرية ، والعكس صحيح فكلما قلت أو انعدمت تلك القيود زادت مساحة الحرية إلى أن تنتفي نهائياً تلك القيود التي تحد من رغبات الفرد الفكرية والسلوكية ، وعندئذ نصبح أمام الحرية المطلقة التي لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود .

وإذا قُدّر لمجتمع من المجتمعات أن يقبل بسيادة قيمة الحرية بمعناها السابق ، فستتحول تلك القيمة إلى ضرب من الفوضى يعم المجتمع ، حيث تصطدم حريات أفراد المجتمع ببعضها البعض ، وتنشب الصراعات عندما ينبري كل فرد لحماية حريته والدفاع عن رغباته الجامحة ! .

ومن ثم برزت الأفكار والآراء التي طالبت بإلحاح بوضع القيود على الحريات لحماية المجتمع من الفوضى والصراعات التي تسببها الحرية المطلقة ، وأفرزت تلك الآراء والأفكار قيوداً ذات طابع قانوني في شكل قواعد وضوابط للسلوك : تهذب من الحرية المطلقة وتحد من آثارها المدمرة ! .

ولم يقتصر الأمر على تلك الأفكار والآراء الناهضة للحرية المطلقة وما أفرزته من قواعد وضوابط مهذبة ، بل برزت كذلك القيود التي جاءت بها الشرائع الإلهية والديانات في شكل قيم ومثُل ومبادئ تقيد من جموح الحرية التي أرادها المتحررون في شكل سام رفيع .

وبادرت المجتمعات التي خرجت منها الحرية المطلقة إلى الأخذ بالقيود القانونية لتهذيب الحرية ، وبادرت مجتمعات أخرى إلى الأخذ بالمبادئ والقيم التي جاءت بها الأديان والشرائع السماوية ، في الوقت الذي لجأت طائفة ثالثة من المجتمعات إلى الأخذ بالشرائع السماوية والقيود القانونية الموضوعة معاً .

وجاءت الحرية في المجتمع الإسلامي مقيدة بالمبادئ والقيم الإسلامية ، كما جاءت كذلك مقيدة بالقيود القانونية الموضوعة ، وأصبحت الحرية في المجتمع الإسلامي تعني التزام الفرد وهو بصدد تحقيق رغباته الفكرية والسلوكية بالقيم والمبادئ الإسلامية والقوانين التي تصدرها الدولة كضوابط للسلوك .

ثالثاً : أهم الحريات وموقف الشريعة الإسلامية منها :

الحرية بمعناها المتقدم تتجسد في شقين : الشق الأول حرية التعبير بالقول ، والشق الثاني حرية التعبير بالفعل والسلوك ، ويمكن الوقوف على موقف الشريعة الإسلامية من الحرية بشقيها من خلال الآتي :

• الحريات الفكرية :

تتعلق الحريات الفكرية عموماً بحق الفرد في الاعتقاد والتفكير والتعبير عن رأيه ، ويتضمن ذلك حقين :

– الحق الأول : حق الفرد في الاعتقاد والفكر : فللفرد الحرية في أن يعتنق من الأفكار ما يراه سوياً ومعبراً عن توجهاته وآرائه .

– الحق الثاني : حق الفرد في التعبير عن رأيه : وهذا الحق يكمّل الحق السابق ويتمّمه ، فإذا أُتيحت للفرد حرية اعتناق الأفكار والآراء التي يراها متفقة مع توجهاته ، فهو كذلك في حاجة إلى أن يملك حق التعبير عن رأيه فيما يسمع ويرى والتعبير كذلك عن الأفكار والآراء التي اعتنقها .

والآن ما هو موقف الإسلام من هذين الحقين المتعلقين بالفكر والتعبير ؟ للتعرُّف على موقف الإسلام من حرية الفكر أو الاعتقاد ، لابد من مناقشة بعض الإشكاليات والمعضلات الفكرية التي تتعلق بعلاقة المسلم بالعقيدة الإسلامية ، فالعقيدة الإسلامية بالنسبة إلى المسلم هي المعتقد الأوحد الذي يملأ فكره وكيانه ، ولا يمكن له أن يشحن فكره بمعتقد آخر بالإضافة إلى عقيدته الإسلامية ، فالفكر لا يقبل إلا معتقداً أو عقيدة واحدة ولا يستوعب معها سواها ، فإذا اعتنق المسلم العقيدة الإسلامية بصدق وإخلاص وإيمان فلا يمكن له أن يقبل سواها لأنها ستلبي له كل احتياجاته الفكرية ، وسيجد فيها كل ما يمكن أن يفكر فيه ، وبذلك لن يكون أمام المسلم من خيارات فكرية ومعتقدية مطروحة للمفاضلة .

قال تعالى " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل "[1] ، وتوضح هذه الآية الكريمة أن الله كما لم يجعل للرجل من قلبين في جوفه لم يجعل له عقلين ، ولم يجعل لعقله إمكانية أن يعتنق معتقدين في آن واحد ، أو يجمع بين المعتقد ونقيضه في ذات الوقت .

أما بالنسبة إلى حرية التعبير عن الرأي وهو الحق الثاني فيما يتعلق بالحريات الفكرية ، فما يهمنا هنا هو الموضوع محل هذا الحق أو هذه الحرية ، فهل التعبير عن الرأي يتم بخصوص المعتقد أو العقيدة ، أم أنه يتعلق بقضايا ومسائل أخرى غير العقيدة ؟ .

معلوم أن المعتقد أو العقيدة إذا وصلت إلى مرحلة العقيدة أو الاعتقاد فهي لم تعد قابلة للجدل ، ولم يعد يجدي معها حرية الرأي أو تعدد الآراء ، فقد سبق للفرد أن فاضل وقارن ثم أختار العقيدة واعتنقها ، وهذا هو حال العقيدة الإسلامية ، فالمسلم الذي اتخذ من الإسلام عقيدة لم يعد يملك إزاء هذه العقيدة رأياً آخر أو توجهاً مغايراً ، ولم تعد تلك العقيدة قصراً على العقل والفكر بل تعدت ذلك فرسخت في العقل ووقرت في القلب .

وفيما عدا العقيدة يمكن للمسلم أن يعرب عن رأيه الحكيم والمتزن في كافة القضايا الحياتية التي لم يرد بخصوصها نص شرعي من القرآن الكريم أو السنة المطهرة ، فالمسلم كيّس فطن حباه الله نعمة العقل لكي يفكر في خلق الله ويتدبر آياته ويجتهد في ما ليس فيه حكم من الله أو من رسوله

وللتعبير عن الرأي أصول وقواعد ينبغي على المسلم أن يتعلمها ويتقنها ، فالتعبير عن الرأي يُعرف شرعاً بالاجتهاد ، والأخير واجب على كل مسلم يمتلك مؤهلات ومقدرات القيام بالاجتهاد ، فالمجتهد يحترم آراء الآخرين ولا يحط من قدرها ، ولا يأخذه الغرور إذا

---

[1]. سورة الأحزاب : ٤ .

أصاب أو يصيبه اليأس إذا أخطأ ، وينتقد بهدف التقويم والبناء ولا ينتقد بهدف الهدم والانتقاص من قدر الآخرين ، يقدم آراءه واجتهاداته في شكل نصائح مسداة وإرشادات مهداه .

* الحريات السلوكية أو الفعلية :

ننتقل من الحريات الفكرية إلى الحريات السلوكية أو الفعلية ، وهي الحريات التي تتضمن حق الفرد في القيام بتصرفات معينة أو سلوك سلوكيات محددة ، وتتجسد الحريات السلوكية في مجموعة من التصرفات يمكن تناولها في الآتي :

- حرية التملك : حق التملك في الإسلام مكفول للجميع ، ولكن بما لا يتعارض مع قوانين الدولة ، والالتزام بأداء ما تفرضه الدولة على الممتلكات من حق عام أو زكاة .

- حرية التصرف : كافة التصرفات متاحة أو مباحة في الإسلام إلاّ ما حرّم بنص ، فللمسلم الحق في أن يبيع ويشتري وينتقل ويملك إلى آخر هذه التصرفات ، أما السلوكات أو التصرفات المحرمة شرعاً فمعروفة ومعلومة للجميع بحكم النصوص .

- حرية الإقامة لغير المسلمين : كذلك يحق لغير المسلم أن يقيم في المجتمع الإسلامي مع احتفاظه بدينه ، ويمارس حياته وعبادته بالشكل المعتاد ، ويمكن دعوته للدخول في الدين الإسلامي ، ولكن لا يُكره ولا يُجبر على ذلك ،

قال تعالى " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم " .[1]

[1]. سورة البقرة : ٢٥٦ .

المبحث الخامس

الوظيفة الاتصالية للدولة في الإسلام

الوظيفة الاتصالية هي إحدى القيم السياسية المهمة في نسق القيم السياسية الإسلامية وهذه الوظيفة الاتصالية هي تعبير عن الرسالة الإنسانية للإسلام ودولته ، كما أن هذه القيمة هي قيمة حضارية بالأساس ، ويمكن تناول هذه الوظيفة من خلال الآتي :

أولاً : معنى الوظيفة الاتصالية للدولة في الإسلام :

الوظيفة الاتصالية للدولة الإسلامية تعني عملية التواصل الفكري والثقافي والحضاري والتفاعل الإنساني بين الدولة الإسلامية والعالم الخارجي ، ويحتوي هذا التعريف للوظيفة الاتصالية على مجموعة من العناصر نبرزها في الآتي :

* الوظيفة الاتصالية إحدى مهام الدولة في الإسلام ، وسبب من أسباب وجودها ، وهذا ينفي ما يردده المرجفون من أن الدولة في الإسلام كيان منعزل سلبي لا يميل إلى الاندماج أو التفاعل مع العالم الخارجي .

* الوظيفة الاتصالية عملية متكاملة تفترض قيام شبكة من العلاقات والتفاعل بين الدولة الإسلامية والعالم الخارجي ، فهي ليست حالة وقتية أو عرض زائل ولكنها عملية لها طابع الدوام والاستمرارية .

• الوظيفة الاتصالية تفترض قيام تواصل فكري وحضاري وتفاعل إنساني ، وذلك يعني امتلاك الدولة الإسلامية القدرة على العطاء والتفاعل ، واكتساب خاصية الفرز والتمييز بين المتداول والشائع من الأفكار وانتقاء ما هو سوي صالح .

• الوظيفة الاتصالية قد توجه إلى الدول الإسلامية أو الأقليات الإسلامية داخل الدول غير الإسلامية ، وقد توجه كذلك إلى دول وحضارات غير إسلامية .

• الوظيفة الاتصالية للدولة الإسلامية تنطلق من منطلقات ثابتة واضحة ، وتهدف إلى تحقيق أهداف معروفة ومحددة سلفاً .

• الوظيفة الاتصالية توجه إلى المهتم بالإسلام لتزيد من اهتمامه وتحوله إلى صاحب عقيدة ، وإلى غير المهتم لتجعل منه مهتماً بالإسلام .

ثانياً : منطلقات الوظيفة الاتصالية للدولة في الإسلام :

للوظيفة الاتصالية للدولة في الإسلام منطلقان أساسيان تنطلق منهما تلك الدولة إلى العالم الخارجي ، ويمكن تناول هذين المنطلقين في الآتي :

• الرسالة الإنسانية للإسلام :

المنطلق الأول يعني أن للإسلام رسالة إنسانية سامية موجهة إلى العالم أجمع ، لا تعرف جنساً بعينه ، ولا تقصد أصلاً بذاته ، ومن هذا المنطلق نلحظ انتشار الإسلام في دول كثيرة من العالم ، إذا لم يكن كل دول العالم بدون استثناء ، فلقد أصبحنا نجد المسلمين في كل

دول العالم حتى ولو كانوا أقليات ، وهذا يفسر كون الأمة الإسلامية لا تعتمد إلاّ رابطة الدين أساساً لوجودها وقاعدة لكيانها .

ورسالة الإسلام تتبلور في الدعوة إلى الفضيلة التي هي الخير والصلاح ، والوصول إلى ذلك يتم من خلال الإيمان بالله وطاعته في الحياة الدنيا ، والانتهاء إلى مستقر رحمته التي هي جنة المأوى ، ومن ثم فالإسلام دعوة إلى الخير في الدنيا والآخرة .

قال تعالى " ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين ءاياته للناس لعلهم يتذكرون " .[1]

وقال تعالى " والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشآء إلى صراط مستقيم " .[2]

* القيمة الفكرية الثقافية والحضارية للإسلام :

الإسلام ليس ديناً فقط ولكنه فكر وثقافة وحضارة بكل أبعادها ومشتملاتها ، فالإسلام يقدم إسهامه في كل مجالات الحياة ويدلو بدلوه في كل ثابت وعارض ، ويملك نظرته الخاصة ومنهجه المميز لكل جانب من جوانب المجتمع وشأن من شئونه .

مما تقدم نخلص إلى أن الإسلام يقدم الفكر والنظر في تصور متكامل وإطار شامل لحياة المجتمع البشري ، ثم هو كذلك يقدم القواعد والأصول المنظمة لتفاعل الإنسان مع حركة الحياة في هذا الكون الفسيح ، فهو إذن يعطي إطار الفكر ونموذج الحركة في تناغم وتوافق

---

1. سورة البقرة : ٢٢١ .
2. سورة يونس : ٢٥ .

بديع لا يستوعبه ولا ينسجم معه إلا من فهم الإسلام حق الفهم وتعامل معه كفكر كحضارة وليس كدين وشعائر فقط .

إن من يتعامل مع الإسلام بوصفه شعيرة ونسكاً ، يشعر بأنه أشمل وأثرى وأوسع من ذلك ، فهو عطاء وإسهام ومقدرة فائقة على التعامل والتفاعل والتمييز بين القيّم النفيس والغث الرخيص ، هكذا الإسلام قيمة حضارية لا يثمنها إلا أولو النهى .

قال تعالى " قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين " .[1]

وقال تعالى " إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كآفة كما يقاتلونكم كآفة واعلموا أن الله مع المتقين " .[2]

وقال تعالى " ما تعبدون من دونه إلآ أسمآء سميتموهآ أنتم وءاباؤكم مآ أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلآ إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .[3]

وقال تعالى " قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً " .[4]

---

1. سورة الأنعام : ١٦١ .
2. سورة التوبة : ٣٦ .
3. سورة يوسف : ٤٠ .
4. سورة الكهف : ٢ .

وقال تعالى " فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .[1]

وقال تعالى " فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون " .[2]

وقال تعالى " فيها كتب قيمة * وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جآءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفآء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة " .[3]

ثالثاً : أهداف الوظيفة الاتصالية للدولة في الإسلام :

تتمثل أهداف الوظيفة الاتصالية للدولة في الإسلام في الآتي :

* الدعوة إلى دين الله :

أول أهداف الوظيفة الاتصالية هو الدعوة إلى دين الله ، فالدولة الإسلامية في سياستها الخارجية لا تغفل عن الدعوة إلى دين الله ، وهذه المهمة بمثابة مواصلة للدعوة الإسلامية التي بدأها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعون لهم .

[1]. سورة الروم : ٣٠ .
[2]. سورة الروم : ٤٣ .
[3]. سورة البينة : ٣-٥ .

قال تعالى " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين " .[1]

وقال تعالى " لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر ، وادع إلى ربك انك لعلى هدى مستقيم " .[2]

وقال تعالى " ولا يصدنك عن ءايات الله بعد إذ أنزلت إليك ، وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين " .[3]

وقال تعالى " وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً " .[4]

وقال تعالى " فلذلك فادع واستقم كمآ أمرت ولا تتبع أهوآءهم وقل ءامنت بمآ أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنآ أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير " .[5]

من الآيات السابقة نلحظ أن هناك أمراً من الله سبحانه وتعالى بالدعوة إليه وإلى دينه الحنيف ، ويجب على المسلمين مواصلة الدعوة إلى دين الله التي بدأها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

كذلك أوضحت الآيات الكريمة أصول الدعوة إلى دين الله ، وتتحدد تلك الأصول في الآتي :

---

[1]. سورة النحل : ١٢٥ .
[2]. سورة الحج : ٦٧ .
[3]. سورة القصص : ٨٧ .
[4]. سورة الأحزاب : ٤٦ .
[5]. سورة الشورى : ١٥ .

– الإلمام بأهم خصائص الإسلام والمتمثلة في النزعة الإنسانية والسمة الحضارية التي تمثل في ذات الوقت منطلقات الدعوة الإسلامية .

– ترتكز الدعوة الإسلامية في شق كبير منها على تقديم الأنموذج للمسلم فكراً وسلوكاً فذلك أبلغ من الكلام وأجدى من الحديث .

– الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة التي تعني كتاب الله وسنة رسوله الكريم .

– الدعوة إلى سبيل الله بالموعظة الحسنة التي تعني الإرشاد إلى أوامر الله وزواجره .

– في حالة اللجوء إلى المناظرة والجدال فليكن بالوجه الحسن وبالرفق ولين الجانب وحسن المنطق والخطاب .

ومما سبق نلحظ أن الدعوة توجه إلى فئتين :

○ الفئة الأول : هي الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة ، لضمان استمرار التواصل بين أبناء الأمة الإسلامية ، ورعاية تلك الأقليات وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من فتاوى وآراء ، ودعم قضاياها وربطها بالأمة الإسلامية .

○ الفئة الثانية : هي الدول غير المسلمة ، حيث تستهدف الدعوة خلق حالة من الاهتمام بالإسلام ثم تحويل حالة الاهتمام إلى حالة من الولاء ثم الإيمان واعتناق الإسلام ، ويتم هذا التطور في الدعوة عبر منطلقات متتابعة من التأثيرات على تلك المجتمعات غير المسلمة .

* إبراز القيم الإسلامية :

تهدف الوظيفة الاتصالية للدولة في الإسلام في مقدمة ما تهدف إليه إلى إبراز ونشر القيم الإسلامية ، ويعد هذا الهدف غاية في الأهمية والحساسية ، ولتحقيق هذا الهدف جملة من الممارسات نذكر أهمها في الآتي :

- نشر وإصدار وترجمة المؤلفات الإسلامية التي تتناول موقف الإسلام من القضايا المعاصرة ، وكذا الفكر الإسلامي المعاصر تجاه القضايا السياسية والاقتصادية والفكرية وكذا المؤلفات التي تحمل تطبيقات ونماذج الطرح الإسلامي في مجالات السياسة والحكم واستراتيجيات الإنماء الاقتصادي والتكافل الاجتماعي .

- الاشتراك في المؤتمرات والندوات والمنتديات العالمية من خلال باحثين ومفكرين ثقاة في مجال الدراسات والفكر الإسلامي لتقديم الطرح الإسلامي تجاه المستجدات والتطورات ، وتعد هذه اللقاءات فرصة طيبة لشرح منطق الإسلام الثقافي ورسالته الإنسانية في التعامل مع تلك المستجدات والتطورات .

- عقد الندوات والمؤتمرات والمنتديات العالمية خصيصاً لإطلاع رواد الفكر وصانعيه وأعلام الحركة وقياداتها على الطروحات الإسلامية والمساهمات الفكرية في شتى المجالات ، واستطلاع آراء المشاركين لتصحيح الخاطئ منها وتزكية الصائب .

- إقامة المراكز الإسلامية التي تكون بمثابة المنارات لنشر الإشعاع الفكري الإسلامي في جميع أنحاء العالم ، وتكثيف الضوء على القيم الإسلامية في الفكر والسلوك ، وشرح التجارب والتطبيقات النظمية الإسلامية .

- إقامة جامعات ومعاهد ومراكز للبحوث والدراسات الإسلامية ، لتدريس العلوم الدينية ، واستقبال كافة الدارسين من جميع أنحاء العالم ومن كافة الثقافات والجنسيات والديانات ، وكذا إجراء الدراسات والبحوث التي تهتم بإبراز منطق الإسلام في التعامل مع القضايا المعاصرة .

* الاحتكاك بالحضارات الأخرى :

احتكاك الدولة الإسلامية بالحضارات الأخرى أصبح حتمية تفرضها ظروف العصر وتطورات الواقع ، فلا يعقل أن تعيش دولة في عزلة عن العالم بمستجداته ومتغيراته كذلك فحتمية الاحتكاك بالمفهوم السابق مهمة في ذات الوقت للدولة الإسلامية لتحقيق أهدافها وإحراز غاياتها ، ولهذا الاحتكاك أشكال وأهداف نفصلها فيما يلي :

- أشكال الاحتكاك بالحضارات الأخرى :

لاحتكاك الدولة الإسلامية بالحضارات الأخرى والثقافات المنتشرة في العالم أشكال عديدة يمكن الحديث عن بعضها في الآتي :

○ التماس الفكري : حيث تتماس الدولة الإسلامية مع الحضارات والثقافات الأخرى في شتى أنحاء العالم فيما يتعلق بأفكار معينة وآراء محددة ، وإذا كانت الدولة الإسلامية تقف على المحتوى الفكري لتلك الحضارات والثقافات تجاه تلك الأفكار والآراء ، فهي مطالبة بأن تدفع بمنطقها الخاص وطرحها الذاتي تجاه نفس تلك الأفكار والآراء ، والمثال الراهن على ذلك هو إشكالية ما يُعرف بالعولمة .

○ التلاقي القيمي : فقد تلتقي الدولة الإسلامية مع الحضارات والثقافات الأخرى حول قيم معينة ومبادئ محددة مثل محاربة الفقر والجهل ومساعدة الدول المتخلفة وقضايا الإنماء والإحداث ، وهذا التلاقي الذي يتم بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى عبر المحافل الدولية ، يحتاج إلى إزكاء ودعم موقف الأولى ، وإبراز الموقف الإنساني والمنطق الثقافي للإسلام تجاه تلك القيم والمبادئ .

○ العناق الحضاري : حيث يضاف إلى ما تقدم العناق والتلازم والتماسك الذي يتم بين الحضارة الإسلامية ممثلة في الدولة الإسلامية وبين حضارات أخرى تمثلها دول أخرى من أجل دعم القضايا الإسلامية مثل قضية الأقليات المسلمة وقضية الصراع العربي الإسرائيلي .

○ العلاقات الاقتصادية : التي تقيمها الدولة الإسلامية مع دول العالم المختلفة للاستفادة من تلك العلاقات اقتصادياً ومادياً ، واعتبار هذه العلاقات مدخلاً لترسيخ ودعم أشكال الاحتكاك الأخرى — التي سبق تناولها — ومعلوم أن العلاقات الاقتصادية تتم بين أي طرفين في اتجاهي الأخذ والعطاء ، ومن ثم تكون الفرصة أوفر لإثمار الاحتكاك .

○ مد الجسور العلمية والتقنية : حيث تعمد كافة الدول في العالم إلى مد الجسور بين بعضها البعض للاستفادة من الاكتشافات العلمية والابتكارات التقنية ، وكذلك تفعل الدولة الإسلامية في الاستفادة من تلك التطورات ، وهذا النوع من الاحتكاك شائع في العالم وتستثمره كافة الدول .

– أهداف الاحتكاك بالحضارات الأخرى :

يهدف الاحتكاك الحضاري بين الدولة الإسلامية والعالم الخارجي إلى الآتي :

o تتمثل أول أهداف الاحتكاك مع الحضارات والثقافات الأخرى في اكتساب الخبرة بكافة أشكالها وأنواعها .

o كذلك يهدف الاحتكاك بالحضارات والثقافات الأخرى إلى التدليل على أن الإسلام يمثل نظاماً اجتماعياً وحضارة متكاملة وليس مجرد ديانة وشعيرة فقط .

o يضاف إلى ما تقدم أن الاحتكاك بالحضارات والثقافات الأخرى يهدف كذلك إلى إثبات أن للإسلام رسالة إنسانية خالدة ترتكز على التواصل والتفاعل مع الحضارات والثقافات الأخرى فيأخذ منها ويعطيها .

▪ استقطاب ما يفيد المجتمع الإسلامي من الحضارات الأخرى :

الدولة الإسلامية تتعامل مع العالم الخارجي وتتفاعل مع الحضارات والثقافات المختلفة بحنكة ودراية نابعة من طبيعة الدين الإسلامي — التي سبق أن أوضحناها — ويرتكز هذا التعامل على قاعدة أساسية وركيزة رئيسية هي استقطاب ما يفيد المجتمع الإسلامي من الحضارات الأخرى . وهذه القاعدة تفترض امتلاك الدولة الإسلامية لأدوات وآليات خاصة بالفرز والتمييز بين القيم المفيدة والأخرى التي لا تصلح للتعايش مع المجتمع الإسلامي .

وتتمثل الأدوات والآليات خاصة بالفرز والتمييز في نسق القيم الإسلامية الذي يعد بمثابة المعايير والمقاييس والضوابط التي تفصل بين القيم الصالحة للتعايش مع المجتمع الإسلامي والأخرى التي لا تتواءم مع خصائص ذلك المجتمع وسماته ، ولا تقتصر القيم القابلة للاستقطاب إلى المجتمع الإسلامي على القيم المعنوية فقط أو المادية فقط ، ولكن يمكن نقل كافة القيم المادية والمعنوية ولكن شريطة التواؤم مع المجتمع الإسلامي .

الفصل الخامس

مسئولية النصح والتوجيه

للقائمين على المنهاج الإسلامي

في هذا الفصل ننتقل إلى مناقشة إحدى أهم خصائص المنهاج الإسلامي أو إن شئنا القول النظام السياسي الإسلامي . ألا وهي خاصية النصح والتوجيه للفاعلين في ذلك المنهاج أو القائمين على شئونه والمصرّفين لأموره ، وهذه الخاصية التي وردت بصفتها جزئية متميزة وعنصراً متفرداً ضمن مفردات المنظومة الفكرية للسياسة والحكم في الإسلام أو النظرية السياسية الإسلامية . ظل الفكر البشري الموضوع يبحث عنها سنوات طوال . ويتجشم في سبيل إقرارها المشاق والصعاب .

منذ أن توصل الفكر الإنساني إلى الصياغات الأولية لعناصر الحكم . والتي تجسدت في الدولة والنظام السياسي والحكومة ؛ تزامن مع ذلك التفكير في كيفية مراقبة من يملك السلطة حتى لا يسيء استعمالها ، وكيفية توجيه من يصنع القرار ورده إلى جادة الصواب إن حاد عن الطريق الصحيح . وهكذا كان الفكر السياسي البشري مهموم بأمور الرقابة على السلطة وشئون سلامة صنع القرار .

وظل الفكر السياسي يبتدع الوسائل ويبتكر الأدوات . مصيباً مرة ومخطئاً مرات ، وانتهى إلى ضرورة الرقابة على السلطة والسيطرة على صناعة القرار . ثم عاد وتساءل مرة أخرى كيف يمكن فرض الرقابة وتمكين السيطرة ؟ وتردد بين إجراءين :

الإجراء الأول : أن يختلق سلطة مستقلة تكون مهمتها الرقابة والسيطرة . ولكن ذلك لن يكون مجدياً من الناحية العملية ، فتحول إلى الإجراء التالي .

الإجراء الثاني : رقابة السلطات على بعضها البعض ، كأن تقوم السلطة التشريعية بالرقابة على السلطة التنفيذية ، وتتولى المحكمة الدستورية العليا مراقبة جميع السلطات ،

من خلال الدستور الذي يخضع الجميع لنصوصه وأحكامه ، وهكذا عالج الفكر السياسي البشري مشكلة النصح والتوجيه لولي الأمر أو الحاكم .

أما منطق الإسلام في التعامل مع هذه المسألة ، فكان ذا خصوصية وتميز نابعين من كونه شريعة إلهية ، وكذا من مجمل مفردات الطرح الإسلامي فيما يتعلق بالسياسة والحكم .

في البداية يحدد الإسلام الحالات التي تستوجب قيام مسئولية النصح والتوجيه ، وهذه الحالات وتحديدها مسألة غاية في الدقة ونهاية في الحساسية ، وليس في وسع أي إنسان أن يدعي بوجود حالة أو حالات مما يستوجب مسئولية النصح والتوجيه للقائمين على المنهاج الإسلامي والفاعلين فيه ، بل ينبغي أن يحدد ذلك ويقره أهل الخبرة والعلم والعارفون بالأمور وشئون السياسة والحكم .

وإذا ظهر من الأمور والأحوال ما يستوجب قيام مسئولية النصح والتوجيه والإقرار بذلك من قبل الثقاة من علماء الأمة وكبرائها ، تصبح تلك المسئولية أمراً واجباً ، على أن يراعى أن لتلك المسئولية من هم أهلٌ لحملها والقيام بها على خير وجه وأكمل صورة .

ولما كانت مسئولية النصح والتوجيه تتسم بالحساسية والخطورة ، ولا تحتمل الهرج والمرج وتدخل السوقي والغوغاء . مما يترتب عليه الفساد والإفساد في الأرض ، لذا فقد حدد الشرع الحنيف كيفية النصح والتوجيه . وعلى من يلقى عبء هذه المسئولية الخطيرة ، وكيف يحاط ولي الأمر أو الحاكم خُبراً بالأمور والأحوال التي تحتاج إلى مراجعة وإعادة نظر ومعالجة ، وأن يتم ذلك بحكمة بالغة وتريث وتعقل .

ويمكن لنا مناقشة هذه المسألة في خمسة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : الحالات التي تستوجب قيام مسئولية النصح والتوجيه .

المبحث الثاني : تقديم النصيحة لولي الأمر أو الحاكم في الإسلام .

المبحث الثالث : من له أهلية القيام بمسئولية النصح والتوجيه .

المبحث الرابع : وسائل وأدوات القيام بمسئولية النصح والتوجيه .

المبحث الخامس : ماذا لو لم يمتثل ولي الأمر أو الحاكم للنصح والتوجيه .

المبحث الأول

الحالات التي تستوجب قيام مسئولية النصح والتوجيه

مسئولية النصح والتوجيه تصبح واجبة عند ظهور حالات معينة ، تعد في إجمالها دليلاً على خروج ولي الأمر أو الحاكم عن عهد وميثاق البيعة ، ويمكن تناول تلك الحالات في الآتي :

أولاً : احتجاب ولي الأمر أو الحاكم عن شعبه :

احتجاب ولي الأمر أو الحاكم عن شعبه وعن ذوي الحاجة يعد من الأمور التي تستوجب النصح والتوجيه ، قال أبو صالح الغفاري : كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنا خططنا لك داراً عند المسجد الجامع ، فكتب إليه عمر : أنّى لرجل من الحجاز تكون له دار بمصر ، وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين .[1]

وعن أبي تميم الجيشاني رضي الله عنه قال : كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما :" أما بعد ، فإنه بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب الناس ، أو ما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبيك ، فعزمت عليك لما كسرته " .[2]

وعن أبي عثمان رضي الله عنه قال : كتب إلينا عمر رضي الله عنه ونحن بأذربيجان :" يا عتبة بن فرقد ، إنه ليس من كدك ، ولا من كد أبيك ، ولا من كد أمك ، فأشبع المسلمين

---

1. الكاندهلوي ، حياة الصحابة ، الجزء الثاني ، ص ٧١ .
2. المرجع السابق : ص ص ٧١-٧٢ .

في رحالهم مما تشبع منه في رحلك ، وإياكم والتنعم ، وزى أهل الشرك ، ولبوس الحرير " .[1]

وعن أبي بكرة وأبي هريرة رضي الله عنهما أنه بلغ عمر رضي الله عنه أن سعد بن أبي وقاص يحتجب عن شعبه ، ويغلق الباب دونهم ، فبعث عمار بن ياسر رضي الله عنه وأمره إن قدم — والباب مغلق — أن يشعله ناراً .[2]

ثانياً : تعالي ولي الأمر أو الحاكم وترفعه على شعبه :

كذلك من الحالات التي تستوجب تقديم النصح والتوجيه لولي الأمر أو الحاكم تعاليه وترفعه على شعبه ، وقد أمر الله تعالى ورسوله الكريم أولياء الأمور بالإحسان إلى الرعية وإلانة الجانب لهم والتواضع معهم ، وقد سبق لنا إيضاح ذلك تفصيلاً .

وروى بن عساكر عن عروة بن رويم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصفح الناس فمر به أهل حمص فقال : كيف أميركم ؟ قالوا : خير أمير ، إلاّ أنه بني علّية يكون فيها ، فكتب كتاباً وأرسل بريداً ، وأمره أن يحرقها ، فلما جاءها جمع حطباً وحرق بابها . فأُخبر بذلك ، فقال : دعوه فإنه رسول ، ثم ناوله الكتاب ، فلم يضعه من يده حتى ركب إليه . فلما رآه عمر رضي الله عنه قال : ألحقني إلى الحرة وفيها إبل الصدقة ، قال : أنزع ثيابك ، وألقى إليه نمرة من أوبار الإبل ، ثم قال : أفتح وأسق هذه الإبل ، فلم يزل ينزل حتى تعب ، ثم قال : متى عهدك بهذا ؟ قال : قريب يا أمير المؤمنين ، قال :

---

1. المرجع السابق : ص ٧٢ .
2. المرجع السابق ، ٧٣ .

فلذلك بنيت العلّية ، وارتفعت بها على المسكين والأرملة واليتيم ، إرجع إلى عملك ولا تعد .[1]

ثالثاً : إذا كان ولي الأمر أو الحاكم لا ينهى عن المنكر ولا يأمر بالمعروف :

في هذه الحالة يكون ولي الأمر أو الحاكم قد انحرف عن المنهج القويم وحاد عن الشرع الحنيف ، حيث لم يعد يأمر بالمعروف ويحض على فعل الخير ، ولم يعد ينهى عن المنكر ، ويستقبح القبيح ، ويغضب لانتهاك حرمات الله .

رابعاً : إذا أهمل ولي الأمر شئون الحكم ولم يعمل على تحقيق أهداف الدولة :

المهمة الأساسية لولي الأمر أو الحاكم تتمثل — كما سبق الإيضاح — في تحقيق أهداف الدولة التي من أهمها تسيير شئون الحكم وتصريف أمور الرعية ، وإذا تقاعس ولي الأمر عن تحقيق هذه المهمة فقد نقض عهد البيعة الذي عاهد عليه شعبه إذ أنه قد عاهد شعبه حين بايعه على أن يحقق أهداف الدولة الإسلامية ويحمي مصالح الرعية .

---

1. المرجع السابق ، ص ٧٢ .

المبحث الثاني

تقديم النصيحة لولي الأمر أو الحاكم في الإسلام

الحالات التي سبق رصدها في المبحث المتقدم إذا ظهرت في أحد المجتمعات الإسلامية ، كان من الواجب تقديم النصيحة لولي الأمر أو الحاكم ، وتحمل مسئولية تقديم النصح والتوجيه في هذه الحالة يصبح أمراً واجباً شرعاً ، وقد بين ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة والممارسات السياسية المأخوذة من فترة الخلافة الراشدة ، ونوضح ذلك في الآتي :

أولاً : القرآن الكريم :

أوضح الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز أن تقديم النصح والتوجيه أمر واجب شرعاً حتى تقام الحجة على المارق على الحق الخارج عن الصواب ، وتقديم النصيحة كان يتم من الأنبياء والرسل إلى الأقوام التي بعثوا فيها والأمم التي أُرسلوا إليها ، كما تقدم النصيحة كذلك مِن كل مَن يملك مؤهلات ومقدرات تقديمها ، وتقدم إلى كل من يتولى أمراً من أمور المسلمين .

قال تعالى " أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون "[1]، أوضحت هذه الآية الكريمة شأن رسول الله نوح مع قومه ، فقد كان ناصحاً لهم ، عالماً من الله ما لا يعلمون .

---

[1] سورة الأعراف : ٦٢ .

وقال تعالى " أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين "[1]، كذلك حملت هذه الآية خبر نبي الله هود مع قومه إذ قدم لهم النصح والتحذير فوصفوه بالسفاهة والكذب .

وقال تعالى " فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت ولكن لا تحبون الناصحين "[2]، وهكذا كان شأن صالح عليه السلام مع قومه ، وقد أوضحته هذه الآية .

وقال تعالى " فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف ءاسى على قوم كافرين "[3]، وكذلك كان شأن شعيب مع قومه الذين نصحهم فكفروا برسالته .

وقال تعالى " ليس على الضعفآء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم " .[4]

وقال تعالى " ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون " .[5]

وقال تعالى " وجآء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين " .[6]

[1]. سورة الأعراف : ٦٨ .
[2]. سورة الأعراف : ٧٩ .
[3]. سورة الأعراف : ٩٣ .
[4]. سورة التوبة : ٩١ .
[5]. سورة هود : ٣٤ .
[6]. سورة القصص : ٢٠ .

ثانياً : السنة النبوية الشريفة :

كذلك وردت أحاديث كثيرة للرسول في مسألة النصح والتوجيه ، فعن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" الدين النصيحة قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " .

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

وجاء في صحيح مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً :" أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون ؟ " ، قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ؛ فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول :" اللهم اشهد اللهم اشهد " .

وعن ثمامة رضي الله عنه قال " قال الحواريون : يا روح الله ، أخبرنا عن الناصح لله ؟ قال : الذي يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة ؛ بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا .

ثالثاً : فترة الخلافة الراشدة :

كذلك كانت الممارسات في مجال النصح والتوجيه في فترة الخلافة الراشدة يعتد بها فيما يتعلق بالطرح الإسلامي في السياسة والحكم .

فعن مكحول أن سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني أريد أن أوصيك يا عمر . قال : أجل فأوصني قال : " أوصيك أن تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس في الله ، ولا يختلف قولك وفعلك ، فإن خير القول ما صدقه الفعل . لا تقض في أمر واحد بقضاءين فيختلف عليك أمرك وتزيغ عن الحق ، وخذ بالأمر ذي الحجة تأخذ بالفلج . ويعينك الله ويصلح رعيتك على يديك ، وأقم وجهك وقضاءك لمن ولاك الله أمره من بعيد المسلمين وقريبهم وأحب لهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك وأكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك ، وخض الغمرات إلى الحق ، ولا تخف في الله لومة لائم " .

فقال عمر : من يستطيع ذلك ؟ فقال سعيد : مثلك . من ولاه الله أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثم لم يحل بينه وبين الله أحد .[1]

وعن عبد الله بن بريدة ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمع الناس لقدوم الوفد فقال لأزنة بن أرقم : أنظر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فأذن لهم أول الناس ثم القرن الذين يلونهم ، فدخلوا فصفوا قدامه . ثم أذن لبعضهم ، إلى أن دخل عليه ربيع بن زياد ، فوثب فحمد الله ، وأثنى عليه ، ووعظ بالله ثم قال : " إنك وليت أمر هذه الأمة فاتقي الله فيما وليت من أمر هذه الأمة . وأهل رعيتك في نفسك خاصة . فإنك محاسب ومسئول

[1] الكاندهلوي ، حياة الصحابة ، مرجع سابق ، الجزء الثاني ، ص ص ١١٨-١١٩ .

، وإنما أنت أمين ، وعليك أن تؤدي ما عليك من الأمانة ، فتُعطى أجرك على قدر عملك " ، فقال : ما صدقني رجل منذ استخلفت غيرك ، من أنت ؟ قال : أنا ربيع بن زياد .[1]

وعن محمد بن سوقة قال : أتيت نعيم بن أبي هند ، فأخرج إليَّ صحيفة ، فإذا فيها :" من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب ، سلام عليك ، أما بعد فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم ، فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة ، أحمرها وأسودها ، يجلس بين يديك الشريف والوضيع ، والعدو والصديق ، ولكل حصته من العدل ، فأنظر كيف أنت عند ذلك يا عمر ، فإنا نحذرك يوماً تعني فيه الوجوه ، وتجف فيه القلوب وتنقطع فيه الحجج لحجة ملك قهرهم بجبروته ، فالخلق داخرون له يرجون رحمته ، ويخافون عقابه ، وإنا كنا نحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونوا إخوان العلانية ، أعداء السريرة ، وإنا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا إليك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا ، فإنما كتبنا به نصيحة لك والسلام عليك " .[2]

فكتب إليهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه :" من عمر بن الخطاب إلى عبيدة بن الجراح ومعاذ ، سلام عليكما ، أما بعد ، أتاني كتابكما ، تذكران أنكما عهدتماني وأمر نفسي لي مهم ، فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة ، أحمرها وأسودها ، يجلس بين يدي الشريف والوضيع ، والعدو والصديق ، ولكل حصته من العدل ، وكتبتما : فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر . وإنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله عز وجل ، وكتبتما تحذراني ما حذرت من الأمم قبلنا ، وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار ، وكتبتما تحذراني أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونوا إخوان العلانية

1. المرجع السابق ، ص ص ١١٩-١٢٠ .
2. المرجع السابق ، ص ص ١٢٠-١٢١ .

أعداء السريرة ، ولستم بأولئك ، وليس هذا بزمان ذاك ، وذلك زمان تظهر فيه الرغبة والرهبة ، تكون رغبة الناس بعضهم إلى بعض لصلاح دنياهم ، وكتبتما تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما ، وأنكما كتبتما به نصيحة لي وقد صدقتما ، فلا تدعا الكتاب إليّ فإنه لا غنى بي عنكما والسلام عليكما " .[1]

وعن سعيد بن المسيب قال : لما طُعن أبو عبيدة رضي الله عنه بالأردن ، دعا من حضره من المسلمين وقال :" إني موصيكم بوصية ، إن قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة ، وصوموا شهر رمضان ، وتصدقوا ، وحجوا ، واعتمروا ، وتواصوا ، وانصحوا لأمرائكم ولا تخشوهم ، ولا تلهيكم الدنيا ، فإن إمرءاً لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مصيري هذا الذي ترون ، إن الله تعالى كتب الموت على بني آدم فهم ميتون ، فأكيسهم أطوعهم لربه وأعلمهم ليوم معاده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، يا معاذ بن جبل ، صل بالناس " .[2]

---

[1]. المرجع السابق ، ص ص ١٢١-١٢٢ .
[2]. المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

المبحث الثالث

من له أهلية القيام بمسئولية النصح والتوجيه ؟

ننتقل إلى البحث فيمن له أهلية القيام بمسئولية النصح والتوجيه ، حيث أن هذه المسئولية من الجسامة والأهمية بما لا يجعلها حقاً مباحاً لكل فرد ، ولكنها تنعقد لأشخاص ذوى مؤهلات خاصة ، ومقدرات متميزة : والى مزيد من الإيضاح :

أولاً : صفات من يتحملون مسئولية النصح والتوجيه :

لمن يقوم بمهمة النصح والتوجيه داخل المجتمع المسلم صفات محددة ، لابد أن يتصف بها حتى تكون النصيحة الصادرة منه خالصة لوجه الله تعالى ، ولا يطلب من ورائها إلا مصلحة الأمة ، ولا يرتجي إلا رفعة الدين . ومن هذه الصفات ما يلي :

• التجرد عن الهوى :

النصيحة لابد أن تصدر عن شخص محايد وموضوعي ومجرد عن الهوى ، ولا ينتمي إلى أفكار بعينها أو يدافع عن آراء بذاتها .

• التطوع لتحقيق مصلحة الأمة ورفعة الإسلام :

هدف النصيحة ينبغي أن يكون خالصاً لوجه الله ، ولا يستهدف تحقيق أغراض شخصية أو مآرب ذاتية ، فمصلحة الأمة هي المقصد والغاية ، ورفعة الإسلام هي الهدف النهائي .

• العلم والمعرفة :

في مقدمة المؤهلين للقيام بمسئولية النصح والتوجيه أهل العلم والمعرفة بموضوع النصيحة . حتى تصدر النصيحة عن فهم واستيعاب وإدراك . فتثمر وتؤتي أكلها وتحقق أهدافها .

• الخبرة والدراية :

إضافة إلى عناصر العلم والمعرفة والإدراك التي ينبغي أن تتوفر فيمن يقوم بمسئولية إسداء النصح والتوجيه . كذلك يفسح المجال لأهل الخبرة والدراية والتجربة في موضوع النصيحة . لإسداء النصح والتوجيه ، فالتجربة برهان ، والخبرة دعم لإصدار الحكم قياساً .

ثانياً : المؤهلون لإسداء النصح والتوجيه :

استنتاجاً مما سبق يمكن تحديد أشخاص المؤهلين لإسداء النصح والتوجيه في فئتين :

• الفئة الأولى : العلماء :

العلماء سواء أكانوا متخصصين في العلوم الدينية أو الدنيوية . مؤهلون للقيام بمسئولية إسداء النصح والتوجيه لولي الأمر أو الحاكم . شريطة أن يكونوا مهتمين مباشرة أو متخصصين أساساً وأصالة في موضوع النصيحة .

• الفئة الثانية : الخبراء :

والخبراء هم الذين يملكون سوابق خبرة عملية في موضوع النصيحة ، وهم مؤهلون مثل العلماء للقيام بمهمة إسداء النصح والتوجيه .

وقد تستلزم القضية أو المسألة موضوع النصح والتوجيه تكاتف وتضافر علم العلماء وخبرة الخبراء ، ويندمج الفئتان مع بعضهما ، وتجتمع جهودهما لإخراج النصيحة وإسدائها إلى الحاكم أو ولي الأمر .

المبحث الرابع

وسائل وأدوات القيام بمسئولية النصح والتوجيه

إذا تحددت ووضحت الحالات التي تستوجب القيام بمهمة النصح والتوجيه ، وتحددت كذلك صفات المؤهلين للقيام بهذه المهمة السامية الجليلة ، بقي تحديد الوسائل التي يتم عن طريقها نقل النصيحة وتوصيلها إلى أولياء الأمور وأصحاب الشأن ، وثمة طريقتان لنقل وتوصيل النصيحة ، قد تستخدم إحداهما ، وقد تستخدمان معاً في آن واحد وهما :

أولاً : الاتصال المباشر :

ولي الأمر أو الحاكم في الدولة الإسلامية يجل العلماء والخبراء ، ويعرف لهم قدرهم وينزلهم مكانتهم ، ومن ثم فلن يجد هؤلاء العلماء والخبراء صعوبة في الوصول إلى الرئيس أو الحاكم ، وإيضاح كافة الأمور ، والتشاور والتداول فيما هو عارض ، والخروج بما يفيد الأمة ، ويحقق رفعة الدين .

ثانياً : الاتصال غير المباشر :

إذا لم يتيسر الوصول مباشرة إلى الرئيس أو ولي الأمر لتقديم التوجيه وإسداء النصيحة ، فيمكن القيام بذلك من خلال المستشارين والمعاونين ، ولعل الجهة المؤهلة للقيام بمهمة توصيل النصيحة والتوجيه هي مجلس الشورى أو مجلس المستشارين أو الهيئة الاستشارية حسب التسمية المتفق عليها والمعمول بها .

أما ما يحدث في النظم السياسية المعاصرة تحت دعوى الديمقراطية وحرية الرأي ومشروعية المعارضة ، من إبراز المساوئ والمثالب على صفحات الجرائد ، وافتعال الأزمات والفضائح ، فهذا لا يجد له سنداً من قرآن أو سنة أو أية ممارسات سياسية ذات صبغة إسلامية . فالمنهاج الإسلامي أو النظام السياسي الإسلامي له أصولياته وقواعده وتقاليده التي لا يخرج عنها إلا مارقاً ولا يتجاوزها إلا مستهتراً .

ومسئولية إسداء النصح والتوجيه لا تقتصر على العلماء والخبراء الموجودين داخل إقليم الدولة الإسلامية أو من بين رعاياها ، بل إن هذه المسئولية تنعقد كذلك لكافة العلماء والخبراء المسلمين المؤهلين لأداء هذه الأمانة والنابهين المطلعين والملمين المستوعبين للقضية أو المسألة محل النصيحة ، وهم في أي مكان من العالم . ثم الإرسال بنصيحتهم إلى ولي الأمر أو الحاكم في الدولة الإسلامية . وذلك كما ورد في التجارب والنماذج والممارسات السياسية في عهد الخلافة الراشدة .

فعن جبير بن نفير أن عياض بن غنم الأشعري وقع على صاحب دارا حين فتحت ، فأتاه هشام بن حكيم فأغلظ له القول ، ومكث هشام ليالي ، فأتاه هشام معتذراً ، فقال لعياض : ألم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشد الناس عذاباً للناس في الدنيا ، فقال له عياض : يا هشام ، إنا قد سمعنا الذي سمعت ورأينا الذي قد رأيت ، وصحبنا من صحبت ، ألم تسمع يا هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كانت عنده نصيحة لذي سلطان فلا يكلمه بها علانية ، وليأخذ بيده وليخل به ، فإن قبلها قبلها ، وإلا كان قد أدى الذي عليه والذي له ، وإنك يا هشام لأنت المجترئ : أن تجترئ على سلطان الله ، فلا خشيت أن يقتلك سلطان الله فتكون قتيل سلطان الله .[1]

---

[1]. المرجع السابق ، ص ص ٥٧-٥٨ .

المبحث الخامس

ماذا لو لم يمتثل ولي الأمر أو الحاكم للنصح والتوجيه

السؤال الذي يُطرح بإلحاح في هذا الموضع مفاده : كيف يكون التصرف أو رد الفعل إذا لم يستجب ولي الأمر أو الحاكم للنصيحة ويأخذ بها ؟ ويمكن أن نستعرض وجهة النظر التي تتضمن الطرح الإسلامي للإجابة على هذا التساؤل ، وكذا وجهة النظر التي تتضمن الفكر السياسي البشري إزاء هذه القضية من خلال ما يلي :

أولاً : وجهة الفكر السياسي إزاء إشكالية عدم استجابة ولي الأمر للنصح والتوجيه :

لقد عمدنا إلى استطلاع وجهة الفكر السياسي البشري إزاء إشكالية عدم استجابة ولي الأمر للنصح والتوجيه انطلاقاً من حساسية وخطورة هذه الإشكالية على أفراد المجتمع ونظام الحكم ، وإمكانية عقد مقارنة بين وجهة نظر الفكر السياسي والطرح الإسلامي إزاء هذه الإشكالية ، واستيضاح النهج الإسلامي الفريد والمتميز تجاه هذه الإشكالية ، والتدليل على النزعة الحضارية والوازع الإنساني للدين الإسلامي .

ولقد أفرز الفكر السياسي أفكاراً وتوجهات عدة إزاء إشكالية عدم امتثال ولي الأمر أو الحاكم للنصح والتوجيه ، ويمكن تناول تلك الأفكار والتوجهات في عجالة من خلال حزمة الاستخلاصات التالية :

* يربط الفكر السياسي بين مسألة عدم امتثال الحاكم أو ولي الأمر للنصح والتوجيه وبين ظاهرة التغيير السياسي ، التي تعني تغيير النظام السياسي أو الحكومة أو الرئيس أو

الحاكم ، ومن ثم فقد تناول أهم أدوات التغيير السياسي ، ألا وهي الثورة بالتحليل عبر العصور التاريخية المتعاقبة .

* تلمس الفكر السياسي للثورة كأداة للتغيير أسباباً عديدة منها : الأسباب الاقتصادية المتمثلة في انتشار البؤس والفقر ، والأسباب الكامنة في فشل النظام السياسي في تلبية متطلبات أفراد المجتمع ، والأسباب التي ترى في الثورة أداة لاستبدال القوة السياسية أو نظام الحاكم .

* إن الفكر السياسي يرى في عدم استجابة الحاكم ممثلاً لنظام الحكم للنصح والتوجيه عدم استجابة النظام السياسي لمتطلبات التغيير وحتميات التطوير ، وأن ذلك قد أدى إلى إخفاقه في تلبية متطلبات أفراد المجتمع ، وذلك يستوجب التغيير وإقصاء الحاكم .

* وتتم عملية إقصاء الحاكم بالثورة عليه ، واستخدام وسائل العنف والقوة في عزله وهكذا يكون تقويم الحاكم ، وتقويم نظام الحكم في الفكر السياسي .

ثانياً : الطرح الإسلامي إزاء إشكالية عدم استجابة ولي الأمر للنصح والتوجيه :

نلتفت في هذه الجزئية إلى استعراض الطرح الإسلامي تجاه إشكالية عدم استجابة ولي الأمر للنصح والتوجيه ، وذلك من خلال مجموعة من الإجراءات مرتبة كما يلي :

* إسداء النصيحة بطريقة لائقة :

إن الإسلام يقدّر حق التقدير رجل الدولة الأول ، وانطلاقاً من ذلك التقدير والإجلال أوجب تقديم النصيحة له بطريقة تتلاءم مع موقعه ومركزه في الدولة ، وقد سبق أن قدمنا نهج

الشريعة الإسلامية في ما يتعلق بتقديم النصيحة للحاكم أو ولي الأمر ، وكذلك توضح الممارسات العملية في عهد الخلافة الراشدة التطبيق العملي لأسلوب إسداء النصيحة إلى الحاكم أو ولي الأمر بطريقة لائقة .

فعن زيد بن وهب قال : أنكر الناس على أمير في زمن حذيفة رضي الله عنه شيئاً ، فأقبل رجل في المسجد الأعظم يتخلل الناس حتى انتهي إلى حذيفة وهو قاعد في حلقة ، فقام على رأسه فقال : يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ؟ فرفع حذيفة رضي الله عنه رأسه ، فعرف ما أراده ، فقال له حذيفة : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحسن وليس من السنة أن تشهر السلاح على أميرك .[1]

وعن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال في مجلس وحوله المهاجرون والأنصار : أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين ؟ فسكتوا ، فقال ذلك مرتين وثلاثاً ، فقال بشير بن سعد : لو فعلت ذلك لقومناك تقويم القدح فقال عمر : أنتم إذن ، أنتم إذن ! .[2]

وعن موسى بن أبي عيسى قال : أتي عمر رضي الله عنه مشربة بن حارثة فوجد محمد بن مسلمة ، فقال عمر : كيف تراني يا محمد ؟ قال : أراك والله كما أحب وكما يحب من يحب لك الخير ، أراك قوياً على جمع الأموال ، عفيفاً عنه عدلاً في قسمه ، ولو ملت عدلناك كما يعدل السهم في الثقاب ، فقال عمر رضي الله عنه : هاه ! وقال : لو ملت

1. المرجع السابق ، ص ٥٨ .
2. المرجع السابق ، ص ٦٧ .

عدلناك كما يعدل السهم في الثقاب ، فقال : الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني .[1]

، عدم الخروج على الطاعة :

حتى ولو صدر عن الحاكم أو ولي الأمر ما يعد سبباً ومبرراً لإسداء النصيحة ثم لم يستجب للنصح والتوجيه ، فهذا لا يبيح الخروج على الجماعة وشق عصا الطاعة ، فإن ذلك يعرض المجتمع للتمزق ومصالح الناس للدمار والخراب .

فعن زياد بن كسيب العدوى قال : كان عبد الله بن عامر يخطب الناس ، عليه ثياب رقاق ، مرجل شعره ، قال : فصلي يوماً ثم دخل ، قال : وأبو بكرة جالس إلى جوار المنبر ، فقال مرداس أبو بلال : ألا ترون إلى أمير الناس وسيدهم يلبس الرقاق ويتشبه بالفساق ؟ فسمعه أبو بكرة ، فقال لابنه الأصيلع : أدع لي أبا بلال فدعاه له ، فقال أبو بكرة : أما إني قد سمعت مقالتك للأمير آنفاً ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أكرم سلطان الله أكرمه الله ، ومن أهان سلطان الله أهانه الله .[2]

وعن بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في نفر من أصحابه ، فأقبل عليهم فقال : ألستم تعلمون أني رسول الله ، قالوا بلى نشهد أنك رسول الله ، قال : ألستم تعلمون أنه من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن طاعة الله طاعتي ؟ قالوا : بلى ،

1. المرجع السابق ، نفس الصفحة .
2. المرجع السابق ، ص ص ٥٨-٥٩ .

نشهد أنه من أطاعك فقد أطاع الله ، ومن طاعة الله طاعتك قال : فإن من طاعة الله أن تطيعوني ، ومن طاعتي أن تطيعوا أمراءكم . وإن صلوا قعوداً فصلوا قعوداً .[1]

وعن أسماء بنت يزيد أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه كان يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فرغ من خدمته أوي إلى المسجد ، فكان هو بيته يضطجع فيه فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة إلى المسجد ، فوجد أبا ذر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أراك نائماً فيه ؟ قال أبو ذر : أين أنام يا رسول الله ؟ مالي من بيت غيره ، فجلس إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : فكيف أنت إذا أخرجوك منه ؟ قال : إذن ألحق بالشام ، فإن الشام أرض الهجرة . والمحشر . والأنبياء . فأكون رجلاً من أهلها ، قال : فكيف أنت إذا أخرجوك من أرض الشام ؟ قال : إذن أرجع إليه ، فيكون بيتي ومنزلي ، قال : فكيف أنت إذا أخرجوك منه ثانياً ؟ قال : آخذ سيفي فأقاتل حتى أموت ، فشكر إليه رسول الله صلى الله عليه . فأثبته بيده ، فقال : أدلك على ما هو خير من ذلك ؟ قال : بلى ، بأبي وأمي يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تنقاد لهم حيث قادوك ، وتنساق لهم حيث ساقوك حتى تلقاني وأنت على ذلك .[2]

وعن بن أبي مليكة قال : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بامرأة مجزومة وهي تطوف بالبيت ، فقال لها يا أمة الله لا تؤذي الناس ، لو جلست في بيتك ، فجلست ، فمر بها رجل بعد ذلك ، فقال : إن الذي كان نهاك قد مات ، فاخرجي ، قالت : ما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميتاً .[3]

1. المرجع السابق ، ص ص ٥٩-٦٠ .
2. المرجع السابق ، ص ٦٠ .
3. المرجع السابق ، ص ٦٢ .

وعن شمر عن رجل قال : كنت عريفاً في زمن علي رضي الله عنه ، فأمرنا بأمر ، فقال : أفعلتم ما أمرتكم ؟ قلنا : لا ، قال : والله لتفعلن ما تؤمرون به أو لتركبن أعناقكم اليهود والنصارى .[1]

* عدم الطاعة في معصية :

على الرغم من إقرار الشريعة الإسلامية لطاعة ولي الأمر أو الحاكم وتأكيدها على ذلك ، إلاّ أن الطاعة المطلوبة والمرغوبة لا تكون إلاّ في مرضاة الله ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وقد رتبت الشريعة كذلك هذه المسألة ووضعتها في إطارها الصحيح من السلوك الإسلامي العام فيما يتعلق بأمور السياسة والحكم .

وهذه القاعدة تقضي بالامتناع عن فعل ما يغضب الله فقط ، حتى ولو كان أمراً صادراً عن الحاكم أو ولي الأمر ، ولكن دون إساءة إلى الحاكم ، كذلك فعدم الطاعة في معصية لا تعني إثارة الفتن والقلاقل وبث الفتنة والفرقة بين صفوف الجماعة وترويع الناس وهدم الأسس وتقويض القيم التي يقوم عليها المجتمع .

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأنصار على سرية ، بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، قال : فأغضبوه في شيء ، فقال : اجمعوا لي حطباً ، فجمعوا ، فقال : أوقدوا ناراً ، فأوقدوا ثم قال : فأدخلوها ، قال : فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من

[1]. المرجع السابق ، نفس الصفحة .

النار ، قال : فسكن غضبه وطفئت النار ، فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له ، فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها ، إنما الطاعة في المعروف .[1]

وعن عمر رضي الله عنه قال : اسمع وأطع وإن أمر عليك عبد حبشي مجدع . إن ضربك فاصبر ، وإن أمرك بأمر فأتمر ، وإن حرمك فاصبر . وإن ظلمك فاصبر ، وإن أراد أن ينقص من دينك فقل : دمي دون ديني ، ولا تفارق الجماعة .[2]

وعن الحسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رد على أبي بن كعب قراءة آية ، فقال أبي : لقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت يلهيك — يا عمر — الصفق بالبقيع ، فقال عمر رضي الله عنه : صدقت إنما أردت أن أجربكم ، هل منكم من يقول الحق ، فلا خير في أمير لا يقال عنده الحق ، ولا يقوله .[3]

وعن أبي مجلز أن أبي بن كعب قرأ " من اللذين استحق عليهم الأوليان " فقال عمر رضي الله عنه : كذبت ، قال : أنت أكذب ، فقال رجل ، تكذب أمير المؤمنين ؟ قال : أنا أشد تعظيماً لحق أمير المؤمنين منك ، ولكن كذبته في تصديق كتاب الله ، ولم أصدق أمير المؤمنين في تكذيب كتاب الله ، فقال عمر : صدق .[4]

وعن أبي قبيل عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، أنه صعد المنبر يوم القمامة فقال عند خطبته : إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه ، فلم يجبه أحد ، فلما كان في الجمعة الثانية ، قال مثل ذلك ، فلم يجبه أحد ، فلما كان في الجمعة الثالثة قال مثل مقالته ، فقام إليه رجل ممن حضر المسجد فقال : كلا إنما المال

[1]. المرجع السابق ، ص ٥٩ .
[2]. المرجع السابق ، ص ٦١ .
[3]. المرجع السابق ، ص ٦٦ .
[4]. المرجع السابق ، ص ٦٧ .

مالنا والفيء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا ، فنزل معاوية رضي الله عنه ، فأرسل إلى الرجل فأدخله ، فقال القوم هلك الرجل ، ثم دخل الناس فوجدوا الرجل على السرير ، فقال معاوية للناس : إن هذا أحياني أحياه الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون بعدي أمراء يقولون ولا يرد عليهم يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة ، وأني تكلمت أول جمعة فلم يرد عليَّ أحد فخشيت أن أكون منهم ثم تكلمت في الجمعة الثانية فلم يرد عليَّ أحد فقلت في نفسي : إني من القوم ، ثم تكلمت في الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد عليَّ ، فأحياني أحياه الله .[1]

وعن خالد بن حكيم بن حزام قال : كان أبو عبيدة – رضي الله عنه – أميراً بالشام فتناول بعض أهل الأرض ، فقام إليه خالد رضي الله عنه ، فكلمه ، فقالوا : أغضبت الأمير ؟ فقال : أما إني لم أرد أن أغضبه ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشدهم عذاباً للناس في الدنيا .[2]

وعن الحسن أنه قال : بعث زياد الحكم بن عمرو الغفاري على خرسان ، فأصابوا غنائم كثيرة ، فكتب إليه زياد : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين كتب أن يصطفى له البيضاء والصفراء ، ولا تقسم بين المسلمين ذهباً ولا فضة ، فكتب إليه الحكم : أما بعد ، فانك كتبت تذكر كتاب أمير المؤمنين ، وإني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإني أقسم بالله لو كانت السماوات والأرض رتقاً على عبد ، فاتقى الله يجعل له من بينهم مخرجاً والسلام ، وأمر الحكم منادياً فنادي أن اغدوا على فيئكم فقسمه بينهم ، وأن

---

[1]. المرجع السابق ، ص ص ٦٧-٦٨ .

[2]. المرجع السابق ، ص ٦٨ .

معاوية رضي الله عنه لما فعل الحكم في قسمة الفيء ما فعل ، وجه إليه من قيده وحبسه ، فمات في قيوده ودفن فيها ، وقال : إني مخاصم .[1]

* ترك أمر ولي الأمر إلى الله مع الاستمرار في نصحه حتى يستجيب :

آخر الإجراءات التي وضعها الإسلام في مواجهة ولي الأمر الذي يأتي بأمور وتصرفات تستوجب النصح والتوجيه ، ولا يستجب لذلك النصح والتوجيه ، هو أن يُترك أمره إلى الله ، مع الاستمرار في نصحه حتى يستجيب .

فعن أبي هنيدة وائل بن حجر رضي الله عنه قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ، ويمنعونا حقنا ، فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه . ثم سأله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اسمعوا وأطيعوا ، فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حُملتم " .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها ، قالوا : يا رسول الله : كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : تؤدون الحق الذي عليكم ، وتسألون الله الذي لكم " .

وعن بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإنه من خرج على السلطان شبراً مات ميتة جاهلية " .

---

[1]. المرجع السابق ، ص ٦٩ .

الفصل السادس

تطوير أدوات ونماذج الحركة

أنهينا الجزء الأول من هذا المجلد برؤية خاصة تبدو أهميتها الشديدة في أيامنا هذه وهي المتعلقة بتعصير القواعد والأصول الخاصة بالظاهرة السياسية من المنظور الإسلامي ، وها نحن ننهي الجزء الثاني من هذا المجلد برؤية خاصة كذلك ، وتبرز أيضاً أهميتها القصوى في هذه الأيام ، وهي المرتبطة بتطوير أدوات ونماذج الحركة . فالرؤية الأولى إذن تذهب إلي القواعد والأصول أما الرؤية الثانية فتمتد إلي أدوات ونماذج الحركة ، وما من شك في أن لهذه الرؤية وتلك أهميتهما للظاهرة السياسية من المنظور الإسلامي ، حيث تمنحاها من الحيوية والنشاط ما يفسح لها مجالاً خاصاً وموقعاً متفرداً على خارطة الفكر السياسي العالمي ، ثم يصبغاها بصبغة طالما سعى إلي إحرازها علماء المسلمين وهي الأصالة المعاصرة .

لقد تعاملنا مع تعصير القواعد والأصول في مجال الظاهرة السياسية على أنها تلك الجهود التي يبذلها علماء الأمة ويبتغون من ورائها إبراز ما تختص به تلك القواعد والأصول من خاصية التواؤم الذاتي والتكيف التلقائي مع المتغيرات والمستجدات الناتجة عن عنصري الزمان والمكان ، وفي هذا الموضع نتعامل مع تطوير أدوات ونماذج الحركة على أنها الجهود التي يبذلها رجال الحركة داخل المجتمعات الإسلامية من أجل تطوير الأنظمة والتنظيمات والبنى والهياكل التي تنقل القواعد والأصول من طورها النظري الفكري إلي الواقع العملي ، حيث يمارس من خلالها أفراد الجماعة أمور الحكم وشئون السياسة .

وثمة علاقة مباشرة بين أدوات ونماذج الحركة وعملية تعصير الأصول والقواعد ، وتنبع هذه العلاقة من كون أدوات ونماذج الحركة تلعب دوراً مهماً في عملية التعصير إضافة إلي أن أدوات ونماذج الحركة تمثل الشق العملي التطبيقي للظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ،

ولعله من الأهمية بمكان تحليل هذه العلاقة وتبيان آثارها على تلك الظاهرة وإبراز سمة الأصالة المعاصرة التي تتسم بها .

لقد تركت المرجعيات الإسلامية عن قصد تحديد وتثبيت أدوات ونماذج الحركة فيما يعرف بالفراغ التشريعي ، وذلك حتى يتمكن أبناء المجتمعات الإسلامية من تطوير تلك الأدوات بشكل مستمر بما يتواءم مع المتغيرات والمستجدات ، وفي ذلك حكمة بالغة حيث تبرز قواعد وأصول الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي دوماً في وضعية تطور وتواؤم مع عنصري الزمان والمكان ، فلماذا إذن عمدت المرجعيات الإسلامية إلي تثبيت قواعد وأصول الظاهرة السياسية في الوقت الذي تركت أدوات ونماذج الحركة لأهل كل زمان وأبناء كل مكان ليشكلونها ويصيغونها كيفما يتراءى لهم .

إن ثمة اتصالاً وثيقاً بين أدوات ونماذج الحركة الخاصة بالظاهرة السياسية والأبعاد المتغيرة في الإنسان ، فالمتغير في الظاهرة السياسية يتواءم مع المتغير في النفس البشرية كما أن الثابت في تلك الظاهرة يتناسب ويتقابل مع الثابت في تلك النفس ، وستتضح تلك الارتباطات والأواصر من خلال التحليل .

للأمة والدولة موقعهما المميز كأدوات ونماذج للحركة في الظاهرة السياسية من المنظور الإسلامي ، فكيف يمكن تطوير هاتين الأداتين بشكل مستمر على المستويين الداخلي والدولي ؟ ، وبالمثل يعد المنهاج الإسلامي أو ما يعرف بالنظام السياسي أحد أهم أدوات ونماذج الحركة داخل الظاهرة السياسية ، وهذه الأداة تتطور هي الأخرى بشكل دائم ، مما يضفي على الظاهرة حركية وديناميكية غير معتادة ، كذلك يمثل نسق القيم السياسية الإسلامية هو الآخر أداة للحركة داخل الظاهرة السياسية ، وهذه القيم تتعرض لتطوير دائم يعتري جانبها الإجرائي الشكلي الذي يحولها إلي واقع عملي ، فكيف يتم ذلك التطوير ؟

وكيف يتم لمصلحة الظاهرة السياسية ليكسبها الحركية والديناميكية وتصبح أصيلة معاصرة ؟ ! .

في هذا الفصل نتناول جملة القضايا والمسائل المتعلقة بعملية تطوير أدوات ونماذج الحركة داخل الظاهرة السياسية ، وذلك من خلال المباحث الثمانية التالية :

المبحث الأول : ماهية تطوير أدوات ونماذج الحركة .

المبحث الثاني : أدوات ونماذج الحركة وتعصير الأصول والقواعد .

المبحث الثالث : أدوات ونماذج الحركة وملء الفراغ التشريعي .

المبحث الرابع : أدوات ونماذج الحركة والأبعاد المتغيرة في الإنسان .

المبحث الخامس : الأمة والدولة كأدوات للحركة السياسية .

المبحث السادس : المنهاج الإسلامي (النظام السياسي) كنموذج للحركة السياسية .

المبحث السابع : نسق القيم السياسية الإسلامية كأداة للحركة السياسية .

المبحث الثامن : إشكال عدم مقدرة أدوات ونماذج الحركة على نقل القواعد والأصول إلي أرض الواقع بصدق وأمانة .

المبحث الأول

ماهية تطوير أدوات ونماذج الحركة

عملية تطوير أدوات ونماذج الحركة من العمليات المعقدة والمهمة في ذات الوقت ، معقدة لأنها تشمل عمليات أخرى فرعية ومتداخلة ومهمة لأنها تسهم بدور أساسي في إكساب الظاهرة السياسية سمة الأصالة المعاصرة ، وسنحاول في هذا المبحث متابعة عملية تطوير أدوات ونماذج الحركة في الظاهرة السياسية بالدراسة والتحليل من خلال ما يلي :

أولاً : ما هي أدوات ونماذج الحركة :

أدوات ونماذج الحركة هي الفاعل الرئيسي في الشق التطبيقي من الظاهرة السياسية وهذه الأدوات والنماذج تتدرج في مجموعة من المحركات تتمثل في الآتي :

* رجال الحركة :

وهم الذين يتفرغون لنقل الإطار النظري الفكري للظاهرة السياسية إلي الطور التطبيقي ، وفي النموذج الإسلامي يكون رجال الحركة على وعي واستيعاب كاملين بكافة أصول وقواعد الظاهرة السياسية في المرجعيات الإسلامية ، وهم في ذات الوقت على دراية وخبرة بعمليات التطبيق الفعلي الواقعي لتلك الأصول والقواعد ، ومن الأهمية بمكان تعمق رجال الحركة في البعدين معاً المكونين للظاهرة السياسية : الأصول والقواعد والنماذج التجريبية ، فالأصول والقواعد تتطلب التبحر في المرجعيات الإسلامية في حين تستلزم النواحي التطبيقية الإطلاع

على التجارب العملية ، إلا أن اهتمام رجال الحركة الأصيل يظل منصباً على إحداث واستحداث الأنظمة والأبنية والتنظيمات وذلك بالمحاكاة أو الابتكار .

* جهود رجال الحركة :

رجال الحركة بالوصف المتقدم يبذلون جهوداً كثيفة في إيجاد الأنظمة والأبنية والتنظيمات ، وهذا الإيجاد يتم وفق نهجين :

– النهج الأول ، يتمثل في المحاكاة أي تقليد ما هو قائم وفعّال من الأنظمة والأبنية والتنظيمات المعمول بها في نماذج تجريبية معينة ، ولكنها تتواءم مع البيئة الإسلامية وتعمل وفق أصول وقواعد الظاهرة السياسية ، وقد يقوم رجال الحركة بتكييف وأقلمة هذه الأنظمة والأبنية والتنظيمات مع البيئة الإسلامية ومع أصول وقواعد الظاهرة السياسية .

– النهج الثاني : يتجسد في ابتكار الأنظمة والأبنية والتنظيمات على غير مثال سابق إلا التوافق مع أصول وقواعد الظاهرة السياسية .

وأهم ما تجدر ملاحظته في هذا السياق هو أن كلا النهجين لابد أن يتواءم ويتناسب مع البيئة الخاصة بالمجتمعات الإسلامية بما تحويه من متغيرات وما تكتنفه من مستجدات ، ولعل هذه هي أهم سمات أدوات ونماذج الحركة ، وهي في ذات الوقت أعظم مهامها وأمثل أهدافها ومقاصدها بالنسبة للظاهرة السياسية في المفهوم الإسلامي .

- الأنظمة والأبنية والتنظيمات :

من المحركات المهمة في أدوات ونماذج الحركة هي الأنظمة والأبنية والتنظيمات ، فالأنظمة عبارة عن نماذج متكاملة تحوى في ثناياها مقومات أو أجزاء تقوم بينها علاقات وتفاعلات تكسب النموذج صفة النشاط والحراكية ويسعى النموذج إلي تحقيق أهداف معينة ، ويستخدم في سبيل ذلك آليات ووسائل محددة ، والنظام السياسي هو المتعلق بالظاهرة السياسية .

أما الأبنية فهي هياكل تنظيمية تتولى تنفيذ مهام النظام السياسي والقيام بوظائفه وتحقيق أهدافه ، مثل الحكومة والجهاز الإداري والوزارة ، وكلها أبنية تتدرج من حيث الحجم والأهمية ، وهي تتواءم مع طبيعة الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي .

والتنظيمات بمثابة ترتيبات وإجراءات للممارسة السياسية ، فهي ضوابط للسلوك ترسم مسارات الحركة لنماذج وأنماط سلوكية معينة تتعلق بممارسة الجماعة المسلمة لأمور السياسة والحكم ، كما وردت في القواعد والأصول التي تحويها المرجعيات الإسلامية .

ثانياً : أدوات ونماذج الحركة تمثل الشق العملي أو الطور التطبيقي للظاهرة السياسية :

أدوات ونماذج الحركة ذات أهمية بالغة للظاهرة السياسية ، فهي التي تضعها على محك التجربة عندما تنقلها من طور الفكر والنظر إلي طور التطبيق والعمل ، وعليها يتوقف الحكم على فاعلية القواعد والأصول بل والظاهرة السياسية بكاملها ، فإذا أفلحت أدوات ونماذج الحركة في التعبير بصدق وأمانة ودقة عن محتوى ومضمون ومقصد القواعد والأصول كان الحكم على تلك القواعد والأصول بالكفاءة والصلاحية والقابلية للتأقلم مع كل زمان ومكان ،

وإذا أخفقت أدوات ونماذج الحركة في نقل محتويات ومضامين القواعد والأصول بأمانة ودقة فقد أساءت عندئذ إلي تلك القواعد والأصول وشككت في مقدراتها وصلاحياتها للعمل والتفاعل مع مختلف البيئات والأوقات .

إن أكثر الإشكاليات تعقيداً في الوقت الراهن فيما يتعلق بالظاهرة السياسية من المنظور الإسلامي على مستوى العالم الإسلامي هي إشكالية عدم مقدرة أدوات ونماذج الحركة على نقل القواعد والأصول إلي أرض الواقع بصدق وأمانة ، وهذه الإشكالية تحتاج إلي تحليل وتفسير مفصلين بما يستوجب أن نفرد لها مبحثاً مستقلاً في هذا الفصل .

ثالثاً : أدوات ونماذج الحركة هي التي تتمكن الجماعة عن طريقها من ممارسة السياسة والحكم :

أدوات ونماذج الحركة بوصفها الشق التطبيقي في الظاهرة السياسية — كما سبق الإيضاح — تتعلق أساساً بممارسة أمور السياسة والحكم ، والجماعة أو المجتمع المسلم يمارس تلك الأمور سواء أكان حاكماً أو محكوماً عن طريق تلك الأدوات والنماذج .

إن أدوات ونماذج الحركة اختبار للممارسة السياسية في المجتمع المسلم ، والممارسة السياسية في ذلك المجتمع تتسم بسمات ذات خصوصية وتفرد ، فهي تتسم بأنها مباشرة يؤديها كل شخص أصالة عن نفسه ولا يمثله أو ينوب عنه أحد ، كذلك فهي تتم في كافة أمور وشئون الحياة التي تهم المجتمع المسلم ولا ترتبط فقط باختيار الحاكم ، وهي أيضاً دائمة وليست مؤقتة ترتبط بمناسبات أو أحداث دورية ، وسوف نوضح ذلك تفصيلاً في موضع لاحق من هذا الفصل .

إن أدوات ونماذج الحركة في الظاهرة السياسية الإسلامية ينبغي أن تكون على مستوى الممارسة السياسية الإسلامية بمواصفاتها الراقية المتقدمة ، حتى تتمكن من أن تعكسها وتمثلها بشكل وفي وأمين ، وعليه فتلك الأدوات والنماذج تحتاج إلي تطوير باستمرار لإحداث التوافق والتواؤم بين الأدوات والنماذج من جهة والممارسة السياسية عصب الظاهرة السياسية الإسلامية من ناحية أخرى ، فكيف إذن يتم التطوير ؟ .

رابعاً : كيف يتم تطوير أدوات ونماذج الحركة :

أدوات ونماذج الحركة من شئون الإنسان ومن أمور دنياه التي يجوز له أن يصرّفها ويطوّرها كيفما شاء وبما يتواءم مع ظروف حياته وتطوراتها المستمرة ، وقد سبق لنا وأوضحنا أن هذه الأدوات والنماذج تمثل الجانب التطبيقي العملي من الظاهرة السياسية ، وإذا كانت المرجعيات الإسلامية قد حرصت على الاهتمام بالقواعد والأصول الخاصة بتلك الظاهرة فتضمنتها وأوضحتها بدقة وتفصيل ، فقد تركت أدوات ونماذج التطبيق والممارسة لابتكار الناس وخلقهم ، وكما يبتكر الإنسان الأدوات والنماذج ويخلقها ، فهو كذلك يطورها وينقلها من حالة إلي أخرى أكثر كفاءة ومقدرة على مواصلة عملها ، ويتخولها دوماً بالتطوير والتعديل .

إن دور الإنسان وعمله المنوط به القيام به فيما يتعلق بأدوات ونماذج الحركة يتراوح بين الإنشاء والإحداث لهذه الأدوات والنماذج وبين التطوير والتعديل للقائم الفعّال منها ، وإذا كان الإحداث والإيجاد المبدئي أمراً مفروغاً منه لأنه معروف بالأساس ، فإن ما ينبغي إيضاحه في هذا الموضع هو كيفية التطوير والتعديل لما هو قائم وفعّال .

إن تطوير ما هو قائم وفعّال يعني إدخال التحسينات والتعديلات عليه لزيادة كفاءته وصلاحيته كي يتمكن من أن يؤدي مهامه ويقوم بوظيفته كما هو مخطط له ومرسوم لأن الزمان قد حمل من التغييرات والتطويرات ما لا يقدر للأدوات والنماذج إدراكها بدون تلك التعديلات و التحسينات ، ومن ثم فإن التطوير يعني الاستجابة لتأثيرات الزمان والمكان وزيادة الكفاءة والصلاحية لتتم الممارسة السياسية على أكمل وجه .

مما تقدم نستخلص أن تطوير أدوات ونماذج الحركة السياسية يتصل مباشرة بالممارسة السياسية من أجل ترقيتها وأساليبها وإحراز أهدافها ، ثم هو كذلك يرتبط عضوياً بمتغيرات الزمان والمكان ، حيث يستوعبها ويحتويها ويستثمر تأثيراتها الإيجابية ويتلافى السلبية .

إن رجال الحركة هم الذين يقودون عمليات تطوير أدوات ونماذج الحركة السياسية ويوزعون جهودهم على الأنظمة والأبنية والتنظيمات ، وهدف التطوير هو رفع الكفاءة والفعالية ، حتى تتمكن هذه الأدوات والنماذج من تحقيق مقاصدها كما هو مرسوم لها .

ولا يقتصر التطوير على الأنظمة والأبنية والتنظيمات بل يتجاوزها إلي أفراد المجتمع المسلم فيتخولهم هم أيضاً بتعديل أفكارهم ومداركهم ثم سلوكاتهم وتصرفاتهم ، والتطوير على مستوى الأنظمة والأبنية والتنظيمات يتضمن تحسين الأداء بتسهيل الإجراء وسرعة الإنجاز ، وذلك يتم من خلال التعامل والتعاطي مع أنظمة وقوانين وإجراءات ، أما التطوير على مستوى الأفراد فيتضمن الارتقاء بالأفكار وتوسيع المدارك ، حتى يقدّر للأفراد فهم واستيعاب قواعد وأصول الظاهرة السياسية كما تحويها المرجعيات الإسلامية ، وكذلك الارتقاء بالسلوكات والتصرفات ، حتى يتمكن الأفراد من ممارسة شئون السياسة والحكم كما هو وارد في النماذج التجريبية المثالية التي تمثل مرجعية تجريبية هي دولة الرسول الكريم ودولة الخلفاء الراشدين وهكذا يكون التطوير قد شمل أدوات ونماذج الحركة وكذا أفراد الجماعة المسلمة .

المبحث الثاني

أدوات ونماذج الحركة وتعصير الأصول والقواعد

ما من شك في أن أدوات ونماذج الحركة تلعب دوراً مهماً في تعصير أصول وقواعد الظاهرة السياسية ، وذلك نابع من العلاقة الوطيدة التي تربط بين أدوات ونماذج الحركة من ناحية ، وبين أصول وقواعد الظاهرة السياسية من ناحية أخرى .

أولاً : العلاقة الوطيدة بين أدوات ونماذج الحركة وأصول وقواعد الظاهرة السياسية :

إن ثمة تلازماً وعناقاً بين أصول وقواعد الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي وبين أدوات ونماذج الحركة ، فالأخيرة هي التي ترقي بالأصول والقواعد وترفع من شأنها وتصل بها إلي أهدافها وغاياتها ، وبدونها ستصبح الأصول والقواعد ليست إلا مسائل نظرية للفكر والتأمل ، وستظل مقدرتها على التفاعل والتعاطي مع مجريات الحياة والتغلغل في نسيج المجتمع محل شك وعدم اكتراث .

إن الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي بطبيعة نشأتها وصياغتها جاءت ذات شقين : **الشق الأول** أصول وقواعد نظرية فكرية يعقلها المنطق ويتأملها الذهن وتستقر في القلوب والعقول كمعتقدات راسخة ثابتة تكتسب من الشرع سمات الخلود والأبدية والقداسة ، **والشق الثاني** أدوات ونماذج حركية يبتكرها أو ينقلها أو يطورها أبناء المجتمعات الإسلامية لكي تطبق الأصول والقواعد على أرض الواقع ومن خلالها يمارسون مهام ووظائف السياسة والحكم ، وعليه فالشقان مرتبطان عضوياً ولا وجوداً فعالاً لأحدهما بدون الآخر ، فأدوات ونماذج الحركة تستلهم هياكلها ومكوناتها ومقوماتها التي تمكنها من الحركة

والتفاعل وتحقيق أهداف ومقاصد الأصول والقواعد من الأصول والقواعد ، كما أن الأصول والقواعد لابد أن تُشاهد على أرض الواقع وتُرى رأي العين وإلا فلن يلتفت إليها الناس ولن يتنبهوا إلي وجودها ويعتنقونها اعتقاداً واقتناعاً ولن تتحقق أهدافها ومقاصدها إلا من خلال أدوات ونماذج للحركة تقوم بكل ذلك .

انطلاقاً مما تقدم وترتيباً عليه تصبح أدوات ونماذج الحركة بمثابة الاختبار والتجربة للأصول والقواعد ولما تحويه من قيم ومثل ومبادئ ولما تستهدفه من مقاصد وأهداف وتمتحن كذلك قدرتها على التواؤم والتكيف مع متغيرات الزمان والمكان ، وهكذا يبدو التلازم والعناق بين شقي الظاهرة السياسية إلي درجة الذوبان حيث أن كليهما ضروري لوجود الآخر .

ثانياً : تطوير أدوات ونماذج الحركة يؤدي إلي تعصير الأصول والقواعد :

لقد ثبت أن لأدوات ونماذج الحركة دورها المهم والفعال في تعصير الأصول والقواعد ويمكن رصد مفردات ذلك الدور فيما يلي :

• تجتهد أدوات وعناصر الحركة من أجل أن تثبت مقدرة الأصول والقواعد الخاصة بالظاهرة السياسية على التواؤم والتكيف مع متغيرات ومستجدات الزمان والمكان — وقد سبق لنا إيضاح ذلك — في مواضع شتى ، وسوف نزيده تبياناً في مواطن أخرى .

• من شأن أدوات ونماذج الحركة أن تثبت قدرة أصول وقواعد الظاهرة السياسية على تفوقها على الأفكار والرؤى والطروحات البشرية التي تتغير وتتعدل باستمرار بالرغم من بزوغ تلك الأصول والقواعد منذ ظهور الإسلام والدعوة إليه ، فالأدوات والنماذج إذن تفرض

على المتابع إجراء مقارنة بين المرجعيات الإسلامية وما تحويه من أصول وقواعد الظاهرة السياسية وبين الأفكار والرؤى والطروحات البشرية بخصوص نفس الظاهرة ، وإذا كانت تلك المقارنة غير جائزة شرعاً وغير مقبولة طبعاً ومنطقاً إلا أن التحليل قد يفرضها فرضاً .

وخلاصة المقارنة تحمل حقيقة غاية في الأهمية ، وخليقة بالتأمل والاعتبار ، ولعلها كافية لأن تمثل في ذاتها حكماً نهائياً لصالح أصول وقواعد الظاهرة السياسية في المفهوم الإسلامي ، وهذه الحقيقة تتمثل في أن أصول وقواعد الظاهرة السياسية ، وكذا أدوات ونماذج حركتها في الأفكار والطروحات البشرية جميعها متغيرة ومتبدلة منذ بداية التاريخ المعروف وحتى يومنا ، فهي تختلف وتتباين من حيث الزمان والمكان ، تختلف في أصولها وقواعدها ، وكذلك في أدوات ونماذج حركتها ، فهي عبارة عن تجارب تسلم لبعضها البعض ، تتفق في القليل وتختلف في الكثير ، وحتى الآن لا تزال تلك التجارب على محك الاختبار ، ولم يثبت بعد صلاحية أيها واعتمادها كنموذج ومثال ، في حين أن أصول وقواعد الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، تتسم بسمات الثبات والرسوخ والخلود والأبدية والقداسة والتحديد والدقة والوضوح ، وذلك انطلاقاً من ارتباطها العضوي بالمرجعيات الإسلامية التي تتسم بتلك السمات ذاتها .

أما أدوات ونماذج حركة الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، فهي التي أتيحت لها فرصة التمتع بحرية الحركة ، وأوكلت مهمة صياغتها وتشكيلها ثم تشغيلها وتفعيلها لأبناء المجتمع المسلم ، وهنا تبدو الحكمة البالغة والقدرة المقتدرة في تثبيت الأصل والقاعدة ، وهو ما يستحق الثبات والرسوخ ، لأنه يحوى الأساس والصلب والقوام ، وتغيره أو تبدله يضيع المعالم والملامح ، ويقود إلي الخروج على الطريق المستقيم والمنهج القويم الذي هو الشرع الحنيف .

ثم تبرز مرة أخرى الحكمة البالغة والقدرة المقتدرة في عدم تثبيت أداة ونموذج الحركة وعدم تحديدهما في قوالب جامدة ، وهو ما يتطلب التغير وحرية الحركة لأنه تابع لتغيرات ومستجدات الزمان ، ومتأثر بسمات وخصائص المكان ، ومتوافق مع الأبعاد المتغيرة في الإنسان ، وفي تثبيتها وترسيخها في قوالب جامدة ما يخالف طبيعة الزمان دائم التقلب والدوران وما يغاير هيئات المكان شديدة التباين والاختلاف وما يناقض الأبعاد المتغيرة في الإنسان ، وفي ذلك أيضاً خروج على الطريق المستقيم والمنهج القويم الذي هو الشرع الحنيف ، ففي عدم إتباع المثال وعدم الالتزام بالنموذج سواء فيما يتعلق بالأصول والقواعد التي ينبغي أن تكون ثابتة ، أو فيما يخص أدوات ونماذج الحركة التي يجب أن تكون حرة الحركة ، في كلٍ خروج على الشرع الحنيف ، لأنه أقام التوازن الدقيق والتناسق البديع بين شقي الظاهرة السياسية ، فأين الجهد البشري والفكر الإنساني من هذا الإبداع الإلهي .

* يتفرع عما تقدم أن أدوات ونماذج الحركة تثبت ثراء الأصول والقواعد ومقدرتها على تحقيق رغبات وطموحات النفس البشرية ، وهذه الرغبات والطموحات تتسم بالتغير والتبدل من وقت لآخر ، وسوف نولي هذا الأمر اهتماماً أكثر في المبحث التالي .

كذلك فإن أدوات ونماذج الحركة تثبت أن أصول وقواعد الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي تعطى الفرصة لأفراد الجماعة المسلمة لكي تمارس حكم نفسها وسياسة أمورها، وذلك هو أقصى ما تطمح إلي تحقيقه الأفكار والطروحات البشرية منذ آلاف السنين .

المبحث الثالث

أدوات ونماذج الحركة وملء الفراغ التشريعي

أصول وقواعد الظاهرة السياسية تعد من صميم التشريعات التي حوتها المرجعيات الإسلامية ، سواء كانت في القرآن العظيم أو في السنة النبوية المطهرة ، وهذه التشريعات سبق وأوضحنا أنها تتعلق بثوابت المسائل ورواسخ القضايا التي لا ينبغي أن تتبدل أو تتغير مع الزمن أو بفعل المكان وعوارض الإنسان ، إلا أن ثمة من الأمور ما لم تشمله تلك التشريعات ، لأنها من المتغيرات وتُعالج بتشريعات تحمل نفس صفاتها ، تشريعات تتجدد وتتطور حسب تلك الأمور ، وهذه التشريعات تصدر عن أفراد الجماعة .

إن حياة الإنسان تتوزع أمورها على شقين : شق ثابت راسخ يرتبط بالقيم والمبادئ والأخلاق ، وشق متغير يتعلق بالمستجدات والمحدثات ، والأول قد تولته المرجعيات الشرعية الإسلامية بالرعاية والاهتمام فأصدرت التشريعات لتنظيمه وترتيبه وضبطه أما الثاني فقد تركته تلك المرجعيات ولم تتضمن من التشريعات ما يتصدى له بالتنظيم والترتيب والضبط ، ومن ثم فقد غابت التشريعات التي تشمل المستجدات والمحدثات من المرجعيات الإسلامية ، ولم يأت ذلك إهمالاً أو قصوراً أو نسياناً ولكنه جاء لحكمة قد أوضحناها من قبل في المبحث المتقدم ، وبقيت تلك الأمور المتغيرة تعاني من فراغ تشريعي ينتظر من يملأه بتشريع يتناسب مع طبيعة تلك المتغيرات ، وأوكلت مهمة ملء هذا الفراغ التشريعي إلي أدوات ونماذج الحركة ، فكيف قدّر لتلك الأدوات والنماذج أن تملأ ذلك الفراغ التشريعي ؟ .

تتعدد المسالك التي من خلالها تقوم الأدوات والنماذج بملء الفراغ التشريعي المتعلق بالمتغيرات والمستجدات ، ومن هذه المسالك التشريعات التي يصيغها المتخصصون والخبراء

وفي مختلف الأمور والشئون ، ومن هذه المسالك أيضاً التنظيمات التي تتـولى تنظـيم وترتيـب مسائل وقضايا بذاتها ، ومن هذه المسالك كذلك الإجراءات التي تحدد العلاقات بـين أفـراد الجماعة وبينهم وبين أجهزة الدولة ، ومن هذه المسالك أخيراً ما ينظم سلوكيات وتـصرفات الأفراد وهم بصدد التفاعل والتعامل في الحياة اليومية .

المبحث الرابع

أدوات ونماذج الحركة والأبعاد المتغيرة في الإنسان

ذكرنا أن حياة الإنسان ترتكن على بعدين : الأول ثابت يتصل بالقيم والأخلاق والمثل ، والثاني متغير يتعلق بالأمور دائمة التبدل والتغير ، الأول قد تولته المرجعيات الإسلامية بالتشريعات التي تمثل أصول وقواعد الظاهرة السياسية ، والثاني ظل فارغاً من التشريعات داخل تلك المرجعيات ، وأنيطت مهمة ترتيبه وتنظيمه وضبطه بأفراد المجتمع المسلم ، وقد كان لأدوات ونماذج الحركة حظ وافر في سد الفراغ التشريعي المتعلق بالأبعاد المتغيرة في حياة الإنسان .

إن ثمة علاقة مباشرة بين أدوات ونماذج الحركة وملء الفراغ التشريعي والأبعاد المتغيرة في الإنسان ، وتحقيق هذه العلاقة أن أدوات ونماذج الحركة تتولى ملء الفراغ التشريعي المتعلق بالأبعاد المتغيرة في الإنسان والناجم عن عدم التفات المرجعيات الإسلامية إلي تلك الأبعاد وتركها عن عمد وقصد ليتولى أمرها أبناء المجتمع المسلم من خلال تلك الأدوات والنماذج .

المبحث الخامس

الأمة والدولة أدوات للحركة السياسية

الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ترتبط كذلك بالأمة والدولة كمدركات معنوية ثم كنماذج تجريبية ، والحديث عن الأمة والدولة كمفردات داخل الظاهرة السياسية يحتاج إلي معالجة خاصة وتناول يتناسب مع طبيعة ذلك المنظور ، وسوف نتصدى لمدركي الأمة والدولة في هذا الموضع بوصفهما نماذج للحركة السياسية تحتاج إلي تطوير وتجديد حتى تتمكن من القيام بمهامها داخل المجتمع المسلم وتحقق أهدافه .

أولاً : الأمة أداة تكتيل المسلمين على المستوى العالمي[1] :

الحديث عن الأمة في المنظور الإسلامي يضطرنا إلي الحديث عن القومية في الفكر الإنساني ، ثم عن الأمة في ذلك الفكر ، ومن شأن ذلك أن يبرز تفرد مدرك الأمة كفكرة معنوية ، ثم تميزه كنموذج حركي .

فالقومية في الفكر الإنساني والتجارب المقرونة به هي عبارة عن فكرة ، تتبلور بفعل مجموعة من الروابط والأواصر ، تجمع بين عدد من البشر ، وتتمثل تلك الروابط في الدم واللغة والتاريخ والحاضر والمستقبل والمصالح ، وتؤدي هذه الروابط إلي تكتل الناس وانتمائهم إلي بعضهم وتجمعهم حول تلك الفكرة .

---

[1]. لتفصيل أكثر يمكن الرجوع إلي المجلد الثامن : العلاقات الدولية في الإسلام ، الجزء الأول : العلاقات الدولية .

أما الأمة فهي الانعكاس المادي للقومية ، حيث يتجمع البشر الذين يرتبطون بفعل أواصر معينة في منطقة جغرافية محددة ، وتكون الفكرة القومية قد تجسدت في عناصر مادية ملموسة هي التاريخ والجغرافيا والبشر .

وإذا انتقلنا إلي الأمة في المنظور الإسلامي لوجدناها تنصرف إلي مدرك ذي خصوصية ، حيث تصبح الأمة الإسلامية رابطة تجمع بين كل من ينتمون إلي الدين الإسلامي ، بغض الطرف عن الأماكن التي يتواجدون فيها أو العناصر والأعراق الذين ينحدرون منها أو الدول التي يحملون رعويتها أو أية روابط وأواصر أخرى .

وقد تتضح خصوصية مدرك الأمة في المنظور الإسلامي عندما نقوم بتحليل التعريف السابق حيث نجد ذلك التعريف يحمل بعدين للأمة الإسلامية وذلك على النحو التالي :

* البعد المعنوي الفكري :

البعد المعنوي الفكري يتمثل في الانتماء إلي الدين الإسلامي ، وهو الرابطة الأساسية الوحيدة التي تجمع بين أبناء الأمة الإسلامية ، أما الروابط الأخرى التي قد تربط بين المسلمين أو بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى ، فهي لا دخل لها ولا يعول عليها في ما يتعلق بالانضواء تحت مظلة الأمة الإسلامية ، فالأصل والعرق لا يمثل معياراً للانتماء إلي الأمة الإسلامية ، فهناك عرب لا ينتمون إلي الأمة الإسلامية ، كما أن اللغة لا تشكل هي الأخرى معياراً للانتماء إلي الأمة الإسلامية فالعرب – كما أسلفنا – الناطقون بالعربية قد لا ينتمون إلي الأمة الإسلامية إذا كانوا على غير دين الإسلام ، هذا في الوقت الذي يعتبر من ينحدرون من أصول غير عربية ويلهجون بألسنة غير عربية من صميم أبناء الأمة الإسلامية لأن دينهم هو الإسلام .

وبالرغم من أن الدين المتمثل في المرجعيات الإسلامية هو صميم وقوام الرابطة التي تربط بين أبناء الأمة الإسلامية ، إلا أن ذلك الدين قد أوجد معه زمرة أواصر أخرى التفت حوله وشكلت معه مزيجاً من الأواصر والوشائج التي تصهر أبناء الأمة في بوتقة واحدة ، تضفي عليهم طابعاً مميزاً ، وتصبغهم بصبغة متفردة .

لقد كان التاريخ المشترك الذي عاشه أبناء الإسلام والحافل بالكفاح المستمر من أجل نشر الدعوة الإسلامية والحفاظ على دولة الإسلام من أهم الوشائج التي تجمع بين أبناء الأمة ، ثم تحول ذلك التاريخ في جزء طويل منه إلي صراع مع الآخر من أجل تحرير الأمة من سيطرة ذلك الآخر والحفاظ على مقدراتها وممتلكاتها الحضارية والثقافية .

ويقترن بالتاريخ المشترك لأبناء الإسلام الحضارة الإسلامية ، التي تمتعت بذات حضارية ، تجمعت لها من المقومات والخصائص والعلاقات ما جعلها أرقى وأمثل الحضارات الإنسانية على الإطلاق ، وأهلّها لأن تكون المنبع والمنطلق للحضارات الحديثة والمعاصرة ، وتعد الحضارة الإسلامية من أهم الروابط والصلات التي تربط بين أبناء الأمة ، وذلك بالرغم من الانقطاع الذي حدث واستمر ردحاً طويلاً من الزمن ، فالمسلمون مطالبون بأن يكثفوا جهودهم من أجل البحث عن الذات الحضارية للإسلام ، وأن يصلوا ذلك الانقطاع ، وهذه في ذات الوقت رابطة أخرى تربط بين أبناء الأمة ، وهي السعي من أجل التواصل الحضاري .

كذلك تمثل الثقافة الإسلامية التي هي بمثابة إفراز للعقل المسلم عندما تمتزج فيه الأصول والقواعد التي تتضمنها المرجعيات الإسلامية ، والتي تحدد علاقة الإنسان بالمجتمع والكون وبالرؤى والأفكار الإنسانية المتأثرة بمتغيرات المكان ومستجدات الزمان ، ثم يخرج ذلك

المزيج في شكل طروحات ، تعرب عن وجهة نظر الإسلام تجاه أبعاد تلك العلاقة الأبدية بين الإنسان والكون ، إن تلك الثقافة تمثل وشيجة أخرى توثق عرى التلاحم بين أبناء الأمة الإسلامية ، حيث يعتبر التوحد الفكري لأبناء الأمة حول المنطق الثقافي للإسلام من أهم مفردات البعد المعنوي للأمة الإسلامية ، ليس ذلك فقط بل إن الجهود التي تبذل في سبيل تحقيق ذلك التوحد والتي تتمثل في طروحات وتراكمات فكرية لهي خير دليل على توحد العقل والفكر المسلم كذلك ، وإذا كانت الثقافة الإسلامية قد مرت هي الأخرى بفترة انقطاع طويلة إلا أن محاولة التواصل الثقافي الإسلامي يمكن أن تؤتي ثمارها بشكل أسرع وأكثف من محاولة التواصل الحضاري .

إن الواقع الذي يعيشه أبناء الأمة الإسلامية في أي مكان على ظهر الأرض ، ليمثل رابطة قوية تربط بينهم وتزكي لديهم الإحساس بالتماثل والتناظر في كل شيء ، الأطر الاجتماعية التي لعب التاريخ دوراً مهماً في صياغتها وتشكيلها ، والتفاعلات الاجتماعية التي تتم من خلال الأنظمة الفرعية التي تحويها المجتمعات الإسلامية ، العلاقات مع الآخر سواء أكانت سلمية أو صراعية ، كل ذلك من شأنه أن يخلق واقعاً مشتركاً ومصالح مترابطة ، وينشئ في ذات الوقت وينمي علاقة انتماء عميقة وقوية للإسلام ولأمته ولحضارته وثقافته لدى أبنائه مهما اختلفت وتباعدت أماكن إقامتهم ، إن ذلك الواقع مهما كان مأساوياً حزيناً إلا أنه يمثل أداة تجميع ووسيلة توحيد وتكتيل خلف الإسلام وأمته ، فرابطة الانتماء ينميها الحزن والأسى والانكسار كما ينميها كذلك الفرح والظفر والانتصار .

وواقع أبناء الأمة بسماته الحزينة المؤلمة ، بما يخلقه من رغبة قوية في الانتماء إلى الإسلام والالتفاف حول مفرداته الحضارية والثقافية ، يخلق في ذات الوقت رؤية موحدة لدى المسلمين مفعمة بالأمل في مستقبل مشرق للإسلام وأمته ، وهذه الرؤية في حد ذاتها تمثل

رابطة قوية تتجدد باستمرار وتبعث الأمل في النفوس والعزيمة في القلوب للنهوض والتغلب على الواقع المرير وتضيف هذه الرابطة مقوماً جديداً من مقومات البعد المعنوي للأمة الإسلامية .

إن البعد المعنوي للأمة الإسلامية — وكما سبق الإيضاح — يرتكن على جملة من المقومات التي تشكل في ذات الوقت روابط ووشائج تجمع أبناء الأمة ، وتتمثل تلك المقومات الروابط في : **التاريخ المشترك والذات الحضارية الفريدة والمنطق الثقافي المتميز والواقع المشترك والمصالح المترابطة والمستقبل المأمول الذي يهدف دوماً إلي نشر الإسلام وهو هدف وجود هذه الأمة .**

* البعد المادي :

البعد المادي بالنسبة للأمة الإسلامية يتمثل في العنصر البشري الذي هو الإنسان ، فهو قوام الأمة التي ترتكن عليه ، والمسلم هو اللبنة الأساسية في صرح الأمة العظيم ولا يُنظر إلي أصله أو جنسه أو لغته أو لونه ، فهذه المتغيرات تمثل ركائز مهمة في البعد المادي للأمة التي تعتمد بدورها على القومية كما هي في الفكر الإنساني .

وكما للإنسان أهميته الأساسية في الركن المادي للأمة وفق الفكر الإنساني ، فللجغرافيا أو المكان أهميته كذلك حيث لا يُتصور قيام الأمة بدون الجغرافيا التي تمثل الإطار أو الحيز المكاني الذي يتجمع فيه العنصر البشري ، وحصيلة ما تقدم أن الركن المادي للأمة وفق الفكر الإنساني يرتكن على أساسين : الأول : الإنسان والثاني الجغرافيا أو المكان ، وعندئذ تتشكل الأمة التي تمثل الشكل أو الانعكاس المادي للقومية .

أما بالنسبة للأمة الإسلامية فالركن المادي يعتمد على الإنسان فقط ، ولا وزن للجغرافيا ولا ثقل للمكان على الإطلاق ، فالأمة تنتصب على المسلمين المنتشرين في كافة بقاع الأرض ، مهما اختلفت الدول التي يقيمون فيها ويتبعون لها ، ومعنى ذلك أن الدول والحدود التي تفصل بينها لا تشكل عائقاً يحول دون قيام الأمة الإسلامية وامتدادها متجاوزة الجغرافيا والحدود لتشمل كافة المسلمين الذين يعيشون على ظهر البسيطة وتظلهم بمظلتها .

إن امتداد الأمة الإسلامية لتشمل كافة المسلمين في جميع أنحاء العالم متجاوزة الحدود الجغرافية ليثير على الفور إشكالية " تنازع أو تصادم الولاءات والانتماءات " وقد سبق لنا مناقشة هذه الإشكالية ، وانتهينا بصددها إلي خلاصة مفادها أن الولاء الأساسي للأمة الإسلامية ، وثمة ولاء ثانوي لدولة الإقامة ، وفي حالة تنازع الولاءين يكون الولاء الظاهري الشكلي لدولة الإقامة ، أما الولاء الحقيقي الفعلي فيكون للأمة الإسلامية .

ما تقدم ينتهي بنا إلي القول بأن الأمة في المفهوم الإسلامي تعد أداة مهمة وأساسية تستهدف تجميع المسلمين على مستوى العالم وتكتيلهم خلف الفكرة الإسلامية بغض الطرف عن مواطنهم وأماكن إقامتهم ، وعليه فالمسلمون يشكلون كياناً واحداً يمثل كل فرد لبنة في صرحه الممتد والمترامي في جميع أنحاء العالم ، فقضايا الأمة وإشكالاتها تستقطب عقول وقلوب كافة المسلمين وتسترعي انتباههم أينما وُجدوا ، كذلك فما يمكن أن تعانيه أية أقلية مسلمة في أي مكان من العالم مهما قل عددها يتحرك له جميع المسلمين في كافة أنحاء العالم ، إن هذا التحليل يعنى أن للأمة الإسلامية كياناً مادياً متماسكاً على مستوى العالم وهو يمثل أداة مهمة وفعالة للتعامل في المعترك الدولي والعلاقات الدولية[1] ، وسيظل للأمة

---

[1]. المرجع السابق .

الإسلامية هذه الوضعية إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وذلك لأن هذه الوضعية تمثل إحدى الثوابت في المرجعيات الإسلامية .

وبالإضافة إلي أهمية الأمة الإسلامية كأداة من أدوات تكتيل المسلمين على مستوى العالم فللأمة كذلك أهميتها كأداة للتعامل على المستوى الدولي ، إلا أنها قد تتماس مع الدولة إلي درجة الاحتكاك ، عندما تقدم كل منهما نفسها بصفتها أهم شخصيات العلاقات الدولية والمجتمع الدولي وما يرتبط بهما من القانون والتنظيم الدولي ، وبالفعل تبدو هنا إشكالية مفادها أن المجتمع الدولي المعاصر قد أستبدل الدولة بالأمة ، وأعتبر الأولى أهم شخصياته والفاعل الرئيسي في شئونه ، وسنعكف على مناقشة هذه الإشكالية في المجلد الثامن .

ثانياً : تطوير مفهوم الأمة كأداة من أدوات الحركة السياسية :

الأمة الإسلامية ببعديها المعنوي والمادي ظهرت مع ظهور الإسلام إلي الوجود ، وجمعت روابط البعد المعنوي ، ثم أضافت إليها مرتكزات البعد المادي التي تمثلت في العنصر البشري والمجال الجغرافي أو الحيز المكاني والمنهاج الإسلامي أو ما عرف حديثاً بالنظام السياسي الذي يشمل الحكومة ومقومات الدولة ، وهنا يبرز سؤال مهم وهو : لماذا كان المجال الجغرافي أو الحيز المكاني والمنهاج الإسلامي ضمن مرتكزات البعد المادي بالنسبة للأمة الإسلامية منذ نشأتها في عهد الرسول الكريم في حين لم تعد في الوقت الراهن كذلك ، واقتصر البعد المادي للأمة الإسلامية على العنصر البشري فقط ؟ .

عند متابعة نشأة الأمة الإسلامية منذ عهد الرسول الكريم وحتى سقوط الخلافة العباسية ، كانت الأمة مجسدة في دولة ، وكلاهما يرتكن إلي جانب الركن المعنوي على الركن المادي

المتمثل في البشر والمجال الجغرافي أو الحيز المكاني والمنهاج الإسلامي ، وهنا يمكن القول بأن الأمة والدولة كانتا وجهين لكيان واحد ، فالأمة كانت تنصرف إلي الروابط والوشائج المعنوية ، أما الدولة فكانت ترتبط بالمقومات المادية الشكلية ، وقد وصل ذلك التماثل إلي حد التطابق فبدت الأمة هي الدولة ، والدولة هي الأمة ، فكانت الأمة الإسلامية تطلق على كافة المسلمين الذي يقيمون في مجال جغرافي أو حيز مكاني موحد محدد المعالم ، وتحكمها حكومة واحدة معلومة ، ويرتبطون بحضارة متفردة ، وثقافة متميزة ، وتتحدد مهمتها في نشر الإسلام والدعوة إليه .

ومنذ انهيار الخلافة العباسية تعددت المجالات الجغرافية ذات الحدود المستقلة والتي تحكمها حكومات خاصة بها ، ثم تطورت الأوضاع العالمية في اتجاه أفضى إلي توزع المسلمين وتناثرهم على أقاليم دول عديدة في العالم غير إسلامية ، ومن ثم كان لابد لمفهوم الأمة أن يواكب تلك التطورات انطلاقاً من كونه يمثل إحدى أصول وقواعد الظاهرة السياسية من المنظور الإسلامي ، ويجسد في ذات الوقت إحدى أدوات ونماذج الحركة السياسية لتلك الظاهرة ، وقد جاءت تلك المواءمة عندما تمت ترقية ذلك المفهوم ليسمو فوق الحدود ويتجاوزها ، ويرقى فوق الأنظمة ويتخطاها ومن ثم احتفظ الركن المعنوي بمضمونه ودلالاته ثابتاً لا يتغير ، في حين أصبح الركن المادي للأمة الإسلامية يرتكن على البشر فقط أينما وُجدوا .

معنى ما تقدم أن مدرك الأمة في الرؤية الإسلامية مدرك ذو خصوصية يتطور بالشكل الذي يتواءم مع تطورات الزمان ومتغيرات المكان ، ويحمل إلي جانب ذلك سمات الثبات والرسوخ والخلود والأبدية لتنعت ركنه المعنوي ، وإذا كان ذلك هو واقع مدرك الأمة ، فكيف يمكننا مواصلة تطوير ذلك المفهوم ليؤدى دوره كإحدى مفردات الظاهرة السياسية

وأداة من أدوات حركتها السياسية ؟ يمكن تطوير مفهوم الأمة كأداة من أدوات الحركة السياسية من خلال ثلاثة إجراءات نطرقها فيما يلي :

• تطوير مفهوم الأمة كأداة تكتيل للمسلمين :

الإجراء الأول يتمثل في ترقية البعد المعنوي ، وتكثيف الأضواء عليه ، وبثه في نفوس أبناء الأمة حتى يتكتلوا خلفه ، ويقوى ولاؤهم ، ويتوثق انتماؤهم لأمتهم الإسلامية وهذه الأداة هي أداة تكتيل على المستوى الشعبي ، تخاطب المسلمين في كل مكان ، وهذا الإجراء غير موجه إلي الحكومات أو الأنظمة السياسية ، ولكن يمكن لتلك الحكومات الإسلامية أو الأنظمة السياسية أن تساهم بشكل أو بآخر في تفعيل هذا الإجراء .

ولقد بات في وسع علماء الأمة ورجال الحركة فيها أن يطوروا هذا الإجراء بشكل كثيف وفعال من خلال المتوافر من وسائط الاتصال الحديثة والمتطورة ، وأن يحرزوا تقدماً سريعاً ، ويقيّموا النتائج بسرعة غير معهودة .

إن البعد المعنوي المتمثل في التاريخ الإسلامي والحضارة والثقافة الإسلامية والمرجعيات الإسلامية والواقع المشترك والمصالح المترابطة والمستقبل المأمول ينبغي أن يجمع كافة المسلمين في أي مكان على ظهر الأرض ، حيث تتوحد طريقة تفكيرهم وأسلوب معالجتهم لوقائع الحياة وأداة تناولهم وتعاملهم مع المتغيرات والمستجدات ومن شأن كل ذلك أن يخلق نوعاً من التماثل والتناظر في الفكر والسلوك ، فيصبح المسلم يفكر بطريقة معينة ويسلك سلوكاً واحداً أينما وُجد وبذا يكون المسلم متميزاً فكراً ومتفرداً سلوكاً ، وهنا يبدو تكتل المسلمين خلف عقيدتهم وقيمهم الحضارية والثقافية وغايتهم السامية كأنهم رجل واحد .

* تطوير مفهوم الأمة كأداة مساندة للمسلمين والأقليات المسلمة في كل مكان :

الإجراء الثاني ينصرف إلي التكتل الشعبي ، لقد أفاد الإجراء الأول في تكتيل المسلمين كأفراد خلف معتقداتهم وقيمهم الحضارية والثقافية ، وأصبحت لديهم الجاهزية الدائمة لأن تتحرك مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه أية قضية أو مسألة تهم المسلمين في كل مكان ، ويمكن لهذا التكتل الشعبي العظيم أن يتحرك لمناصرة ومساندة المسلمين في أي موقع على ظهر الأرض ، وهناك دول إسلامية وشعوب وأقليات وجماعات وأفراد في حاجة ماسة إلي تحرك ذلك التكتل فكراً وسلوكاً ، معنوياً وحركياً .

إن المجتمع الدولي في الوقت الراهن تمثلت أهم معالمه في أنه أصبح مجتمع تكتلات سواء أكانت تكتلات دول أو تكتلات شعوب ، وبات يحترم حركة تلك التكتلات في شكليها الفكري والسلوكي ، وما يهمنا في هذا العنصر هو حركة المسلمين كتكتل شعبي يفرضون من خلاله أرادتهم ، ويقولون كلمتهم من أجل نصرة إخوانهم في كل مكان على ظهر الأرض ، أما فيما يتعلق بحركة المسلمين كتكتل دولي فهو محور اهتمام العنصر التالي .

* تطوير مفهوم الأمة كأداة للحركة في المعترك الدولي :

الإجراء الثالث والأخير يتمثل في تطوير مفهوم الأمة كأداة للحركة في المعترك الدولي كشخصية دولية تملك مقدرات ومكنات غير عادية ، وذلك من خلال إيجاد صيغة للتكتل والاندماج الدولي على مستوى العالم الإسلامي ، فالمطلوب بداءة تطوير صيغة للتكتل والاندماج بين الدول الإسلامية ، وهذه الصيغة إما أن تكون تطويراً للصيغة الحالية وهي منظمة المؤتمرة الإسلامي ، وإما أن تكون صيغة مبتكرة يتفق عليها علماء الأمة ، والتعاون والتنسيق وارد بين علماء الأمة ورجال الحركة فيها من أجل التوصل إلي تلك الصيغة .

أما الخطوة التالية فهي تتبلور في اعتماد تلك الصيغة كشخصية اعتبارية يتم التعامل بها على مستوى المجتمع الدولي ، وتصبح الأمة الإسلامية ممثلة بكاملها في تكتل دولي يتعامل مع شخصيات ذلك المجتمع سواء أكانت دولاً أو منظمات دولية أو شخصيات اعتبارية أخرى ، وحري بالمجتمع الدولي أن يتعامل مع ذلك التكتل باحترام وتقدير ، وذلك توقيراً لما يتمتع به وما يكنه من مقدرات ومكنات ، وتماشياً مع الأمر الواقع حيث تسود القوة ويُحترم حائزوها .

وينعكس الوضع المترتب على السيناريو المقترح أعلاه على قضايا الأمة الإسلامية ووضعها البيني ، أي بين الوحدات التي تتكون منها ، والعالمي ، أي بينها وبين شخصيات المجتمع الدولي ، وما من شك في أن قضايا الأمة الإسلامية ووضعية المجتمع الدولي بنظامه الحالي وموقع الأمة في ذلك النظام في احتياج شديد إلي تطوير مفهوم الأمة كأداة للحركة على النحو السابق .

ثالثاً : الدولة كأداة للحركة السياسية :

انتهينا إلي أن الأمة ستظل في المنظور الإسلامي أداة فاعلة للحركة السياسية على مستوى العالم الإسلامي وكذا على مستوى المجتمع الدولي ، إلا أن الواقع الدولي وعلى شاكلته واقع العالم الإسلامي يرفضان الوجهة الإسلامية ، ويقدمان بديلاً للأمة وهو الدولة ، فالدولة وفق الواقع الدولي هي أداة التعامل والفاعل الرئيسي في المعترك الدولي ، وكان ذلك الوضع كفيلاً بأن يثير إشكالية تعترض سياق المنظور الإسلامي إذ كيف لذلك المنظور أن يوفق بين طروحاته التي تقدم الأمة على أنها نموذج الحركة على كافة المستويات المحلية والإقليمية والدولية وبين الواقع الدولي الذي أهمل الأمة واعتبرها مأثورات تراثية ، اعتمد

عليها كأداة للحركة في المعترك الدولي خلال حقب تاريخية ماضية ، وتحول عنها إلي الدولة التي أصبحت الفاعل الرئيسي في ديناميائه ، إن هذه الإشكالية تفرض على المنظور الإسلامي أن يحتفظ بطروحاته الفكرية على اعتبار أنها من الثوابت الراسخة في المرجعيات الإسلامية ، وأن يتعامل في نفس الوقت مع الواقع الدولي بمرونة وتفاهم ، لأنه يدرك أن التعامل مع ذلك الواقع أمر حتمي تفرضه مصلحة الأمة ومستقبلها كذلك ، ومن ثم فقد طوّر المنظور الإسلامي وجهته الخاصة بالدولة كأداة للحركة السياسية ، وذلك من خلال التدرجية الفكرية التالية :

* علاقة الارتباط العضوي بين الأمة والدولة :

المنظور الإسلامي لا يرفض الدولة ، ولكنه يقبلها ويعي وظيفتها ودورها كأداة للحركة السياسية في صيغتها القانونية والشكلية ، ويرى أن ثمة ارتباطاً عضوياً بين الأمة والدولة ، فالأمة — كما سبق وأوضحنا — أساسها الارتباطات والوشائج المتمثلة في التاريخ المشترك والحضارة والثقافة والمصالح والمستقبل كل هذا إضافة إلي المرجعيات الشرعية ، ثم تأتي الدولة لتجسد الوجود المادي للأمة في شكل كيان ملموس مكون من البشر والحيز المكاني أو المجال الجغرافي والحكومة ، ومن ثم فالأمة والدولة في المنظور الإسلامي وجهان لكيان واحد ، وجه يمثل المقومات والعناصر المعنوية ، وآخر يجسد المقومات والعناصر المادية .

معنى ما تقدم أن المنظور الإسلامي لا يرفض الدولة ، ولكنه يقبلها موظفة ومدرجة في موقع محدد لها ، تؤدي من خلاله دورها ووظيفتها ذات الصبغة الشكلية القانونية فتتقاسم الأدوار مع الأمة ، ويتعايشان في كيان واحد عبر علاقة ارتباط عضوي دقيقة ومحددة ، وأي تغيير في شكل وطبيعة تلك العلاقة يخرج بالدولة من نطاق القبول إلي دائرة الرفض وعدم التعايش مع الأمة ، وهذا ما سوف نوضحه من خلال العنصر التالي .

* المرجعيات الإسلامية ترفض تعدد الوحدات السياسية [الدول] في إطار الأمة :

نستخلص مما تقدم أن المنظور الإسلامي لا يقبل إلا دولة واحدة تجسد الوجود المادي للأمة ، فالأمة الإسلامية بمقوماتها المذكورة أعلاه لا يجسدها إلا دولة واحدة ، ومن ثم فالأمة مجسدة في دولة واحدة ، وليس ثمة إلا دولة واحدة تجسد الأمة الإسلامية والمرجعيات الإسلامية ترفض تعدد الوحدات السياسية [الدول] في إطار الأمة ، وذلك الرفض يجد منطلقه في طبيعة الأمة الإسلامية وحقيقة رسالتها كأمة داعية حيث أن ذلك التعدد يتنافى مع ما يُفترض أن تكون عليه الأمة من التوحد حول عقيدة التوحيد ، ثم أن ذلك التعدد يتعارض مع حركة الأمة في اتجاه نشر الإسلام والدعوة إليه .

إن ظاهرة تعدد الوحدات السياسية [الدول] في إطار الأمة الإسلامية وكتجسيد لها لم تبد إلا بعد انهيار الخلافة العباسية ، ولو أن ثمة عدة محاولات بُذلت في اتجاه إعادة وضعية الأمة إلي ما كانت عليه من التطابق بين الأمة والدولة ، قام بها الأيوبيون في مصر والشام ثم المماليك وأخيراً العثمانيون ، إلا أنها جميعاً باءت بالفشل ، ثم تحولت تلك الظاهرة إلي واقع عايشه المسلمون وتكيفوا معه ، ولكن المرجعيات الإسلامية ظلت له رافضة وعنه معرضة ، وتعتبره وضعاً شاذاً تنتظر يوم تعديله وتصحيحه .

* قبول تعدد الوحدات السياسية [الدول] في إطار الأمة الإسلامية خضوع للأمر الواقع :

إذا كانت المرجعيات الإسلامية ترفض تعدد الكيانات السياسية [الدول] في إطار الأمة ، فهل المسلمون غافلون عن ذلك ؟ أم أنهم مصرون على تمزيق الأمة إلي كيانات عديدة ؟ أم أنهم خاضعون للأمر الواقع الذي ليس بإمكانهم تغييره ؟ إن هذا السؤال لابد أن يقفز إلي

ذهن كل مسلم اطلع على تاريخ الأمة أو بعض منه ويعاين واقعها المؤلم الذي تعيشه في تفكك وتدهور ! .

إن أكثرية المسلمين لاهون في أمور عديدة ، فقد جرفتهم المصالح الذاتية في غمرتها . ثم استنفدت الصراعات بينهم الكثير من قوتهم ، ثم أجهزت عليهم صراعاتهم مع الآخر ، وبدوا الآن كياناً هامداً وجسداً تنقصه الروح ، وإذا كان ذلك هو حال الأكثرية ، فلا يزال هناك أولو بقية يجاهدون من أجل إخراج الأمة من المستنقع الذي تردت فيه وبث الحياة في جسدها المقعد ، والبادي للمحلل أن الأمة بوضعيتها المشار إليها متغافلة بالفعل عن ما تدعو إليه المرجعيات الإسلامية من ضرورة التوحد والتكتل في كيان واحد ورفض تعدد الكيانات السياسية في إطارها ، وما من شك في أن هذا التغافل الذي هو حال أكثرية الأمة تدعمه بل وتفرضه ظروف وأوضاع أخرى حرية بالإيضاح والتحليل .

لقد تبددت جهود القلة التي تبذل في سبيل لمّ شمل الأمة وتوحيد شتاتها ، وذلك بفعل إصرار الأكثرية على التغافل عن موقف المرجعيات الإسلامية إزاء هذه الإشكالية ، ويأتي في مقدمة هذه الأكثرية المتغافلة كافة النظم السياسية في الدول الإسلامية ، ثم يأتي بعد ذلك كافة طبقات وفئات المجتمعات المسلمة المستفيدة من هذه النظم والمنتفعة كذلك من وضعية الشتات والتمزق في دويلات عديدة ، وفي الأخير تأتي عامة الشعوب والمجتمعات الإسلامية التي كبتتها الطائفتان الأوليان وأمعنتا في سحقها ، مما صرفها عن أحوال وواقع أمتها إلى مجرد البحث عن لقمة العيش لمواصلة الحياة .

إن ثمة إصراراً من الطائفتين المذكورتين على استمرار وضعية الأمة من الشتات والتمزق في دول متفرقة ، ومبعث ذلك الإصرار هو الخوف على المصالح الخاصة والمكاسب الذاتية التي

تجنيها الطائفتان من وراء تلك الوضعية ، والجميع يعلم أن تكتيل الأمة في كيان واحد لابد أن يعصف بكافة الأنظمة السياسية القائمة لأنها بعيدة عن منهج الله وشرعه الحنيف .

وعليه فإن الأبرار من أبناء هذه الأمة المجاهدين في سبيل لمّ شملها وجمع شتاتها لابد أن يقبلوا بالأمر الواقع ويسلموا به على أنه وضع طارئ وظرف شاذ مآله إلي الزوال مهما طال زمانه وادلهم ليله وثقلت مصائبه ، والقبول يعنى التكيف والتأقلم مع الأوضاع والانطلاق من ذلك لمواصلة الجهاد لتحقيق الهدف والمقصد ، ولكن على الجميع أن يعي أن القبول بالأمر الواقع لا يعنى بحال الرضا به والاقتناع ، بل هو مجاراة لتطوراته وفهم لتفاعلاته ، حتى يمكن التعامل معه وتلمس سبل تغييره .

* ضرورة التحرك في الوقت الراهن على مستوى الوحدة السياسية [تفعيل النموذج الجزئي للممارسة] :

إننا مأمورون من خالقنا بألا نكف عن العمل والجهاد في سبيل إعلاء شأن دينه بتقديم النموذج والمثال الذي يعكس منهج الله وطريقه المستقيم ، ولا ينبغي أن يمثل الأمر الواقع بأوضاعه غير المواتية حجر عثرة يثنينا عن تحقيق ذلك الهدف ، فالاستسلام للأمر الواقع ليس من طبيعة المسلمين ، ولكن كيف يتحرك المسلمون في الوقت الراهن على مستوى الوحدات السياسية [الدول] المتعددة في إطار الأمة الإسلامية ؟ .

ولعل المتاح أمام المسلمين في الوقت الراهن هو تفعيل النموذج الجزئي للممارسة ، ونقصد بالنموذج الجزئي للممارسة الوحدة السياسية التي هي الدولة على اعتبار أن النموذج الكلي هو الأمة الإسلامية بكاملها ، أما التفعيل فيعنى أن تقوم الدولة بوضعها الحالي بالتحرك في اتجاه تحقيق أهداف الأمة بكاملها ، وبقيام كل الدول الإسلامية بهذا الدور والتحرك في

اتجاه واحد يحدث التوحد في الحركة وفي الاتجاه وأخيراً في الهدف فتصل الدول الإسلامية في نهاية المطاف جميعها إلي هدف واحد وهو ما ينبغي أن تقوم به الأمة ككتلة واحدة ، ويحتاج هذا التحرك اتفاق بين أبناء الأمة على أكثر من مستوى : المستوى الأول : مستوى المفكرين والعلماء ورجال الحركة ، وهذا المستوى من شأنه أن يرسم السياسات والخطط ويضع الطروحات والرؤى التي ينبغي أن تصل في خطاب سهل وميسر إلي أبناء المجتمعات المسلمة وهو المستوى التالي ، المستوى الثاني : المستوى الشعبي ، وهو أهم المستويات التي ينبغي أن يدعم المستويين الآخرين ، فهو يمثل حلقة الوصل وأداة الربط حيث يتم تعبئته وتوجيهه عن طريق المستوى الأول ، وهو في ذات الوقت يشكل وسيلة ضغط قوية على النظم السياسية في اتجاه التوحد من أجل تحقيق أهداف الأمة ، المستوى الثالث : مستوى النظم السياسية ، وهذا المستوى هو الذي يتحرك رسمياً في اتجاه تفعيل النموذج الجزئي للممارسة ، ولكنه ينتظر المستوى الشعبي الذي يضفي على تحركاته الشرعية .

هذه المستويات الثلاثة تعمل متكاتفة على مستوى دول العالم الإسلامي من أجل تفعيل النموذج الجزئي ، ونقل الدولة من أداة فصل وقطع داخل الأمة إلي أداة وصل وربط بين أجزاء الأمة بشكل مؤقت إلي أن تذوب هذه الأداة في كيان الأمة وتصبح بمثابة كتلة واحدة ، ويحتاج ذلك إلي جهود مكثفة محركها الرئيسي هو المستوى الأول المتمثل في " هيئة كوكبة علماء الأمة " .

المبحث السادس

المنهاج الإسلامي [النظام السياسي] أداة للحركة السياسية

للمنهاج الإسلامي خصوصيته وارتباطه العضوي والأصيل بالظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، ولتقريبه إلي ذهن القارئ ولزوم التحليل اعتبرناه يناظر النظام السياسي في الفكر الموضوع ، وكذلك للتقارب في التكوين والتماثل في الوظائف ، وربما نكون قد أشرنا إلي ذلك في موضع خلا ، ويعد المنهاج الإسلامي من أدوات الحركة المهمة في الظاهرة السياسية من المنظور الإسلامي ، وتحتاج هذه الأداة مثل غيرها التطوير المستمر ، حتى تتمكن من أداء وظيفتها داخل تلك الظاهرة بكفاءة وفعالية . فكيف إذن يمكن تطوير تلك الأداة ؟ ثمة عدة وسائل يمكن عن طريقها تطوير المنهاج الإسلامي كأداة للحركة السياسية ، نتناولها فيما يلي :

أولاً : تطوير مفردات المنهاج بشكل مستديم :

للمنهاج الإسلامي مفردات عدة ذكرناها تفصيلاً عند حديثنا عنه ، وهذه المفردات تحتاج دوماً إلي عمليات تطوير تستهدف رفع الكفاءة وزيادة الفعالية ، ولكل مفردة من تلك المفردات وسائل خاصة وآليات معينة ، يمكن عن طريقها إتمام عملية التطوير ، فآليات تطوير مفردة الحاكم مثلاً تختلف عن آليات تطوير الشق الحركي التنظيمي لقيمة الشورى ، وكذلك عن الحكومة الإسلامية ، وعن مفردة النصح والتوجيه .. الخ ، ويمكن بسط ما تقدم في استعراض سريع من خلال ما يلي :

* مفردة الحاكم :

مفردة الحاكم تعد من أصول وقواعد الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، وتغلف هذه المفردة مجموعة من المتغيرات ذات الطبيعة التنظيمية الحركية ، وهذه المتغيرات تدخل في نطاق الشق التطبيقي القابل للتطوير والتغيير في الظاهرة السياسية ، ويتولى هذا التغيير أبناء المجتمع المسلم بما يتواءم مع متغيرات الزمان والمكان . ومن تلك المتغيرات يمكن الإشارة إلي الآتي :

- شروط الترشيح لولاية الأمر : من شأن أبناء كل مجتمع وفي كل زمن أن يحددوا جملة الشروط والمواصفات الخِلقية والخلقية التي ينبغي أن تتوفر في المرشح لولاية الأمر ، وإن كانت هناك شروط ومواصفات ذات طبيعة عامة ومتفق عليها ولا تتغير وهي التي تمس صميم مهام ووظائف هذه المسئولية الجسيمة ، إلا أنه في ذات الوقت ثمة شروط ومواصفات أخرى قد تختلف من مكان إلي آخر ومن زمان إلي آخر ، وهذه المتغيرات هي التي يحددها أبناء كل مجتمع وأتراب كل زمان .

- طريقة الاختيار ومواصفات من لهم حق الاختيار : طريقة اختيار ولي الأمر ، وكذا من يتولون مهمة ذلك الاختيار من أفراد المجتمع المسلم ، تعد من الأمور التي يصيغها ويقننها أبناء كل مجتمع مسلم بما يناسب ظروفهم وطبيعة حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، ولا خلاف على ذلك مطلقاً طالما أن تلك الطرق تحقق القصد والغاية .

- ميثاق البيعة : ميثاق البيعة — كما سبق وأوضحناه — في حد ذاته إحدى ثوابت الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، إلا أن طريقة إبرامه وما يحويه من التزامات وتعهدات

بخصوص كل طرف من طرفيه هي من الأمور التي قد تـتغير مـن مجتمـع لآخـر ومـن زمـن لآخر .

* مفردة مجلس الشورى [إحالة] :

بخصوص مفردة مجلس الشورى كإحدى مفردات المنهاج الإسلامي ، نحيل إلي دراستها في المبحث السابع .

* مفردة نسق القيم الإسلامية [إحالة] :

أيضاً بخصوص مفردة نسق القيم الإسلامية كإحدى مفـردات المنهـاج الإسـلامي نحيـل إلـي دراستها في المبحث التالي .

* مفردة أهداف الدولة الإسلامية :

سبق لنا أن فصلنا أهداف الدولة الإسلامية في أربعة أهداف على النحو التالي :

- إقامة شرع الله والعمل بكتابه .

- وإعمار الأرض وإنماء مقدرات المجتمع .

- وإقرار الأمن وحماية المجتمع من التعديات الخارجية .

- ونشر الإسلام والدعوة إليه .

ويلاحظ أن هذه الأهداف للدولة الإسلامية هي في ذات الوقت مهام ووظائف المنهاج الإسلامي بمفرداته التي نعكف على تفصيلها ، ويلاحظ كذلك أن تلك الأهداف تعد من ثوابت الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، ولكن قد يمكن لأي مجتمع من المجتمعات الإسلامية وفي أي زمان أن يُجري بعض التعديلات أو التغييرات على هذه الأهداف في ترتيبها من حيث الأولوية والأهمية ، ولكن لا يمكنه بحال النيل من وجودها ذاته كأساس ثابت .

* مفردة الحكومة الإسلامية :

الحكومة الإسلامية تختلف في عددها وتشكيلها وتوزيع مهامها من مكان إلي آخر ومن زمان إلي آخر ، إلا أن طبيعة مهامها ووجودها كمفردة من مفردات المنهاج الإسلامي تعد من الثوابت التي لا تتغير داخل الظاهرة السياسية .

ثانياً : اختبار سلامة العلاقات بين مفردات النظام :

تمثل العلاقات بين مفردات المنهاج الإسلامي أدوات ربط تلك المفردات وجذبها إلي بعضها ، وكلما كانت تلك العلاقات علي درجة من القوة والمتانة كان المنهاج بكامله كنظام مستقل بذاته على نفس الدرجة من القوة والمتانة ، فالعلاقات إذن بين مفردات المنهاج تقوى تلك المفردات كوحدات مستقلة ، ثم تقوى في مرحلة تاليه المنهاج بكامله ككيان قائم بذاته ، وتبدو تلك العلاقات على أرض الواقع في شكل ارتفاع في مستوى كفاءة الأداء ، وسرعة الإنجاز ، وتحقيق الأهداف التي حددها المنهاج لنفسه ، ويتم اختبار سلامة تلك العلاقات من خلال أدوات وآليات عدة منها :

• مدى نجاح كل مفردة في القيام بدورها كما هو مرسوم لها :

لكل مفردة في المنهاج الإسلامي هدف محدد ، ويقترن بذلك الهدف خطة معدة ومهيأة من أجل تحقيق ذلك الهدف ، وإلي جانب الهدف والخطة هناك الآليات والأدوات التي تخصص للإنجاز ، وعلى كل مفردة أن تقوم بتدوير هذه العناصر في دورة كاملة ، حيث يتم وضع الخطة على أرض الواقع ومن خلالها تبرز الآليات والأدوات التي تتولى عبر الإمكانات والمقدرات تحقيق وإنجاز الأهداف ، ويعقب هذه الدورة الكاملة التي تم تشغيل عناصر المفردة خلالها بكامل طاقتها عملية تقييم للنتائج المحققة ، ومن شأن هذه النتائج أن تقدم قياساً كمياً لنجاح كل مفردة في القيام بدورها المحدد لها في الخطة العامة للمنهاج .

• ما تضيفه كل مفردة إلي الأخرى من عناصر قوة ومساندة ودعم :

يقوم المنهاج الإسلامي — كما سبق الإيضاح — على فكرة المساندة والدعم والاعتماد المتبادل بين مفرداته ، ومن هذا المنطلق فإن كل مفردة تضيف إلي الأخرى قوة ودعماً ومساندة ، ومن شأن هذا الزخم أن يعين المفردة على القيام بمهامها ووظائفها على أكمل وجه وأتم صورة ، ومعلوم أن كل مفردة إن هي إلا لبنة في صرح المنهاج العظيم ، وتمثل هذه الإضافة أحد المعايير المهمة التي بناءً عليها يتم اختبار سلامة العلاقات بين مفردات المنهاج ، فكلما كانت الإضافة وفيرة كانت العلاقات بين تلك المفردات متينة وبدا المنهاج متماسكاً والعكس صحيح .

• مدى نجاح المنهاج بكامله في تحقيق أهدافه التي هي في ذات الوقت أهداف للدولة الإسلامية وجزء من أهداف الأمة بكاملها :

استنباطاً مما تقدم يمكن الانتهاء إلي أن كافة مفردات المنهاج تعمل بقواها الذاتية وتساهم في ذات الوقت متكاتفة ومتضامنة مع بعضها من أجل أن يتمكن المنهاج ككيان متكامل من تحقيق أهدافه التي تمثل أهداف الدولة وجزءً من أهداف الأمة ، وبمقدار نجاح المنهاج في تحقيق أهدافه تتحدد وتتضح سلامة العلاقات بين مفردات المنهاج ، يضاف إلي ما تقدم أن استمرار العلاقات بين المفردات ونشاطها وازدهارها لهو دليل كذلك على سلامتها .

ثالثاً : الحفاظ على علاقة المنهاج بالبيئة [المجتمع] الداخلي والخارجي :

للمنهاج بيئتان يمارس خلالهما نشاطه ، بيئة اقرب وأكثر تماساً به وهي المجتمع المسلم الذي يعمل به ويتفاعل معه بشكل مباشر ، وبيئة أبعد وأقل تماساً معه وهي المجتمع العالمي الذي يتعامل معه المنهاج بشكل غير مباشر ، ويرتبط المنهاج بهاتين البيئتين من خلال آليات وحلقات وصل عديدة ومتنوعة .

والتعامل والتفاعل المستمران مع البيئة سواء أكانت الداخلية أو العالمية من المسائل التي تستوجب تطوير المنهاج الإسلامي كأداة من أدوات الحركة السياسية ، فهو يُتطور من أجل أن يظل أداة فعالة داخل البيئتين بما يحقق أهداف الأولى ويتلافى بوائق الثانية .

المبحث السابع

نسق القيم السياسية الإسلامية أداة للحركة السياسية

بالرغم من أن نسق القيم الإسلامية يعد إحدى مفردات المنهاج الإسلامي إلا أنه يمثل في ذات الوقت أداة للحركة السياسية ، ومن ثم فقد رأينا أن نتناوله بشكل مستقل نظراً لما يتطلبه من تحليل وتفصيل قد يوجه لكل قيمة على حدة ، إضافة إلي اشتمال كل قيمة على جانبين : جانب فكري معنوي وآخر مادي إجرائي ، فإذا كان الجانب الفكري النظري يتعلق بالأبعاد الثابتة في الظاهرة السياسية ، فإن الجانب التطبيقي العملي يرتبط بالأبعاد المتغيرة والتي تقترن بالزمان والمكان وهي محل تحليلنا في هذا المبحث ، وذلك على النحو التالي :

أولاً : الجوانب الإجرائية في قيمة البيعة :

جميع القيم الإسلامية تتضمن بعدين : البعد الأول هو البعد المعنوي الفكري الذي يحمل المضمون العقلي والمحتوى الدلالي للقيمة ، والبعد الثاني هو البعد التطبيقي الواقعي الذي يمثل التجسيد الإجرائي والتنفيذ التنظيمي للقيمة ، فالبعد الأول ثابت لا يتغير في المرجعيات الإسلامية ، وهو يحمل نفس سمات وخصائص تلك المرجعيات ، أما البعد الثاني فهو متغير وقابل للتواؤم مع متغيرات الزمان والمكان والأبعاد المتغيرة في الإنسان ، وعليه فالجانب الثاني هو الجانب الإجرائي المتصل بالتنظيم ، وهو عينه الذي نعالجه في هذا الفصل تحت مسمى أدوات ونماذج الحركة ، وإزاء هذا الجانب فحرية الحركة مكفولة لأبناء المجتمع المسلم لكي يطوروا ويرتقوا بالإجراءات والتنظيمات التي تكفل الحفاظ على المضمون والمحتوى المثالي للقيمة .

ولكن ما ينبغي الإشارة إليه والتأكيد عليه ، هو أن ترك الجانب الإجرائي التنظيمي في القيمة لأبناء المجتمع ، وإعطاءهم حرية الحركة إزاءه ، لم يكن دوماً يتحرك في اتجاه الترقي والسمو بالقيمة والحفاظ على مضمونها ومحتواها المثالي ، كما هو مأمول ، ولكن ما كان يحدث هو التحرك في الاتجاه المعاكس ، وكان لذلك أثره على نسق القيم الإسلامية ، حيث بدت الجوانب الإجرائية التنظيمية للقيم عقيمة ومعقدة وانعكس ذلك بالتالي على المضمون والمحتوى المثالي لتلك القيم بالتعتيم والتشويش . وذلك ما سوف نتناوله بمزيد من التفصيل والتحليل في المبحث التالي .

* طريقة اختيار الحاكم :

طريقة اختيار الحاكم من المسائل التي تحتاج إلى تطوير مستمر من أبناء المجتمع المسلم في اتجاه العمل على إشراكهم أجمعين في اختيار أولى الأمر ، وهذا التطوير يفترض ابتكار الطرق الخاصة بذلك الاختيار تلك الطرق التي تكفل تمام الاختيار وواقعيته .

* الاتفاق بين الحاكم والجماعة المسلمة :

كذلك ينبغي للجماعة المسلمة التطوير المستمر لبنود الاتفاق بين أولى الأمر والجماعة [اتفاق البيعة] بما يحتوى المستجدات والمتغيرات ، والسؤال الذي يثار في هذا السياق مفاده : هل اتفاق البيعة الذي ينبغي أن يتم بين أولى الأمر والجماعة المسلمة هو اتفاق صريح أم ضمني ؟ إن الرجوع إلى المرجعيات الإسلامية قد يفيد في استنباط ما مؤداه أن اتفاق البيعة ينبغي أن يكون صريحاً واضحاً دقيقاً ، ولكنه موجزاً وشاملاً ، فهو اتفاق بين الجماعة وأولى الأمر على الالتزام بشرع الله والعمل بكتابه في كل الأمور وكافة الشئون ، وذلك الالتزام ينبغي أن يتم من قبل الطرفين ، فما ينبغي أن يُفهم أن مطلب الالتزام بشرع الله

والعمل بكتابه موجه لأولى الأمر فيما هم مفوضون فيه من جانب الجماعة المسلمة ، كما أنه موجه في ذات الوقت للجماعة المسلمة في كافة علاقاتها وتفاعلاتها ومعاملاتها ، وكل طرف رقيب على الآخر وحريص على التزامه ببنود ذلك الاتفاق ، وله حق إلزام الآخر وتقويمه ، فأولو الأمر يقوّمون الناس ، ويحكمون بينهم وفق شرع الله ، فيردون كل خارج ويعيدون كل مارق ، والجماعة المسلمة من جهتها تقوّم أولى الأمر ، وتعيدهم إلى النهج القويم ، إذا انحرفوا عنه .

وتفريعاً عما تقدم يمكن استنباط ما يفيد بأن أساليب وطرق تقويم كل طرف للآخر هي الأخرى ينبغي أن تتطور بما يوائم المستجدات ويواكب المتغيرات وبما يحمل في النهاية صلاح المجتمع ويقيه شرور الفتن والقلاقل .

إن ما تقدم يفيد أن الحكم في الإسلام وممارسة السياسة متداول بين أولى الأمر والجماعة ، وأن أمور الحكم والسياسة في الإسلام ما هي إلا عملية توزيع أدوار بين طرفين : فأولو الأمر يحكمون ويمارسون السياسة وفق دور وطريقة وموقع معين والجماعة المسلمة بدورها تحكم وتمارس السياسة وفق دور وطريقة وموقع معين ، فالجماعة المسلمة إذن أولياء أمورها وجميع أفرادها يمارسون السياسة والحكم وفق أدوار قدّرت لكل طرف وآليات خصصت لكل جانب ، وعليه **فالإسلام لا يعرف إلا جماعية السياسة والحكم .**

* التطوير نحو جماعية السياسة والحكم :

ينبغي تطوير الحكم والسياسة في الإسلام ، لكي يصلا إلى وضعيهما الأمثل كما جاء من عند الخالق العظيم ، وحوّله الرسول الكريم إلى واقع وتطبيق ، واقتفى أثره الخلفاء الراشدون حيث تمارس بشكل جماعي ، فجماعية السياسة والحكم في الإسلام تتفق مع طبيعة

الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، وهي مستوحاة من ما افترضه الشارع العظيم ، حيث بين سبحانه أن تصريف شئون المسلمين وترتيب أمورهم لا يقوم به فرد واحد ، بل يتولى أمرها جماعة مختارة من الجماعة المسلمة ، فلننظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى " يآ أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر ذلك خير وأحسن تأويلاً "[1]. وإلي قوله جلّ وعلا " وإذا جآءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا بـه ولـو ردوه إلى الرسـول وإلى أولى الأمـر منهم لعلمـه الذين يستنبطـونه منهم ولولا فضـل الله عليكـم ورحمته لا تبعـتم الـشيطـان إلا قليـلاً "[2] .

وهاتان هما الآيتان اللتان ذكرتا أولى الأمر في الذكر الحكيم ، وقد جـاءت اللفظـة في صيغة الجمع ، ولذلك دلالته الواضحة التي تفيد أن أولى الأمر جماعة وليسوا فرداً كما أنهم يتوزعون على كافة المراكز والمواقع ذات الشأن في المجتمع ، والتي يتم فيها اتخاذ القرارات في كافة الشئون وجميع الأمور ، ومعنى ذلك أن كل مسئول في أي موقع أو مركز داخل الجماعة الإسلامية يندرج ضمن أولى الأمر الذين يمارسون السياسة والحكم ، ومفاد ما تقدم أن الإسلام لا يعرف حكم الفرد ، ولكنه يفرض جماعية ممارسة السياسة والحكم .

إضافة إلى ما تقدم فإن الجماعة من جهتها في عمومها وشموليتها تمارس السياسة والحكم من خلال عدة ممارسات أهمها : أنها تختار أولى الأمر ومجلس الشورى والحكومة ، وتمارس الرقابة على كل هؤلاء ، ولها حق تقويمهم وسحب الصلاحيات والمسئوليات منهم ، إذا ثبت عدم التزامهم بعقد البيعة المتفق عليه .

[1]. سورة النساء : ٥٩ .
[2]. سورة النساء : ٨٣ .

ثانياً : الجوانب الإجرائية في قيمة الشورى :

في هذه الجزئية ننتقل إلى الحديث عن قيمة من أهم قيم النسق الإسلامي وهي قيمة الشورى ، ولكن في بعدها الإجرائي العملي التطبيقي التنظيمي ، لقد جاء الطرح الإسلامي فيما يتعلق بالممارسة السياسية واضحاً صريحاً عبر مرجعياته النهائية المتمثلة في القرآن والسنة ونموذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين ، وكانت أداته التي تعد أكبر وأهم وأخطر إشكالية تواجه ذلك الطرح في الوقت الراهن هي الشورى ، وللأسف والأسى معاً أن المسلمين ينظرون إلى هذه القيمة نظرة قاصرة ينقصها الفهم العميق والاستيعاب الواسع والتفاعل الدقيق .

* كيف تطورت الشورى كعملية وتنظيم في التاريخ الإسلامي :

– حال وجود الرسول الكريم على رأس الدولة الإسلامية كانت الجهود في جلّها موجهة نحو الجهاد من أجل نشر الدعوة وإقامة أركان الدولة ، وكان الرسول على اتصال مباشر ودائم بأفراد المجتمع ، فكان الرجوع إليهم واستشارتهم في الأمور التي لا ينزل فيها وحياً عملية تتم بشكل مباشر ، ويشمل كافة قضايا المجتمع ، وقد سبق وأوضحنا كيف تم ذلك تفصيلاً .

– بعد ذلك وفي عهد الخلافة الراشدة بدأ المسلمون شيئاً فشيئاً يفكرون في أمورهم الخاصة ، ومشاكلهم الذاتية ، ورغباتهم التي يسعون نحو إشباعها ، وكان الخلفاء الراشدون من جهتهم يسعون جاهدين من أجل إشباع تلك الرغبات وقضاء حوائج الناس ، وكان الاتصال لا يزال مباشراً بين الخلفاء وأولياء الأمور وبين أفراد المجتمع ومن ثم كان الرجوع إلى

الناس ومشاورتهم في كافة الأمور سهلاً ويسيراً ، ولكنه كان في ذات الوقت ضرورياً وذلك لأكثر من سبب :

السبب الأول أن الرسول الكريم كان قد انتقل إلى الرفيق الأعلى وانقطع الوحي عن النزول إلى السماء الدنيا ، ولم يعد الحكم في الوقائع والتطورات والمستجدات ينتظر نزول الوحي على الرسول الكريم .

السبب الثاني أن الخلفاء لم يرغبوا في إصدار الأحكام والآراء في المستجدات ، خوفاً من الوقوع في الخطأ من ناحية ، وتطبيقاً لقيمة الشورى من ناحية أخرى ،

السبب الثالث أن الخلفاء كانوا على يقين من أن الشورى فريضة والعمل بها واجب والالتزام بها والمداومة عليها إقتداءً وتأسياً بالرسول الكريم .

السبب الرابع أن متغيرات ومستجدات الحياة كانت قد بدأت تأتي بما لم ترد بخصوصه نصوص شرعية من قرآن أو سنة ، كل ما تقدم جعل من الشورى عملية حياتية تصاحب الناس في حياتهم .

- بعد ذلك وابتداءً من العصر الأموي وحتى الآن ، اختلفت الأمور وتبدلت الأحوال فالحاكم وأولياء الأمور يسعون نحو تحقيق مصالح الناس وإشباع رغباتهم وقضاء حوائجهم ، ولكنهم لا يفلحون في ذلك بشكل تام ، وأسباب ذلك عديدة : منها أنهم قد انشغلوا عن ذلك ولم يعد همهم الأول وشغلهم الشاغل ، ومنها كذلك أنهم بعدوا عن الالتزام بمنهج الله وشرعه الحنيف في التعامل مع مجتمعاتهم ، ومنها أيضاً أن الفجوة بينهم وبين أبناء

مجتمعاتهم قد اتسعت بشكل فصل بين الحاكم والرعية وصرف كلا منهما إلى شأنه ، ومنها أخيراً أن المستجدات والمتغيرات لم تعد تجد من يستوعبها ويبين رأي الشرع إزاءها .

إن ما تقدم جعل أفراد المجتمع في حالة بحث عن وسائل وأدوات ، لكي يعبرون بها عن حاجاتهم ورغباتهم ، وقد اختلفت وسائل وأدوات التعبير من مجتمع إلى آخر ومن زمن إلى آخر ، وأصبحت تلك الوسائل والأدوات بمثابة وسائل وقنوات اتصال بين أفراد المجتمع وولاة الأمر ، وعليه باتت الحاجة ملحة إلى الآتي :

☐ أن يعرب الناس عن رأيهم وفق مدركاتهم فيما يعن لهم من قضايا وإشكاليات يعج بها المجتمع .

☐ أن يناقشوا تلك الآراء والمقترحات .

☐ أن يطلبوا حاجاتهم ويعبروا عن رغباتهم .

☐ أن يختاروا من أفراد المجتمع الأكفأ والأصلح والأقدر على إمداد ولاة الأمر بالرأي فيما يستجد من الأمور وليس فيه نص تشريعي شرعي .

☐ أن يراقبوا السياسة العامة وتنفيذها ، تلك التي صاغها مجلس الشورى ، وتهدف إلى تحقيق المتطلبات والرغبات .

☐ وأخيراً أن يقيّموا النظام السياسي بكافة مفرداته ، إن كل ما تقدم يتم عبر قيمة الشورى في شكلها التنظيمي وخطواتها الإجرائية .

* الشورى ممارسة وليست مشاركة :

ما تقدم بمثل الحيثيات التي تفرض الشورى كأداة فرضها الشرع الإسلامي من أجل تحقيق مصلحة المجتمع المسلم في الحياة الطيبة ، ومن ثم كانت الشورى في جانبها الإجرائي بمثابة ممارسة وليست مشاركة ، فالشورى ممارسة كلية عامة تدخل في كل مجالات الحياة ، وليست جزئية تتعلق ببعض المسائل والقضايا دون الأخرى أو تتم بصدد جزء من القضايا دون بقيتها ، كما أنها ممارسة دائمة تتم في كل الأوقات وليست مشاركة تتم في أوقات يختارها أولياء الأمور والمسئولون ، أو دورية ترتبط بأحداث ومناسبات تتكرر كل فترة من الزمن ، هكذا تكون الشورى في الإسلام عملية ممارسة فعلية أصيلة مباشرة ودائمة يؤديها الفرد المسلم في مجتمعه بنفسه ودون تمثيل أو نيابة من غيره .

* ما هي الشورى في شكلها الإجرائي العملي :

لقد أصبحت الشورى كتنظيم وإجراء وممارسة هي أهم القيم الإسلامية ، ويمكن رصد خصائص الشورى فيما يلي :

- الشورى فريضة شرعية ، فُرضت من خلال مصدري الشرع ، القرآن والسنة وليست خياراً أو اختياراً يتفضل ولى الأمر باختياره أو إتباعه ، ويستوي في ذلك طوراها الفكري والعملي ، النظري والحركي .

- الشورى إذن قيمة وفكر ، ينبغي على كل مسلم أن يستوعبه ، ويفهم أبعاده وجوانبه ، ثم مفرداته ومكوناته ، ثم أشكاله ونماذجه ، وذلك انطلاقاً من كونه فريضة شرعية مثل سواها من الفرائض التي جاء بها الشرع الحنيف .

- الشورى كذلك أداة ونموذج حركة وسلوك وتنظيم ، وهذا هو الشق العملي التطبيقي للقيمة ، وهذا الشق يتضمن أفعالاً وسلوكات عبر أبنية وهياكل وتنظيمات هي عينها ممارسة شئون السياسة والحكم .

- الشورى في شقها العملي الإجرائي بمثابة عملية مستمرة ودائمة ، ولا ترتبط بمسألة اختيار الحاكم أو أعضاء مجلس الشورى أو المسئولين وولاة الأمور في كافة المجالات .

- كذلك فالشورى في شقها العملي الإجرائي عملية متغلغلة في كافة منظمات ومؤسسات المجتمع رسمية كانت أو غير رسمية ، ومن ثم فهي تمارس في كل مكان وفي كل موقع ، وذلك لأنها نمط حياة وأسلوب معيشة .

- أيضاً فالشورى كممارسة ، تعني الرغبة المنبعثة من الإدراك والوعي في الفعل والسلوك وصناعة أحداث وتفاعلات المجتمع .

- الشورى كأداة حركة ونموذج ممارسة وتنظيم نابع من ذات حضارية مستقلة ومنطق ثقافي متفرد .

- الشورى كتنظيم وإجراء ، تفترض الإجماع حول الفكرة الإسلامية ، ولا تدع مجالاً للتحزب والتشيع لغيرها من الأفكار أو الرؤى والطروحات .

- إذا كان ما تقدم عن الشورى كعملية وتنظيم وإجراء وسلوك ، فإن تلك القيمة كأداة ونموذج للحركة ، تحتاج دوماً إلى تطوير في تلك التنظيمات والإجراءات والسلوكات بما يرتقي بالمضمون والمحتوى الخاص بتلك القيمة .

* مستويات الشورى كإجراء وتنظيم :

الشورى كإجراء وتنظيم وممارسة ، تتم عبر عدة مستويات أو مراحل ، يمكن تناولها في الآتي :

– اختيار أولي الأمر ، والمقصود بأولي الأمر المسئولون في كافة الشئون والمجالات ابتداءً بالحاكم وانتهاءً بأي مسئول في أي مجال من مجالات الحياة .

– التشريع فيما ليس فيه نص شرعي ، ويتولى عملية التشريع المجلس الذي يختاره الحاكم أو الجماعة ، وتتم عملية التشريع فيما يتعلق بمواطن الفراغ التشريعي ، والتي سبق إيضاحها .

– تنفيذ السياسات والخطط والبرامج التي يصيغها مجلس الشورى ، وذلك من خلال الحكومة وجهازها الإداري .

– الرقابة على أولي الأمر وأجهزة التنفيذ ، وأجهزة الرقابة تنقسم إلى أجهزة مستقلة ذات طبيعة خاصة ، وأجهزة تعمل ضمن مجلس الشورى ، وأجهزة ملحقة بكل مؤسسة أو دائرة حكومية أو هيئة مستقلة .

– التقييم والتقويم ، آخر مستويات الشورى كإجراء وتنظيم ، يتمثل في عملية التقييم التي تعنى بحساب النتائج ووضعها في قيم مادية ، ويتمثل كذلك في عملية التقويم التي تعنى كشف الاختلالات والانحرافات وإصلاحها وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه .

* تنظيمات وآليات الشورى :

تتمثل آليات وتنظيمات الشورى في الآليات والتنظيمات التالية :

– آلية اختيار الحاكم وأولى الأمر ، ويمكن للجماعة وضع الآليات وصياغة التنظيمات التي تقوم بهذه المهمة بكفاءة وفعالية ، ولعل أنجع تلك الآليات يتمثل في الانتخاب المباشر من أفراد المجتمع للمرشحين للمناصب والمراكز القيادية .

– آلية اختيار مجلس الشورى ، وتتوزع هذه الآلية بين الاختيار من قبل الحاكم والاختيار من قبل أعضاء الجماعة ، حيث ينبغي أن يكون الاختيار من أناس على قدر يعتد به من العلم والخبرة والدراية .

– أدوات وآليات التعبير عن الرأي وإبداء الطروحات والمقترحات والمطالبة بالحاجات ، لمن يملكون إمكانية ذلك التعبير ، وللمجتمع أن يبتكر تلك الأدوات والآليات ، مثل الصحافة أو المؤتمرات الجماهيرية والشعبية والندوات .

– أدوات وآليات وقنوات الاتصال بين أولى الأمر وأفراد المجتمع ، ويفضل أن يكون ذلك الاتصال مباشراً قدر المستطاع ، وتعتبر هذه القنوات في منتهى الأهمية ، وتمثل عصب عملية الشورى كإجراء وتنظيم ، حيث يسمع الحاكم لرأي أفراد المجتمع ويتم اللقاء والاتصال المباشر بين الطرفين ، وقد يحدث أن تصبح تلك الأدوات والآليات غير عملية في الوقت الراهن ، حيث يصبح من غير الممكن إجراء تلك اللقاءات المباشرة بين الحاكم وأفراد المجتمع ، إلا أنه يمكن القول بأن ابتكار الوسائل والأدوات التي تجعل من ذلك اللقاء أمراً ممكناً ويسيراً لن يستعصي على العقل البشري المدعوم بالمرجعيات الإسلامية .

– أدوات وآليات الرقابة والتقييم والتقويم ، كذلك يدخل ضمن إجراءات الشورى كإجراء وتنظيم ، أن يقوم أبناء المجتمع وعبر أدوات وآليات محددة بمهام الرقابة على تنفيذ القرارات ، ثم تقييم نتائج السياسات من خلال قياسات كمية تضاهي نسبة المحقق من الأهداف مع المخطط لإنجازه ، ثم تسليط الأضواء على مواطن الأخطاء والانحرافات ودراستها وتحديد كيفية علاجها ، وتتم هذه الإجراءات الثلاثة عبر آليتين : الأولى من خلال التعرف والاطلاع على آراء أفراد المجتمع ووجهات نظرهم وطروحاتهم ؛ حيث تتجمع عبر قنوات شرعية تخصص لذلك ، والآلية الثانية من خلال تعيين هيئات رسمية تختص بهذه المهام وتكون ضمن مفردات المنهاج الإسلامي .

* الشورى عملية تتسم بالشمولية والاستمرارية :

لعل حصيلة ما تقدم تفيد بأن الشورى كإجراء وتنظيم هي عملية تتسم بالشمولية والاستمرارية ، وتحقيق ذلك أن الشورى في طورها التطبيقي بمثابة عملية ، وهذه العملية تتضمن نسقاً متكاملاً من الإجراءات المنطقية المرتبة والمتدرجة ، التي تتم عبر تنظيمات متخصصة تتحدد مهمتها في إتمام تلك الإجراءات ، وهذه العملية وما تشمله من إجراءات وتنظيمات تتسم بالشمولية والاستمرارية .

– فالشمولية في مجال إجراءات عملية الشورى وتنظيماتها ، تعني أن تلك الإجراءات والتنظيمات إنما تشمل كافة أبعاد العلاقة بين ولاية الأمر وجموع المسلمين في المجتمع ، وتتمثل تلك الأبعاد في : التشريع فيما ليس فيه نص من قرآن أو سنة ، ويتعلق بالمستجدات والمتغيرات المرتبطة بعنصري الزمان والمكان والأبعاد المتغيرة في الإنسان ، ثم في تنفيذ القرارات والسياسات التي تتعلق بإنجاز وتحقيق أهداف الدولة الإسلامية التي أشرنا

إليها والمعينة في : إقامة شرع الله والعمل بكتابه ، والحفاظ على موارد المجتمع وإنمائها وعدالة توزيعها ، وإقرار الأمن والدفاع عن المجتمع ضد التعديات الخارجية ، وأخيراً في نشر الإسلام والدعوة إليه ، ثم في الرقابة والتقييم والتقويم وقد سبق إيضاح ذلك تفصيلاً .

– أما الاستمرارية في مجال إجراءات عملية الشورى وتنظيماتها ، فهي تعنى أن تلك الإجراءات وتنظيماتها دائمة التفاعل والتغلغل في نسيج المجتمع بكافة أنظمته الفرعية وبالذات المنهاج الإسلامي ، فهي لا تنتهي باختيار الحاكم أو ولى الأمر وإبرام عقد البيعة معه ولا باختيار ولاة الأمر في كافة الأمور والشئون الأخرى ، كما أنها لا تنتهي بانتخاب مجلس الشورى ، بل هي دائمة التواجد والتفاعل من خلال اللقاءات المباشرة والدائمة بين ولاة الأمور وأفراد الشعب في كافة الأماكن ، إضافة إلى أن المنفذ والمسئول لا يتجاهل رأي الشعب وطروحاته .

* واقع عملية الشورى كإجراء وتنظيم في العالم الإسلامي بعد عصر النبوة والخلافة الراشدة :

باستقراء التاريخ الإسلامي يلاحظ أن الشورى كإجراء وتنظيم لم تقم لها قائمة بمضمونها القيمي وشكلها التنظيمي الإجرائي النموذجي إلا في عصري النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، وبعد ذلك كانت نظم الحكم في العالم الإسلامي تهرب من قيمة الشورى الإسلامية ، وتلجأ إلى الديمقراطية الغربية ، فجعلتها بديلاً لها ، واجتهدت من أجل أن تقنع نفسها والآخرين بأن الشورى هي الديمقراطية ، أو أنها تفضي إليها ، وأن الإسلام لا ينكر الديمقراطية بل يحبذها ويفرضها ، ومرد ذلك أن تلك النظم قد عجزت عن فهم قيمة الشورى وتحويلها إلى واقع وممارسة .

لقد تعددت الأسباب التي وقفت وراء الإخفاقات التي جعلت من الشورى في الطروحات الإسلامية بمثابة فكرة يريد الجميع أن يبرزوا محاسنها دون أن يملكوا البراهين أو التجارب التي يدللون بها على صدق ما يقولون ، فانطلقت مقالاتهم محض تنظيرات حمّلت الفكرة الإسلامية الكثير وجردتها من الكثير وأظهرتها على أنها أفكار رغبيه ليس إلا ، ويمكننا تناول بعض تلك الأسباب في الآتي :

– إن الشورى تنبع من إطار فكرى متكامل ، وتدعمها مرجعيات شرعية مقدسة ترقى بها إلى حد الفريضة ، كما أنها تندرج ضمن نسق قيمي بديع ، وتحتاج إلى بيئة موائمة فكرياً وسلوكياً وتقوم بتطبيق الإسلام شعيرة وشريعة ، وهذا ما لم يحدث في العالم الإسلامي منذ انتهاء الخلافة الراشدة وحتى وقتنا الراهن .

– وترتب على ما تقدم أن المجتمعات المسلمة لم تع بعدي الشورى كقيمة وكتنظيم ، وذلك نابع عن البعد الزمني وزيادة الشقة بين تلك المجتمعات والفكرة الإسلامية والقيم الإسلامية ، ذلك الذي حدث في العالم الإسلامي بعد انتهاء عصر الخلافة الراشدة ، وزادت حدته بعد انهيار الخلافة العباسية ودخول الأمة الإسلامية في دوامة عصر التفكك والانهيار .

– إن الذين تحدثوا عن الشورى من المسلمين وحاولوا أن يبرزوا قيمتها كقيمة إسلامية ، ركزوا منها على الأبعاد الشعائرية والنظرية ، ولم يفلحوا في استيعابها كمفردة ضمن المنهاج الإسلامي ، ولم يقدّر لهم أن ينزلوها منزلها ويضعوها في موضعها المناسب لها في نسق القيم الإسلامية ، ولم تمكنهم تلك الإخفاقات من التعامل مع الشورى كتنظيم وإجراء وممارسة للحركة السياسة .

- نتج عما تقدم أنه لم يقدر لأي نظام سياسي في العالم الإسلامي أن يضع تلك القيمة ببعديها الفكري القيمي والإجرائي التنظيمي موضع التطبيق وعلى محك التجربة ، وكان ذلك نابع عن عدم فهم القيمة ببعديها ، وعدم فهم الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، فمن تناولوا الشورى لم يكونوا إلا رجالاً انطلقوا من خلفيات ذات أصول فقهية ، ولم يتبحروا في فهم واستيعاب الظاهرة السياسية .

- لقد شرع أبناء العالم الإسلامي منذ السيطرة الأوروبية على دوله في الترويج لفكرة الديمقراطية الغربية والعمل على استنباتها في بيئته ، ثم ظهر من حاولوا جاهدين إيجاد علاقة بين الشورى والديمقراطية ، وانتهوا إلى أن الشورى هي الديمقراطية وجاراهم في ذلك الكثيرون ممن لم يفهموا حقيقة قيمة الشورى ، وحقيقة ما تنبع منه من إطار فكري ، وما تعبر عنه من ذات حضارية مستقلة ومنطق ثقافي متميز ، كما أن الديمقراطية هي الأخرى تنبع من حضارة مستقلة ونتاج لتطور فكري له تميزه ، وعليه فلكل بيئتها التي تتفاعل معها وتثمر في ربوعها .

ثالثاً : الأبعاد الإجرائية لقيمة الحرية في الحركة السياسية :

سبق لنا أن أوضحنا أن الحرية في المنظور الإسلامي لها خصوصية تميزها عن غيرها من الأفكار البشرية ، ولعل أهم ما يميز الحرية كقيمة ضمن نسق القيم الإسلامية هو أنها تتم في إطار أشمل وأعم هو الفكرة الإسلامية المسيجة والمحصنة بالحدود والأحكام الشرعية التي تمثل الضوابط والمعايير للأفكار والسلوكات ، وسوف نتناول الأبعاد الإجرائية لقيمة الحرية كأداة من أدوات الحركة السياسية من خلال الآتي :

* حرية التعبير الفكري :

الحرية تتعلق بما يصدر عن الإنسان ويعد من مخرجاته ، ومخرجات الإنسان تتحدد في أمرين اثنين لا ثالث لهما : الأول : ما يصدر عن عقله ، وهو تفكيره وفكره ، والثاني ما يصدر عن الإنسان من سلوك وحركة وتصرف ، والحرية في المعنى المجرد الدارج تعنى حرية التفكير والفكر وحرية السلوك والتصرف ، والحرية في المنظور الإسلامي تعنى حرية الفكر والفعل في إطار ضوابط ومعايير الشرع الإسلامي ، إن الإسلام لا يعرف القهر أو الكبت الناتج عن تسلط وسيطرة شخص على آخر أو فئة على أخرى تحت أي ظرف من الظروف وبأي شكل من الأشكال ، إن المسلمين في إطار العقيدة الإسلامية والشرع الإسلامي متساوون ومتعادلون ومتماثلون في الحرية ، لا يخضع ولا يذعن بعضهم لبعض عن تسلط وجبروت ، ولكن عن حب ورحمة وأخوة ، ثم لا يخضعون جميعهم إلا لله ولا يخشون إلا هو ، إن المسلمين يملكون حريتهم من خلال علاقاتهم ببعضهم القائمة على الندية والمساواة والعدالة ، نرى تلك العلاقة فيما بينهم ونراها كذلك في علاقاتهم بأولياء أمورهم ، إذن فالحرية في الإسلام مرتكنة على علاقة المساواة والندية وعدم سيطرة شخص على آخر أو استعباد شخص لآخر ، فالجميع عباد لله وحده ، وهذه الوضعية ليست عن رغبة أو تمني أو تطلع إلى مجتمع أسمى وأرقى ، بل هي وضعية تمثل سمة لصيقة بالمجتمع المسلم ومفروضة عليه من خالقه ، وإذا فقدها انتقص ذلك من إيمانه وأثم أفراده ومرقوا عن النهج القويم .

إن ضمان سيادة الحرية في المجتمع المسلم قد كفلها الحق تبارك وتعالى وضمنّها كتابه العزيز ، وبدأها بإقامة علاقة سوية بين ولى الأمر وأفراد الجماعة ، علاقة قائمة على الرحمة والمساواة والندية وعدم السيطرة أو التسلط والاستعباد ، وذلك حيث النفس البشرية تأنف السيطرة وتأبى الخضوع والإذعان إلا للواحد الأحد ، ولننظر إلى قول الحق تبارك

وتعالى " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين "[1] ، ولنستنبط فحوى الحرية ومضمونها من هذه الآية الكريمة . فالحرية تعنى عدم سيطرة المؤمنين أي على الآخر حتى ولو كان ولى الأمر ، وحتى لو كان الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه فهو يتعامل مع أناس أحرار ، خلقهم الله هكذا ، ولم يأمرهم بالإذعان والخضوع إلا له ، فالجميع أحرار متساوون ، يجمعهم الإيمان ، ويكتنفهم الإسلام ، لا يسيطر عليهم ولى أمرهم ، ولا يستعبدهم كبيرهم ، بل إن عزيزهم هو خادمهم ، هكذا المسلمون ، وهكذا علاقتهم بأولياء أمورهم ، وهذا ملمح مهم من ملامح ومشاهد الحرية في الإسلام ، علاقة ولى الأمر بأفراد المجتمع علاقة يسودها الاحترام المتبادل .

وإذا انتقلنا إلى ملمح آخر من ملامح الحرية في الإسلام ، وجدناه في العلاقة بين المسلمين أفراد المجتمع المسلم ، علاقة أحرار متساوين قائمة على الرحمة ومرتكنة على الود والتعاطف والتراحم ، تخلو من السيطرة والاستعباد ، وهذه الوضعية كذلك اختارها الله سبحانه لتميز المجتمع المسلم ، وفرضها على أفراده وشرع ذلك في كتابه العزيز عندما قال " محمد رسول الله والذين معه أشدآء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوارة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فئازره فاستغلظ فاستوي على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً " .[2] إذا كان ما تقدم هو وضع الحرية في المجتمع المسلم ومنطلقاتها الشرعية ، فإن أول أشكال تلك الحرية تتمثل في حرية التعبير الفكري ، أي حرية التعبير عن الأفكار وحرية التفكير كذلك ،

---

[1]. سورة آل عمران : ١٥٩ .
[2]. سورة الفتح : ٢٩ .

وهذا الشكل من أشكال الحرية في المنظور الإسلامي يحتاج إلى تفصيل وتحليل لأنه يتصل اتصالاً مباشراً بالأبعاد الإجرائية لقيمة الحرية ، ويمكن القيام بذلك التفصيل من خلال ما يلي :

– أدوات التعبير الفكري :

كيف تتحول الحرية – مثل غيرها من القيم الإسلامية – من قيمة فكرية ذات محتوى ومضمون عقلي وجداني إلى إجراء تطبيقي وتنظيم شكلي ؟ هذا السؤال يطرح نفسه بإلحاح على من يتصدى للظاهرة السياسية في الإسلام ؛ ويحاول صياغة نظرية سياسية ، ولعل أول الإجراءات التطبيقية فيما يتعلق بقيمة الحرية في الممارسة الإسلامية تتعلق بالتعبير عن الأفكار ، وهذا التعبير يتم عبر أدوات معينة نتناولها فيما يلي :

○ الأدوات المقروءة : وهي كافة المطبوعات التي يمكن أن تستثمر في عرض الأفكار والآراء مثل : الكتب والمجلات والصحف وما يأتي على شاكلتها ، وتتسم هذه الأدوات بطابع الثبات وإمكانية الرجوع إليها في أي وقت ، وهي من الأدوات التقليدية القديمة والمعروفة من قديم الزمان ، ولا تزال لهذه الأداة قيمتها وأهميتها بالرغم من الوسائل الحديثة التي بدأت تزاحمها مثل الحاسوب .

○ الأدوات المسموعة : تشمل الأدوات المسموعة كل ما يمكن أن يبث عبر ترددات الموجات الصوتية في الهواء وهو ما يعرف بالإذاعة المسموعة .

○ الأدوات المسموعة المرئية : وهي أدوات تجمع بين الصوت والصورة وتعرف بأجهزة التلفزة ، وتنقل الحدث بكافة تفاصيله .

○ الملتقيات : وهي عبارة عن تجمعات يلتقي فيها مجموعة من الناس ، حيث يأتمرون ويتداولون أمورهم أو شئوناً تهمهم ، ويأتي على غرار ذلك المحافل والمؤتمرات والندوات والمنتديات .. الخ .

- مظاهر التعبير الفكري :

قدمنا للأدوات التي يمكن أن يستخدمها الفرد في التعبير عن ما يدور في خلده من أفكار وآراء ورؤى وطروحات .. الخ ، وفي هذا الموضع نتناول أهم مظاهر التعبير وأشكاله التي تعتبر بمثابة مخرجات لتلك الصور من الفكر ، وتتمثل في الآتي :

○ حرية الطرح والاجتهاد : المسلم الذي يملك مقدرات ومؤهلات تقديم الطروحات الفكرية والاجتهاد من أجل إخراجها بما يعلى من شأن الشرع ويبينه للناس وبما يفيد المجتمع له حرية القيام بذلك ، فأبناء الأمة يملكون حرية الاجتهاد في كافة المجالات والتخصصات التي يملكون القدرة على الإبداع فيها والعطاء .

○ حرية النقاش والحوار : إلى جانب حرية المسلمين في التعبير عن اجتهاداتهم وطروحاتهم ، يملكون كذلك حرية النقاش والتحاور حول كافة الشئون والأمور التي تهم الشرع الحنيف وتهم كذلك المجتمع المسلم ، والنقاش والتحاور قد يكون هدفه الاستفهام والاستيضاح ، ولكل مسلم حرية التعرف على حقيقة الأمور والأشياء ، كما قد يكون هدف النقاش والحوار هو الشرح وتوضيح وجهات النظر والرؤى ، ولكل مسلم كذلك حرية القيام بذلك إذا طُلب منه أو إذا لم يُطلب منه واستشعر أن في ذلك ما يفيد الشرع والمجتمع .

○ حرية التقويم : التقويم هو تكثيف الضوء على مواطن الخلل والزلل في أمر من الأمور . ثم تقديم طرق ووسائل العلاج ، وللمسلم حرية القيام بذلك ، وأن يعبر عن قدرته في التقويم والنقد البناء الهادف إلى إصلاح مجتمعه وصلاحه .

- المعايير والضوابط الإسلامية :

إن مظاهر التعبير الفكري — التي سبق الحديث عنها — ينبغي أن يعبر من خلالها المسلم عن أفكاره وطروحاته واجتهاداته ، وأن يحاور ويناقش ويستفهم ويستوضح وأن يقوّم ويقدم العلاج للأخطاء والمثالب بحرية ، ودون خوف من أحد أو إذعان لأية قوة مهما كانت ، ويضع نصب عينيه قيم الإسلام ومثله ومبادئه ، ولا يستهدف سوى مصلحة المجتمع المسلم وإعلاء شأنه كمجتمع إنساني يتسم بالمثالية وينحو شطر الكمال .

وأهم ما ينبغي الإشارة إليه فيما يتعلق بحرية التعبير الفكري ثم التأكيد عليه ، هو أن تلك الحرية ينبغي أن تكون مسيجة ومحصنة بمجموعة من المعايير والضوابط الإسلامية المتمثلة في : القيم والمبادئ والمثل الإسلامية : مثل التواضع ، وابتغاء مرضاة الله ووجهه الكريم ، والابتعاد عن المآرب الشخصية ، والإرهاب الفكري بفرض الآراء والأفكار والتحزب لها ، والإتيان بغريب الأفكار ودخيل الرؤى والوجهات ، والترويج لقيم الآخر وآرائه وأفكاره ، فينبغي أن تتم تلك المظاهر في نطاق الفكرة الإسلامية ، وأن تتفاعل كافة عملياتها وفق المعايير والضوابط الإسلامية وهنا يبدو المجتمع المسلم مجتمعاً يملك ذاتاً حضارية مستقلة ومنطقاً ثقافياً متفرداً لا يدع مجالاً لاختراقه من خلال قيم الغير وأفكار الآخر ، فحرية التعبير الفكري إذن مكفولة للمسلمين في إطار الإسلام وقيمه وفي نطاق المجتمع المسلم وتفاعلاته .

* حرية التعبير السلوكي :

لا يصدر من الإنسان إلا الفكر والسلوك ، فالفكر نظر ورؤية ، والسلوك فعل وحركة وقد تناولنا حرية التعبير الفكري في المنظور الإسلامي ، وننتقل في هذه الجزئية إلى الحديث عن حرية التعبير السلوكي في المنظور الإسلامي ، ونبتدر هذه الجزئية بسؤال مهم مفاده ، هل المسلم مطلق الحرية في سلوكاته وتصرفاته داخل المجتمع ؟ والإجابة على هذا السؤال تتم من خلال بسط جملة الأفكار التالية :

– العلاقات والمعاملات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية :

للمسلم حرية إقامة العلاقات وإجراء المعاملات بكافة أشكالها ومستوياتها داخل المجتمع المسلم وخارجه ، ومن قبيل ذلك المعاملات والعلاقات الاقتصادية والعلاقات والمعاملات الاجتماعية ، فالأولى تشمل البيع والشراء والتملك والتنقل والعمل إلى آخره من المعاملات والعلاقات والسلوكات التي يقوم بها الشخص من أجل إشباع رغباته وتلبية احتياجاته بأقل كلفة ممكنة وبما يتواءم مع دخله أو نتاج عمله أو حصته من ثروة مجتمعه ، والثانية تشمل الزواج والتعلم وممارسة أمور السياسية والحكم – كما أوضحنا من قبل – إلى آخره من العلاقات التي تتم داخل المجتمع ، ويقوم بها الفرد من أجل توطيد مركزه الاجتماعي أو استثماره والتفاعل داخل مجتمعه .

– التصرفات والسلوكات الشخصية :

كذلك للمسلم حرية التصرف والسلوك الشخصي في عاداته وتقاليده المتعلقة بمأكله ومشربه ومسكنه وظعنه وإقامته وملبسه ومركوبه إلى آخره من التصرفات والسلوكات الخاصة بذاته .

- المعايير والضوابط الإسلامية :

إن ما سبق من علاقات ومعاملات وتصرفات وسلوكات يقوم بها المسلم أو يجريها ليست مطلقة . ولكنها مسيجة ومحصنة مثل سابقتها المتعلقة بالتعبير الفكري بالحدود والأحكام والقيم التي تضمنتها المرجعيات الإسلامية من قرآن وسنة ، فلا معقب ولا مسيطر ولا مقيد لعلاقات ومعاملات وتصرفات وسلوكات المسلم إلا الأحكام والحدود والقيم التي جاءت بها الشريعة الإسلامية في مصدريها القرآن والسنة .

ومعنى ما تقدم أن الحدود والأحكام والقيم الإسلامية هي التي تضبط حرية المسلم في علاقاته ومعاملاته وتصرفاته وسلوكاته ، وتحد من إطلاقها فلا يجرؤ المسلم على إقامة علاقات غير سوية ، أو يخون أماناته ، ويخلف وعوده ، أو يحنث في عهوده ، أو لا يفي بالتزاماته ، كذلك لا يجوز للمسلم أن يقيم علاقات مع أعداء وطنه ، أو مع من يناصبون دينه العداء ، أو يأتي بغريب العادات والتقاليد وسيئ الصفات وذميم الخصال والتصرفات ، أو يتصرف في أمواله بسفه أو تبذير وإسراف .

* الحرية في الإسلام تعنى كلمة الحق :

الحرية في الإسلام تعنى أموراً عدة ، ترتبط عضوياً بالشريعة الإسلامية وأحكامها وقيمها ، وهي بذلك تبرز خصوصية تلك الشريعة وتفرد أحكامها وقيمها ، ومن ذلك نبسط لما يلي :

- الحرية قول الحق لأنه الإيمان :

الحرية في الإسلام أن ينطق المسلم بكلمة الحق ، لأن كلمة الحق هي الإيمان ، فهو يقول ما لديه ويعبر عن ما يكن بمحض إرادته ، فهو يعبر عما يؤمن به ، ويعرب عما يقتنع ويعتقد ، لا يخادع ولا ينافق ولا يخفي الحقيقة .

- الحرية هي الفعل وفق النموذج والمثال :

كذلك فالحرية في الإسلام أن يفعل الإنسان ويسلك سلوكات ويتصرف تصرفات وفق النموذج والمثال الذي رسمته وحددت معالمه المرجعيات الإسلامية ، فالتصرف المستقيم والسلوك القويم هو من صميم الإيمان .

- الحرية هي انتفاء الإكراه :

الإسلام لا يعرف الإكراه ولا يقر الإجبار وينبذ الإرهاب ، فالمسلم يملك زمام أمره في قوله وسلوكه لا يخشى في الله أحداً ، وكذلك الإسلام لا يرضى لأبنائه الكبت أو القمع ، بل يربيهم على الحرية في القول والفعل ، لأنهم سيقولون الحق النابع من إيمانهم والصدق المنبعث من إسلامهم ، وسيفعلون الفعل القويم والعمل المستقيم ، فالمسلم الحر يعبر عن حريته في قوله الصادق الصريح ، وفعله المثالي النموذجي ، وهو في كل ذلك يعبر عن صدق إيمانه وعمقه ، ومن ثم تتبلور ثلاثة حقائق بينهم علاقة عضوية على درجة من القوة تجعل الحقائق الثلاثة متشابهة إلى درجة التطابق وهذه الحقائق الثلاثة هي : **الإيمان** الذي يبنى لدى المؤمن الصدق ، وتتوطد العلاقة بين الإيمان والصدق لدرجة أن يصبح الإيمان هو

الصدق ، ثم تأتى الحقيقة الثالثة وهي الحرية المرتكزة على الصدق ، وتنتهي العلاقة إلى أن يصبح الإيمان هو الحرية .

رابعاً : الجانب الإجرائي التنظيمي للعدالة :

تعد قيمة العدالة من أول القيم الإسلامية التي يغلب جانبها الإجرائي التنظيمي على محتواها الفكري ومضمونها العقلي . وتتصل هذه القيمة بالعديد من القيم الأخرى التي ينتظمها نسق القيم الإسلامية ، فهي ترتبط بالمساواة ، وتتعلق بالتكافل الاجتماعي ، وتختص بعدالة توزيع الثروة أو ما يعرف بالعدالة الاجتماعية ، وتتماس مع قيم أخرى مثل البيعة والشورى والحرية بشكل فكري عقلاني ، فيبدو غير مباشر .

وفيما يتعلق بالبعد الإجرائي التنظيمي للعدالة ، نجد أنه يلعب دوراً مهماً في تنظيم وترتيب الحياة بكافة أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والحضارية والثقافية ، وكأن العدالة هي الضابط الفعلي الأساسي لوتيرة الحياة وتفاعلاتها في المجتمع المسلم ، فهي تعنى في أوسع معانيها الميزان الذي يضع كافة الأمور في نصابها الصحيح ووفق النموذج والمثال الذي وضعه الشرع الحنيف ، وسوف نتناول البعد الإجرائي التنظيمي لقيمة العدالة ، وكيف يمكن تطوير ذلك البعد بوصفه أداة من أدوات الحركة في الظاهرة السياسية من المنظور الإسلامي ، وذلك من خلال بسط الأفكار التالية :

- العمل بالأحكام وإقامة الحدود الشرعية :

إن أول خطوات الجانب الإجرائي للعدالة كقيمة إسلامية تكمن في ضرورة تفعيل ذلك الجانب ، ويتم التفعيل عبر العمل بالأحكام وإقامة الحدود الشرعية ، ومعلوم أن العمل

بالأحكام وإقامة الحدود من لزوميات الإيمان وأركانه الأساسية ، وقد يمثل ذلك التفعيل مؤشراً قوياً على التزام المجتمع المسلم بقواعد الإسلام وشريعته .

واستقراء التاريخ الإسلامي ومتابعة التفاعلات الاجتماعية في المجتمعات المسلمة في الوقت الراهن ، يوصلان إلى خلاصة مفادها أن ثمة فترات عبر التاريخ الإسلامي شهدت تعطيلاً للعمل ببعض الأحكام والعديد من الحدود الشرعية ، وأن ثمة مجتمعات مسلمة عاشت حالات تم فيها تعطيل بعض الأحكام والحدود الشرعية .

وما من شك في أن تعطيل بعض الحدود والأحكام الشرعية يعد إشكالية حساسة وخطيرة تعرض الشعوب والحكومات الإسلامية للمساءلة . والأهم أن هذه الإشكالية تؤرق أبناء الأمة وتتطلب منهم البحث في سبل الخروج من هذا المأزق ، ناهيك عن البحث في أسبابه ونتائجه ، التي يمكن أن تصيب المجتمع بالعديد من الموبقات والمثالب .

* الاهتمام بالجانب المؤسسي التنظيمي [أماكن إقامة العدالة] :

بالإضافة إلى ما سبق وقدمنا من ضرورة تفعيل العمل بالأحكام وإقامة الحدود الشرعية يأتي كذلك الاهتمام بالجانب المؤسسي التنظيمي للعدالة ، وتطوير ذلك الجانب يعتبر نهوضاً بتلك القيمة وبالذات في جانبها الإجرائي . ولكن ماذا يعنى الاهتمام بالجانب المؤسسي التنظيمي لقيمة العدالة ؟ .

لعل أول مفردات الجانب المؤسسي التنظيمي لقيمة العدالة : يتمثل في أماكن إقامة العدالة ، وهي دواوين المظالم ومقار المحاكم ودور العدالة وما يرتبط بها ، ومن الأهمية بمكان

الاهتمام بهذه الأماكن ليس باعتبارها مظهراً وشكلاً ، ولكن باعتبارها أداة ووسيلة لنقل القيمة من طورها الفكري النظري إلى طورها العملي التطبيقي .

ثم يأتي بعد ذلك ما هو أهم ، وهو ما يتعلق بالأشخاص القائمين على تطبيق العدالة بكافة مستوياتهم وعلى رأسهم القضاة ، والاهتمام بهؤلاء ينصرف إلى اختيارهم وتدريبهم ، وتهيئة الأجواء والظروف التي يعملون فيها مادياً ومعنوياً ، وتنزيههم بتوقيهم الشبهات والضغوط الناتجة عن العوامل والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

أما فيما يتعلق بإجراءات تنفيذ الأحكام والحدود ، فينبغي أن تتم تلك الإجراءات وفق ما ورد في المرجعيات الإسلامية من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، حيث أن تلك الإجراءات تقيم حالة من التواؤم بين أسلوب المعاملة وطبيعة الحكم أو الحد فمن الأحكام والحدود ما يعتمد على الإيلام أو العقاب المادي ، ومنها ما يعتمد على الإيلام والعقاب النفسي والمعنوي ، ومنها ما يجمع بين النوعين .

وفي الأخير يأتي ما يتعلق بأماكن تنفيذ الأحكام والحدود . وبصفة خاصة عقوبة السجن ، فينبغي أن تكون هذه الأماكن أداة ووسيلة تمكّن المذنب من التكفير عن ذنبه ، والاستعداد لحياة ما بعد التوبة ، بل وتساهم في رسم معالم تلك الحياة الجديدة .

* وسم الجانب الإجرائي بالحيادية والموضوعية :

إن تطوير الجانب الإجرائي لقيمة العدالة في نسق القيم الإسلامية يستوجب وسم ذلك الجانب بسمتي الحيادية والموضوعية . إضافة إلى التماس مع قيمة المساواة ، ومن شأن

هاتين السمتين أن يساهما في إبراز قيمة العدالة في شكلها الإسلامي الصحيح ، ويضيفا إليها ما يسمها بالفعالية في نسق القيم الإسلامية .

* **الإسراع في رد المظالم [تفعيل وتنشيط مرفق العدالة] :**

العدالة في شقها الإجرائي أو ما يمكن أن نطلق عليه مرفق العدالة تحتاج بالإضافة لما تقدم إلى عملية تفعيل وتنشيط دائمة ودفع مستمر في اتجاه رد المظالم ، وذلك قد يتضمن عملية مراجعة وتقويم شاملة لذلك المرفق ، تبدأ بالبحث في ضرورة العمل بالأحكام وإقامة الحدود الشرعية ، ثم بتطوير الجانب المؤسسي التنظيمي ، ثم بتوخي الموضوعية والحيادية في كافة إجراءات ذلك المرفق ، ثم أخيراً بتسريع العمل والإجراء من أجل رد المظالم على اعتبار أن الإبطاء في رد المظالم هو نوع من الظلم .

* مستويات الجانب الإجرائي التنظيمي للعدالة :

قد يكون من المجدي والضروري معاً حتى في الحديث عن الجانب الإجرائي التنظيمي لقيمة العدالة التطرق إلى مستويات العدالة ، ويمكن متابعة تلك المستويات في أشكالها الملموسة التي يعايشها الناس فيما يلي :

- عدالة الإله : لننظر إلى أهم أشكال ونماذج العدالة في هذا الكون وهي محور العدل فيه ، منها تنبع كافة أشكال ونماذج العدالة الأخرى ، وترتكن عدالة الإله جلّ وعلا على أساس ثابت وقاعدة مكينة ، فقد خلق سبحانه الخلق وأحسن إليهم . ثم حرّم على نفسه ظلمهم ، وكذلك حرّم الظلم بينهم ، هكذا شملت عدالة الخالق تبارك وتعالى جميع خلقه ، ثم أوعز للناس بتحري العدل ، وحثهم على ذلك وأثابهم إذا عدلوا ، ونهاهم عن الظلم ،

وحرمه عليهم ، وعاقبهم إذ اظلموا ، وقد تضمنت المرجعيات الإسلامية الأدلة القاطعة على عدالة الإله ، كما تغص الحياة في جميع جوانبها بمظاهر العدالة الإلهية ويعايشها الإنسان ليل نهار .

– عدالة الرسل والأنبياء : بعد عدالة الإله تأتي عدالة الرسل والأنبياء ، وتتجسد عدالتهم في تبلغيهم الرسالة وأدائهم للأمانة كما أمرهم خالقهم ، كذلك تتمثل في حكمهم بما انزل سبحانه ، وقضائهم بين الناس بالعدل ، عليهم جميعاً صلواته وسلامه ، وكلنا يلمس عدالة الأنبياء والرسل من خلال الرسالات السماوية ، والتي لا تزال تعيش بيننا في شكل أديان ، وتحويها المرجعيات الإسلامية كحقائق تمثل أركان الإسلام ومقومات الإيمان .

– عدالة الحاكم [ولى الأمر] : ثم تأتي عدالة الحاكم [ولى الأمر] ، وقد أمره الله سبحانه وتعالى بأن يتحرى العدل بين رعيته ، فيحكم بما أنزل الله ، ويقضي بشرعه ، ويعطي كل ذي حق حقه ، فهل الحاكم في المجتمع المسلم ينفذ هذا الشكل من أشكال العدالة ؟! .

– عدالة الإنسان المسلم : في الأخير تأتي عدالة المسلم ، وتتعدد صور هذا الشكل من أشكال العدالة ، فهناك عدالة المسلم بينه وبين ربه ، حيث يقضي ما أمره ، وينتهي عما نهاه ، وهو بذلك يكون قد أدى أمانته الذي ائتمنه الله عليها وأقام العدل في تلك العلاقة ، وهناك عدالة المسلم بينه وبين نفسه ، حيث يزكيها بفعل الخير ، وإتيان ما أمره الله به والانتهاء عما نهاه عنه ، وإذا لم يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، بأن دسّاها وعرّضها لغضب الرب جلّ وعلا ، وهناك عدالة الإنسان في علاقته بأسرته التي يتولى أمرها ، فعدالته معها بأن يهديها إلى سواء السبيل ، وإذا لم يفعل ذلك فقد ظلمها بعدم هدايتها وإهمال أمرها ، وهناك عدالته في علاقته بالناس ، وفي علاقة الناس بعضهم ببعض ، فيؤدي نحوهم ما

يجب عليه في ولايته أو كفرد في المجتمع ، ويحكم بينهم بالعدل إذا تولى القضاء بينهم ، فهل الفرد المسلم يطبق هذا الشكل من أشكال العدالة بكافة صوره المذكورة ؟! .

خامساً : الجانب الإجرائي لقيمة المساواة :

إذا كانت العدالة في شكلها الإجرائي تمثل مرفقاً ينظم الكثير من شئون الحياة الاجتماعية في المجتمع المسلم ، ويضع تلك الشئون في نصابها الصحيح ، وكما ينبغي أن تكون ، وكما وردت في المرجعيات الإسلامية ، فإن المساواة تتغلغل كذلك في تلك الشئون مصاحبة للعدالة ، وكذا في نسيج المجتمع مصاحبة لقيم أخرى مثل الحرية والإخاء والتكافل الاجتماعي ، ويمكننا متابعة ذلك من خلال ما يلي :

* المساواة في حرية الفكر :

في معترك الحياة داخل المجتمع المسلم وفي ثنايا تفاعلاته تلتقي قيمتا المساواة والحرية في عناق حميم ، ليؤلفا معاً نسقاً ضابطاً ومعياراً قويماً لتلك التفاعلات ، فعلى مستوى الحركة السياسية ينبغي أن يتساوى أفراد المجتمع المسلم فيما يتعلق بحرية التفكير والفكر بالشكل – الذي سبق وأوضحناه – عند حديثنا عن البعد الإجرائي الشكلي لقيمة الحرية . ومن شأن ذلك أن يجعل أبناء المجتمع المسلم متساوين في التفكير والتعبير عن ذلك التفكير في أشكال ونماذج متعددة ، ولكنها تدور جميعها في إطار الفكرة الإسلامية ، وهكذا فإن الجوانب الإجرائية لقيمتي المساواة والحرية تأتلفا معاً ليشكلا إحدى مفردات الحركة السياسية في المنظور الإسلامي ، وتؤكد الطروحات الإسلامية على ضرورة تطوير وتفعيل هذا التآلف القيمي انطلاقا من كونه أداة من أدوات الحركة .

* المساواة في حرية السلوك :

أما على مستوى السلوك فإن التآلف بين الجوانب الإجرائية الشكلية لقيمتي المساواة والحرية ، يواصل القيام بمهمته ليمنح أفراد المجتمع المسلم المساواة في حرية السلوك والتصرف . من خلال تعبيرات تمكنهم من تسيير شئونهم وتصريف أمورهم بالشكل الذي أراده الشارع العظيم وضمّنه المرجعيات الإسلامية ، إذن فالمسلمون متساوون في كافة سلوكاتهم وتصرفاتهم داخل مجتمعهم ، وحريتهم جميعاً في تلك السلوكات والتصرفات مكفولة . لا يحدها إلا الأحكام والحدود التي تتضمنها المرجعيات الإسلامية ، وتهدف إلى ترقيتها والسمو بها وضبطها .

إن معنى ما تقدم أن الطرح الإسلامي يفرض على المسلمين المساواة في حرية الفكر وحرية السلوك والتصرف ، والشرع الإسلامي يصل بهذه القيمة في بعدها الإجرائي الشكلي إلى حد الفريضة التي يأثم من يخالفها ويعاقب من لا يلتزم بها .

* المساواة في توزيع المقدرات والموارد :

مرة أخرى يبدو الجانب الإجرائي لقيمة المساواة واضحاً جلياً ، وتبدو كذلك أهميته في صياغة وتشكيل الحياة الاجتماعية ومرتكزاتها الاقتصادية والمادية ، وذلك عندما يلتقي ذلك الجانب الإجرائي لتلك القيمة العظيمة مع البعد الإجرائي لقيمة أخرى هي قيمة التكافل الاجتماعي والضمان الاجتماعي ، فينتج عن ذلك التلاقي قيمة إسلامية عظيمة هي قيمة العدالة الاجتماعية ، ويتداخل مع ذلك الائتلاف قيمة العدالة في جانبها الإجرائي ، ولكن من منظور اقتصادي مادي ، فينتج ما يعرف بعدالة توزيع الثروة ، وهكذا تبدو أهمية

المساواة في توزيع المقدرات والموارد الخاصة بالمجتمع المسلم ؛ تلك الأهمية التي تصل إلى درجة التحكم في استقرار ذلك المجتمع وأمنه .

• المساواة في تحمل الأعباء والتبعات :

ثمة جانب آخر من جوانب البعد الإجرائي التنظيمي لقيمة المساواة ، وهذا الجانب يتمثل في تساوى أفراد المجتمع فيما يتعلق بتحمل الأعباء والتبعات ، والأعباء والتبعات تنصرف إلى كل ما يُطلب من الفرد ويلتزم بالقيام به ، من واجبات يفرضها عليه وجوده في مجتمع إنساني ، وهذه الواجبات تتعلق بخدمة المجتمع ، وتتوزع هذه الخدمة على محورين :

– المحور الأول ، محور الخدمة المدنية . وإزاء هذا المحور يتساوى أفراد المجتمع حيث يطلب منهم خدمة ذلك المجتمع كمجتمع مدني من خلال القيام بالعمل العام وهو ما يعرف بالوظيفة العامة أو الخدمة المدنية التي تؤدي من خلال الجهاز الإداري للدولة .

– والمحور الثاني ، محور الخدمة العسكرية ، ويتساوى كذلك أفراد المجتمع إزاء هذا المحور ، حيث يطلب منهم خدمة مجتمعهم من خلال الحفاظ عليه والدفاع عنه ضد ما يتهدده من مخاطر داخلية وخارجية ، وتؤدى هذه الخدمة بالانخراط في الجيش ، الذي تتوزع مهامه على مهام داخلية وأخرى خارجية .

وهكذا يتساوى أفراد المجتمع إزاء هذه الأعباء والتبعات التي يفرضها عليهم وجودهم داخل المجتمع الذي يعيشون فيه ويشعرون نحوه بالولاء وفيه بالأمن .

وتحتاج الأعباء والتبعات المشار إليها أعلاه إلى استعداد خاص وتأهيل معين ، ويتبلور الاستعداد والتأهيل فيما يعرف بالصلاحية والكفاءة ، وهنا يتساوى أفراد المجتمع في إتاحة

الفرصة لهم لكي يتم اختيار الصالح الكفء ، والصالح هو ذلك الذي تجتمع فيه مؤهلات ومقدرات ذات مواصفات تؤهله للقيام بما يطلب منه ، وهذه المؤهلات والمقدرات تجمع بين المؤهلات العقلية الذهنية والمقدرات الجسمانية العقلية ، أما الكفء فهو ذلك الذي يتمكن من استخدام ما اجتمع لديه من مؤهلات عقلية ذهنية ومقدرات جسمانية عقلية في أداء العمل الذي يطلب منه على أكمل وجه .

إن إتاحة الفرصة أمام أبناء المجتمع لكي يبرز كل منهم مؤهلاته ومقدراته ، تمثل ضرباً من المساواة ، يرتكز على إظهار عطاء الخالق وما حباه للإنسان من نعم وآلاء ، أما إتاحة الفرصة أمام أفراد المجتمع لكي يبرز كل منهم كيف يستثمر عطاء الخالق في خدمة مجتمعه بكافة السبل والوسائل ، وهذا ضرب آخر من المساواة .

إن ما تقدم يعني أن قيمة المساواة تبدو في أشكال ونماذج وإجراءات ، تجعل منها أداة ضابطة ووسيلة معيارية تكمل العديد من القيم الأخرى ، وتجعلها تبدو في شكلها النهائي كما جاءت في المرجعيات الإسلامية ، إضافة إلى أهميتها في ضبط سلوكات وتصرفات الأفراد داخل المجتمع ، وجعل المعاملات والتفاعلات بينهم تتم بشكل سلمي ونموذجي ، وإقرار حالة من الأمن والاستقرار والرضاء العام .

سادساً : الشكل الواقعي لقيمة الإخاء :

فيما تقدم من قيم لوحظ أن الجانب الإجرائي ، يشترك في صياغته وتشكيله إلى جانب أفراد المجتمع الدولة بوصفها شخصية اعتبارية ، حيث تتولى بموجب صلاحياتها الإجراءات ذات الصبغة الإلزامية في ذلك الجانب ، أما قيمة الإخاء فهي قيمة اجتماعية

خالصة . يتولى أفراد المجتمع بأنفسهم تشكيل جانبها الواقعي دون تدخل من الدولة أو من أية جهة أخرى .

وثمة علاقة وطيدة بين قيمة الإخاء من ناحية وقيمة المساواة من ناحية أخرى ، فأفراد المجتمع أخوة متحابون ، وهم في ذات الوقت متساوون في كل شيء ، لا يفضُل بعضهم بعضاً إلا بتقوى الله وتحقيق الخير للمجتمع .

وتتجسد قيمة الإخاء على أرض الواقع من خلال العلاقات القوية والروابط المتينة بين أفراد المجتمع ، وقد تأخذ تلك العلاقات والروابط صيغاً ذات أشكال تنظيمية معينة مثل الجمعيات الخيرية الأهلية والروابط الاجتماعية الأخرى مثل النوادي ، وقد تقتصر على العلاقات الثنائية أو البينية بين أفراد المجتمع وجماعاته ، إلا أن كافة تلك العلاقات والروابط تفضي في النهاية إلى إيجاد نوع من الترابط والتجانس بين أفراد المجتمع .

سابعاً : الشكل الواقعي لقيمة التكافل الاجتماعي :

على غرار القيمة المتقدمة تعد قيمة التكافل الاجتماعي قيمة اجتماعية خالصة دور الدولة فيها محدود للغاية ، وإذا كانت قيمة الإخاء هي قيمة إنسانية عامة ، فإن قيمة التكافل الاجتماعي هي قيمة إنسانية ولكنها تنصرف إلى أبعاد مادية . حيث ترتكز على ما يشبه التوزيع الذاتي التلقائي للثروة . للتقليل من الفروق المادية بين أفراد المجتمع ، وإقرار قيمة المساواة في شكلها المادي ، وحتى يبدو المجتمع مترابطاً قوياً .

وتنصرف الأشكال الواقعية لقيمة التكافل الاجتماعي إلى أشكال ذات صبغة مادية تتعلق بإعادة توزيع مصادر الثروة بين الأغنياء والفقراء أو من يملكون ومن لا يملكون وأشكال

أخرى ذات صبغة معنوية ، ترتبط بإيجاد نوع من التوازن العاطفي بين أفراد المجتمع ، ومن ثم يبدو المجتمع مرة أخرى متماسكاً متيناً .

إن معنى ما تقدم أن أفراد المجتمع فيما يختص بالقيمتين المتقدمتين هم الذين يقومون بصياغة وتشكيل الأشكال والنماذج الواقعية للقيمتين ، بما يتواءم مع كل زمان ومكان ومع الأبعاد المتغيرة في الإنسان ، ولا تتدخل الدولة إلا في القليل النادر .

وتتجسد قيمة التكافل الاجتماعي على أرض الواقع من خلال المجهودات التي يبذلها أفراد المجتمع في شكل مشاريع خيرية ، تستهدف تقديم العون والرعاية لأفراد المجتمع ، الذين لا يجدون من يرعاهم ، فالزكاة والصدقات ركيزة أساسية في هذا الاتجاه ، كذلك مشاريع مثل كفالة الأيتام ومساعدة الشباب على الزواج .. الخ تعد من ضمن تجسيد قيمة التكافل الاجتماعي .

ومن هذا السياق تبدو عملية الضمان الاجتماعي كعملية شبيهة بقيمة التكافل الاجتماعي ، إلا أن القيمة الأخيرة – وكما سبق وأوضحنا – قيمة اجتماعية خالصة ، أما عملية الضمان الاجتماعي ، فهي عملية تشارك فيها الدولة حيث تقوم بدور شبيه بالدور الذي يؤديه الأفراد تجاه بعضهم ، فتقوم الدولة بكفالة الأفراد العاملين في دوائرها المختلفة عندما يتجاوزن سناً معينة ، وهي تعتبر ذلك وفاءً لهم لقاء ما قدموه خدمة للمجتمع وهم على رأس العمل ، كذلك تقوم بكفالة من لا عائل ولا كفيل له من أفراد المجتمع ، وتقوم أيضاً بكفالة المرضى والمقعدين ومن لا يقدرون على العمل أو من لا يجدون فرصة للعمل ، وهذه العملية تعرف بالدور الاجتماعي للدولة ، والدولة في الإسلام تتمتع بدور واسع في هذا المجال ، وقد حددت لها المرجعيات الإسلامية دورها الاجتماعي بشكل دقيق ومفصل .

إن الإسلام يفرض التعاون بين الدولة والأفراد ، وأن لكل منها مجاله ، بحيث يكمل كل منهما الآخر ، ولا يستغني أحدهما عن الآخر ، فالدولة لا يمكنها القيام بكل شيء . وأن تدخلها المطلق أو إحجامها المطلق يؤدى إلى مساوئ عديدة ، والأمثل في الاقتصاد الإسلامي هو تحقيق التعاون والتكافل بين الدولة والأفراد .[1]

ثامناً : الشكلان الإجرائي والواقعي لقيمة النصح والتوجيه :

النصح والتوجيه قيمة إسلامية سامية ، فرضها الشرع الحنيف أداة من أدوات التواصل والتفاعل والتكامل بين أفراد المجتمع المسلم ، فالنصح والتوجيه حق للمسلم على المسلم ، سواء أكان أحد أفراد المجتمع أو من أولى الأمر والمسئولين عن مصالح وأمور المسلمين ، وإذا كان ما قدمنا هو واقع قيمة النصح والتوجيه بشكل عام ، فإننا في هذا التحليل سنقصر اهتمامنا على النصح والتوجيه الصادر من المجتمع إلى أولياء الأمور والمسئولين .

وفيما يتعلق بنصح أولى الأمر وتوجيههم ثمة شكلان : الأول إجرائي تنظيمي تفرضه الدولة وتقره من خلال إجراءات وتنظيمات وأبنية ومؤسسات ، والثاني سلوك واقعي تطبيقي يسلكه أفراد المجتمع على اختلاف شرائحهم وفئاتهم ؛ والى التفصيل :

- النصح والتوجيه كإجراء مؤسسي رسمي :

النصح والتوجيه ينبغي أن تمنحه الدولة الإسلامية اهتماما يتفق وثقل هذه القيمة في نسق القيم الإسلامية ، وتعويلاً على ذلك ، فيجب أن تأخذ الأشكال الإجرائية لهذه القيمة مسالك ومسارات حركية مؤسسية رسمية ، أو بعبارة أكثر دقة تتم عملية النصح والتوجيه

---

[1]. موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الثاني : الاقتصاد الإسلامي ونموذج الإسلامي في الإنماء الاقتصادي ، الجزء الأول : الاقتصاد الإسلامي ، الباب الحادي عشر : دور الدولة في الاقتصاد الإسلامي .

لأولياء الأمور والمسئولين من خلال مؤسسات رسمية . تنشئ لهـذا الغـرض وتباشـر مهامهـا بصورة رسمية .

وبقليل من التدقيق يمكن استخلاص ما يفيد بأن قيمة النصح والتوجيـه في شـكلها المؤسـسي الرسمـي هـي في ذات الوقـت بمثابـة إحـدى نمـاذج وتطبيقـات قيمـة الـشورى فـالمجلس الاستشاري يقع ضمن اختصاصاته إسداء النصح والتوجيه لولى الأمر والمسئولين في كافة دوائر وأجهزة الدولة .

* النصح والتوجيه كتطبيق اجتماعي واقعي :

الشكل الثاني من أشكال قيمة النـصح والتوجيه بمثابـة تطبيـق اجتمـاعي واقعـي ، حيـث يصدر في شكل تعبير فكري عن أفراد المجتمع . يلتقي بقيمة الحرية ، وهنا يـستطيع كـل فرد من أفراد المجتمع يمتلك مؤهلات النصح والتوجيـه أو يملـك المعرفـة والخـبرة أن يقـدم النصيحة والتوجيه لولي الأمر والمسئولين داخل الدولة ، ووفق هذا التحليل أصـبحت قيمـة النصح والتوجيه في شكلها الاجتماعي مسئولية المجتمع بكامله .

المبحث الثامن

إشكال عدم مقدرة أدوات الحركة على نقل القواعد والأصول إلى أرض الواقع بصدق وأمانة

في نهاية هذا الفصل نصل إلى مناقشة إشكال مزمن ، يصاحب العالم الإسلامي منذ نهاية عصر الخلافة الراشدة وحتى وقتنا الراهن ، وهو يتعلق بعدم مقدرة أدوات الحركة في المجتمعات الإسلامية على نقل القواعد والأصول الخاصة بالظاهرة السياسية إلى أرض الواقع بصدق وأمانة ، وحقيقة الأمر أن مناقشة هذا الإشكال وتحليل مفرداته تحتاج إلى الخوض في عدة قضايا ، وطرح جملة من المسائل بحرص وأمانة ، وذلك حيث أن هذا الإشكال يمثل قضية محورية في الطروحات السياسية الإسلامية ، وكذا في المجتمعات المسلمة في الوقت الراهن ، وبصفة خاصة أننا بصدد صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة ، وسوف نتصدى لمناقشة وتحليل ذلك الإشكال من خلال جملة الأفكار المتتابعة التالية :

أولاً : تطور أدوات ونماذج الحركة عبر التاريخ الإسلامي :[1]

سبق لنا أن حددنا أدوات ونماذج الحركة داخل الظاهرة السياسية في المفهوم الإسلامي بأنها جملة الأنظمة والتنظيمات والإجراءات التي تضع الأصول والقواعد الخاصة بالظاهرة السياسية موضع التطبيق ، فالنظام كل عام شامل مكون من مفردات وجزئيات ، تتفاعل مع بعضها بشكل مستديم ، لتظهر في شكل كيان موحد تختفي فيه صفاتها وخصائصها الذاتية ، والمنهاج الإسلامي أو ما يعرف بالنظام السياسي هو أهم أنظمة الظاهرة السياسية

[1]. للتفصيل يمكن الرجوع إلى : المجلد الرابع " الذات الحضارية للإسلام : الحضارة الإسلامية " الجزء الثاني :" نشر الدعوة و التنظيم " الباب الثاني : التنظيم .

، أما التنظيم فهو عبارة عن شكل وهيكل وأبنية ومؤسسات تحرك النظام وتفعّل جزئياته ، أما الإجراء فهو بمثابة فعل وسلوك يصدر عن الأفراد لتفعيل كافة هذه الأدوات والنماذج — التي سبق الحديث عنها – ، ويمكننا متابعة تطور أدوات ونماذج الحركة في التاريخ الإسلامي في :

* عصر النبوة الزاهر :

أشرف الرسول الكريم بنفسه على صياغة وتشكيل وتفعيل أدوات ونماذج الحركة ، ومن ثم يكون قد وضع أول الأشكال والنماذج للحركة السياسية في التاريخ الإسلامي وتبلورت تلك الأدوات والنماذج في المنهاج الإسلامي [النظام السياسي] والجانب الإجرائي في القيم السياسية الإسلامية ، وكان المسجد هو أهم الأبنية والمؤسسات السياسية التي قامت بدور أساسي ، كشكل من أشكال التنظيم ، التي مورست فيه العديد من القيم الإسلامية مثل الشورى والبيعة والعدالة .

وقد اتسمت أدوات ونماذج الحركة في عصر النبوة الزاهر بسمات عديدة ، تمثل أهمها في : البساطة التي وسمت ذلك العصر الزاهر : كما اتسمت تلك الأدوات والنماذج كذلك بالتواؤم مع طبيعة القواعد والأصول الخاصة بالظاهرة السياسية في المرجعيات الإسلامية ، والتواؤم جاء من الاتصال المباشر بين الأدوات والنماذج وبين الأصول والقواعد التي تحويها المرجعيات الإسلامية التي كانت لا تزال في طور التكوين والتشكيل . أيضاً اتسمت الأدوات والنماذج بسهولة استيعابها وممارستها كسلوك طبيعي تلقائي ، وذلك ناتج عن بساطتها ووجود الرسول الكريم بين المسلمين أسوة وقدوة ومرشد ومعلم .

* عصر الخلافة الراشدة :

اجتهد الخلفاء الراشدون من أجل التمسك بالأشكال والنماذج الخاصة بالحركة السياسية التي صاغها الرسول الكريم ، وكان الالتزام دقيقاً في فترة خلافة كل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، إلا أنه في فترة خلافة عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ، وتعويلاً على متغيرات ومستجدات عديدة ، حدث بعض التباين الذي نتج عنه غياب لبعض الأدوات والنماذج وتعطيل لأدوات ونماذج أخرى .

وقد اتسمت أدوات ونماذج الحركة في عصر الخلفاء الراشدين إجمالاً بالاجتهاد من أجل التمسك بخصائص الأدوات والنماذج التي صاغها الرسول الكريم ، كذلك برزت إضافات ومستحدثات عديدة في عصر الخلافة الراشدة ، من تلك الإضافات تطوير بعض الأدوات والنماذج مثل : ظهور سقيفة بني ساعدة إلى جانب المسجد كأداة ونموذج للممارسة السياسية فيما يتعلق بقيمتي البيعة والشورى ، أما المستحدثات فمنها ظهور الدواوين كأداة ونموذج للحركة السياسية في مجال الإدارة العامة ، ويعتبر الديوان من اجتهادات الخليفة عمر بن الخطاب ، فهي أداة استحدثها الخليفة الراشد الثاني لمواجهة المتغيرات والمستجدات ، وفي ذلك خير دليل على أن أدوات ونماذج الحركة ذات طبيعة متغيرة ، بما يتواءم مع متغيرات الزمان والمكان والأبعاد المتغيرة في الإنسان ، يضاف إلى ما تقدم أن أدوات ونماذج الحركة السياسية في عصر الخلافة الراشدة كانت على صلة وثيقة بالأصول والقواعد الخاصة بالظاهرة السياسية في المرجعيات الإسلامية ، ومرد ذلك التقارب الزمني بين عصر الخلافة الراشدة وعصر النبوة الزاهر ، إضافة إلى التمسك بالأصول والقواعد .

* العصران الأموي والعباسي :

في العصرين الأموي والعباسي ، طال الأمد نسبياً ، واتسعت الشقة بين هذين العصرين وبين عصر النبوة الزاهر . ومن ثم ضعف التمسك بالأصول والقواعد وطمس الكثير من معالم الظاهرة السياسية ، وحدث التحول عن الكثير من أدوات ونماذج الحركة السياسية ، فقد تم استحداث أدوات ونماذج لم تكن موجودة من قبل ، كما تم تعديل شكل وهيئة العديد ، ولعل أهم ما يمكن تسجيله على أدوات ونماذج الحركة التي وجدت في العصرين الأموي والعباسي أنها لم تعد تتمكن من القيام بدورها على أكمل وجه ، وبما يتفق مع القواعد والأصول التي وضعها الرسول الكريم وخلفاءه الراشدون .

* عصر التفكك والانهيار :

بعد انهيار الخلافة العباسية ودخول الأمة في دوامة التفكك والانهيار ، وقعت الانتكاسة الكبرى التي لم تقم بعدها لأدوات الحركة السياسية قائمة ، وظلت تلك الأدوات حتى وقتنا الراهن تعاني من عيوب ونقائص التصقت بها وباتت جزءً من تكوينها ، وسوف نخصص الجزئية التالية لبسط هذه النقائص التي اتسمت بها أدوات الحركة السياسية عبر التاريخ الإسلامي ، الذي يبدأ من العصر الأموي وحتى وقتنا الراهن .

ثانياً : خصائص أدوات ونماذج الحركة السياسية بعد عصر النبوة الزاهر والخلافة الراشدة :

الخصائص التي اتسمت بها أدوات ونماذج الحركة السياسية بعد عصور الإسلام الذهبية المتمثلة في عصر النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، تمثل في عمومها وشموليتها إحدى أهم سمات الإسلام كنظام اجتماعي والحضارة والثقافة الإسلامية كذلك ، فقد أصيب الإسلام كنظام اجتماعي والحضارة والثقافة الإسلامية ككليتين ترتبطان بذلك النظام ارتباطاً عضوياً بقصور واضح في القيام بمهامهم كما أوردتها المرجعيات الإسلامية وكما أريد لها ، وذلك نابع من كون الظاهرة السياسية تعد ظاهرة محورية في الإسلام ، تدور في فلكها الظواهر الأخرى ، وتعتبر بالنسبة لها فرعية تابعة ، ونتج عن ذلك القصور تشويه في شكل الإسلام كنظام اجتماعي ، وتوقف شبه تام لكل من الحضارة والثقافة الإسلامية عن التفاعل والعطاء .

وانطلاقا من كون أدوات الحركة السياسية متغلغلة في نسيج المجتمع المسلم ، فهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحضارته وثقافته ، وهي لذلك تسحب خصائصها وسماتها على هذه الثوابت الثلاثة ، ويمكننا رصد أهم خصائص أدوات الحركة السياسية فيما يلي حتى تتضح علاقة الارتباط المتبادل بين تلك الأدوات وبين المجتمع والحضارة والثقافة الإسلامية .

* كانت أدوات ونماذج الحركة السياسية صنيعة الحكام والمتنفذين ، ليس لتقوم بدورها كما ورد في الأصول والقواعد التي تضمنتها المرجعيات الإسلامية ، ولكن لتحقيق أهدافهم ومقاصدهم ، ولعل استقراء التاريخ الإسلامي ليبرز أن ذلك التاريخ في معظم فتراته قد شهد

خروجاً على القيم والممارسات الإسلامية الأصولية ، وأن النقائص التي لحقت بأدوات ونماذج الحركة كانت من ضمن تلك الانحرافات .

* أدوات الحركة السياسية بالوصف المتقدم أعلاه لم تعد كما كانت بمثابة الطور الإجرائي التطبيقي للأصول والقواعد الواردة في المرجعيات الإسلامية ، بل انفصلت عن تلك الأصول والقواعد ، ومن ثم عن الشريعة الإسلامية ، وكان ذلك نقطة البداية لغياب الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، وغموضها وتناثر شذراتها في الفكر الإسلامي ، فتحدث عنها كل مفكر أو مجتهد بأسلوب مختلف وبطريقة معينة .

لقد غدت أدوات ونماذج الحركة السياسية شكلية صورية لم تتجاوز أبنية وهياكل جوفاء ، ومن ثم لم يقدر لأفراد المجتمعات الإسلامية أن يمارسوا من خلال تلك الأدوات أمور السياسة والحكم ، ومن هنا بدأ الحديث عن الظاهرة السياسية كطرف واحد فقط ، وليس علاقة بين طرفين ، طرف الحاكم الذي يمارس السلطة ويحكم ويملك .

ثالثاً : أسباب عدم مقدرة أدوات ونماذج الحركة على نقل القواعد والأصول إلى أرض الواقع بصدق وأمانة :

بعد أن استعرضنا في إيجاز واقتضاب تطور أدوات ونماذج الحركة السياسية عبر التاريخ الإسلامي . ثم تناولنا أهم خصائص أدوات ونماذج الحركة السياسية ، بدءً من العصر الأموي وحتى الآن ، نتحول في هذه الجزئية إلى الحديث عن الأسباب التي تقف وراء إشكال عدم مقدرة الأدوات والنماذج على نقل القواعد والأصول إلى أرض الواقع بصدق وأمانة ، وتكمن تلك الأسباب في الآتي :

* يرتبط السبب الأول من أسباب بروز ذلك الإشكال بما ساد الحياة الفكرية بعد انهيار الخلافة العباسية وبدء عصر التفكك والانهيار من ركود واضمحلال وإغلاق أبواب الاجتهاد والإبداع في مجال الثقافة الإسلامية والطروحات المرتبطة بالإسلام كنظام اجتماعي ، ومن ثم الظاهرة السياسية التي تناثرت واندثرت ، وتحولت إلى جزئيات منفصلة وغامضة ، ترد في كتابات الفقهاء والأصوليين بمثابة موضوعات إنشائية عديمة المدلول غامضة المحتوى ، تختلط بمسائل الوعظ والإرشاد ، وتبعد عن الوقائع والتطبيقات التجريبية ، وترتب على ذلك غياب المعنى الصحيح للظاهرة السياسية في أذهان أفراد المجتمع .

وكان من شأن ما تقدم أن تبدو أصول وقواعد الظاهرة السياسية في المرجعيات الإسلامية بمثابة تهويمات وأكليشيهات ، ولم يقدر للمفكرين والعلماء التقاط الأصول واستنباط القواعد الخاصة بتلك الظاهرة ، وقد ترتب على ذلك عدم وضوح الرؤية الفكرية لتلك القواعد والأصول ، وقد انتقل ذلك الإبهام من عصر إلى آخر إلى أن تم تغييبها تماماً .

* وترتيباً على الإخفاق الذي أصاب الرؤية الفكرية للقواعد والأصول الخاصة بالظاهرة السياسية ، لم يقدر لأبناء الأمة من رجال الحركة التمكن من صياغة الأدوات والنماذج التي تتواءم مع تلك القواعد والأصول ، ومن ثم ظلت الساحة خالية لأدوات ونماذج مشوهة أو لأدوات ونماذج مستوردة ، وإخفاق رجال الحركة في القيام بمهمة صياغة الأدوات والنماذج ، قد يكون مرده الإخفاق الشخصي الذاتي النابع بدوره عن عدم توفر خصائص مثل المثابرة والجلد والقدرة على البحث والتنقيب والتجريب ، وقد يكون الإخفاق الفكري العام الذي يميز الحياة الفكرية في حقبة تاريخية معينة ، حيث لم تتمكن المخرجات والإفرازات الفكرية من استنباط الأصول والتقاط القواعد الخاصة بالظاهرة من المرجعيات الإسلامية ، وقد يكون الإخفاق الناتج عن ضغوطات الحكام والمتنفذين في اتجاه مضاد للفكرة الإسلامية

حيث يسعى للتعتيم والتشويش على الظاهرة السياسية في المرجعيات الإسلامية ، وهنا يصيب الإخفاق المفكر ورجل الحركة معاً .

* الجزئية الأخيرة في العنصر المتقدم تحتاج إلى إيضاح ، حيث تمثل هي ذاتها سبباً مهماً من أسباب الإشكالية التي نبحثها في هذا البحث ، وتتعلق الجزئية المقصودة بدور الحكام في التعتيم على الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي في طوريها الفكري النظري والعملي التطبيقي ، وللحكام مصلحة مباشرة إذا كانوا لا يسيرون على المنهج الإسلامي في تعطيل مسيرة النفاذ إلى الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، سواء باستنباط الأصول والقواعد أو بصياغة أدوات ونماذج الحركة ، وقد شهد التاريخ الإسلامي وتيرة ثابتة من العمل في هذا الاتجاه من قبل الحكام المسلمين في جل بلدان العالم الإسلامي .

* في نفس السياق المتقدم وبمنهج شبه متطابق عملت الدول الأوروبية التي سيطرت على دول العالم الإسلامي ردحاً طويلاً من الزمان على التعتيم على الظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي ، ليس هذا فقط بل عمدت إلى تشويه الفكرة الإسلامية ، حيث نعتت الإسلام بالتخلف وبغياب الطروحات التي تعالج كافة أمور الحياة ، وللأسف والأسى معاً كان التصدي لهذه الحملة الخبيثة من قبل أبناء الإسلام أوهن بكثير من هجومها العاتي ، حيث تم التأثير على أبناء الإسلام وإبهارهم بالحضارة الغربية واستسلامهم لهذه الأفكار ، يضاف إلى ما تقدم انشغال المسلمين بالجهاد من أجل التحرر من السيطرة الأوروبية ، وفي غمرة ذلك تسيدت أفكار مثل القومية والوطنية الموجة ، في الوقت الذي غاصت الفكرة الإسلامية تحت السطح .

* ارتبط بالسبب المتقدم ارتباطاً عضوياً إقدام المجتمعات الإسلامية لأسباب عديدة على استجلاب أدوات ونماذج الحركة السياسية من خارج نطاق العالم الإسلامي ، ومن نتاج أفكار وممارسات وتجارب الغير ، وقد وقف وراء هذا التصرف أكثر من سبب : فتشجيع الحكام سبب مهم ومباشر ، وتشجيع القوى الأوروبية المسيطرة سبب آخر ، وانبهار طبقات عريضة من أبناء المجتمعات الإسلامية بالحضارة الغربية واقتناعهم بالأفكار والتجارب الخاصة بها كان كذلك سبباً مهماً ، وإغلاق باب الاجتهاد أمام أبناء الأمة ، ومن ثم إحجامهم عن إفراز الفكر وصياغة الأدوات والنماذج كان سبباً أخيراً .

* كذلك كان من أسباب إشكالية عدم مقدرة أدوات الحركة على نقل القواعد والأصول إلى أرض الواقع بصدق وأمانة ، أنه نتيجة لكل ما قدمنا أصبحت البيئة الاجتماعية داخل المجتمعات الإسلامية غير مؤهلة لإفراز الطروحات الإسلامية التي تجتهد من أجل استنباط الأصول والقواعد الخاصة بالظاهرة السياسية في المرجعيات الإسلامية ، وغير مهيأة لصياغة وتشكيل أدوات ونماذج الحركة .

رابعاً : نتائج إخفاق أدوات الحركة على نقل القواعد والأصول :

الإشكال الذي نحن بصدد دراسته ، ألقي بظلال كثيفة أشبهت الليل الداجي الذي لا يريد أن ينقشع عن أدوات ونماذج الحركة السياسية ، ووصمها بجملة من النقائص ، كان لها أسبابها وكان لها كذلك نتائجها ، وقد تحدثنا عن النقائص وأسبابها ، والآن نتحول إلى الحديث عن نتائج الإخفاق الذي لحق بأدوات ونماذج الحركة السياسية ، وأعجزها عن

نقل القواعد والأصول الخاصة بالظاهرة السياسية إلى أرض الواقع ، وذلك من خلال ما يلي :

* ترسيخ غياب الطرح والتنظير التأصيلي للظاهرة السياسية في المنظور الإسلامي :

إن الإخفاق الذي تأصل مع أدوات ونماذج الحركة وأعاقها عن قيامها بمهمة نقل القواعد والأصول إلى أرض الواقع ، قد منع أبناء الأمة من تقديم الطروحات والتنظيرات التأصيلية الخاصة بالظاهرة السياسية والمتعينة في أصولها وقواعدها المستنبطة من المرجعيات الإسلامية ، وقد تطور هذا الأمر مع الزمن وترسخ إلى أن صار ظاهرة .

* ترسيخ غياب الأدوات والنماذج في العالم الإسلامي كتجارب وممارسات :

كذلك ترسخ غياب الأدوات والنماذج في العالم الإسلامي ، بوصفها تجارب وممارسات ، وسلكت الدول الإسلامية مسلكاً آخر ، حيث عمدت إلى استيراد أدوات ونماذج الغير ، وحاولت استنباتها في بيئاتها ، ولا تزال تلك الأدوات والنماذج تصارع تلك البيئات من أجل النفاذ إليها والتأقلم معها ؛ ولا تزال النتائج تعبر عن الاستغراب والاستهجان بين الأدوات والنماذج من جهة والبيئات الإسلامية من جهة أخري .

* ترسيخ وجود الأدوات والنماذج المستوردة :

بالرغم من أن الأدوات والنماذج المستوردة — وكما سبق وأوضحنا — لا تزال قلقة وغير مستقرة في البيئات الإسلامية ، إلا أنها باتت الملاذ الأخير للنظم السياسية في العالم الإسلامي من وجهة نظرها ، وقد خلق ذلك نوعاً من الإصرار لدى النظم على ضرورة

تطبيق تلك الأدوات والنماذج ، على اعتبار أنها من علامات التقدم ومن أمارات الرقي .

• الاحتياج الماس إلى جهود أبناء الأمة :

النتيجة النهائية التي يمكن أن يفضي إليها إخفاق أدوات ونمانج الحركة السياسية في نقل القواعد والأصول الخاصة بالظاهرة السياسية إلى أرض الواقع في العالم الإسلامي ، هي أن الأمة في احتياج ماس إلى جهود أبنائها الثقاة المتضلعين في الظاهرة السياسية المتبحرين في ذات الوقت في المرجعيات الإسلامية لصياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة تحقق ما سبق وتحدثنا عنه بخصوص " الأصالة المعاصرة ".

والله من وراء القصد



البريد الإليكتروني
ALDORAR_ALZAHERA@YAHOO.COM

من أجل
منهج إلهي محقق
وعالم إسلامي موحد
وحياة اجتماعية طيبة
ومسلم صالح حصيف
وخاتمة سعيدة



نهدي هذا
الجهد المتواضع
العبد الفقير إلى عون ربه